

غَسَادَةُ السَّحَابَانِ الْقَمَرُ الْمَرْبَعُ



غَادَةُ السَّمَانِ

الْقَمَرُ الْمَرْبَعُ

قِصَصٌ غَرَابِييَّةٌ

جميع الحقوق محفوظة للطباعة

مطبوعات جامعة البعث

بيروت - لبنان

ص.ب.: ١٨١٣-١٦

الطبعة: ٣٠٩١٧٠

٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى:

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى حبيب
لم ينادني يوماً اسمه الدعشة!

قطع رأس القط

أمة قويا حنية في الذكريات فلها
بأفادت الفرد إليها.

توماس فولر

كي تكون سعداء علينا أن لا
نبالي كثيراً بالآخرين.

ألبر كاسو

خطر للمضي على الإنسان أنه
يجعل منه عبداً.

خطر المستقبل على الإنسان أنه يجعل
منه رجلاً آلياً.

إريك فروم

أنصر بالثوت المستمر للأفباء
والأصميرين بصفة، وهكذا تعلمت
مصالحة نفسي مع الثوت حتى أن
النهاية النهائية والرسمية فقد معظم
تأثيرها؟

سانتياغانا

قطع رأس القط

«عروس ناعرة يا ابني . لما لم يأكل وليس لما لم يمضي . ما تَكلَ فيها غير أنها . لا تغادر البيت دونما استئذانك إلا إلى قبرها . لا تكد إلا الصبيان . عاصمة في النهار وجارية في الليل . عاتق في أصبعك كثيره كذا تشاء وتقطع حين تشاء وإذا فرغت قال لك شيك ليك حينئذك بين يديك» .

كان «أبولود» يصمت وهو يكد لا يصدق أن ذلك يحدث له حقاً . في قلب حي «تروكليري» الباريسي . قبل ستة أعوام من سنة ١٢٠٠٠ ولكن ها هي السيدة الغامضة جلالة أمامه . ثلثة الوجوه . خمسينية . وقد اتزلقت من تحت خازنها الأسود الذي أراسته عصيل حمرة مصبوغة بالحناء كما كانت الفعل عجائز أسرته في بيروت حين كان طفلاً . . لما ظهرَ اثنان طرفتان وتفنن في رفع الكفلة منذ اللقاء الأول كما كان يحدث في وطنه الأم لبنان . وما الذي جعل هذه والمخاطبة تعرض خدماتها اليوم بالذات ، حين التلّدت أخيراً قرار طلب الزواج من فادين في هذه الأسيرة نفسها؟ . .

تتابع السيدة الغامضة : «يا ابني يا عبد الزفاف . . عروس عندها الله في السماء وأنت في الأرض» .

يوسعك أن تتزوج امرأة ثالثة وشاذة وزاهية عليها وتعيش راضية مع ضرائها . بل ولذهب لتخطبك لك العروس الثانية بنفسها إذا لم تنجب أطفالاً . ولكن من المهم أن تقطع رأس القط على عتبة البيت ليلة العرس . أمام حينها . فتفهم أن مصيرها كنصيره إذا لم تقطع» .

بدا الأمر لأبولود طريقاً لو لم تلفظ السيدة اسمه الأصلي : عبد الزفاف .

مباركه جيمساً في باريس يدانوته «عبدول» و«لفظونها» «أبولود» . إذن فالسيدة الغامضة صديقة لأنه حقاً ما دامت تعرف اسمه الأصلي (كنت أرثني ثيابي واستعد للخروج حين رنَّ جرس الباب . تعجبت فقد كنت أغتصم مطلاً وقد سمعت والذي ينفث للكهربائي كي يمر بنا لإصلاحه .

فتحت الباب. شاعدها يتدفق الضوء من خلفها والفتحة كعمود من السواد والدخان في معطفها الأسود الذي يغطيها كالسحابة متصلاً مع سواد حمار حنطته حل شعرها مائلاً كما في الصور البيرونية القديمة.

سألتني عن أمي بالعربية فقلت لها إنها ذهبت لشراء بعض الحاجيات برفقة والدي وسألتها هل هي على موعد معها.

أجابته ضاحكة: ومنذ متى أنا بحاجة إلى موعد مع أمك يا بني؟

فكرت أنها قد تكون صديقة قديمة لها، ربما لا أعرفها لأنها لم تزور باريس من قبل، ولعلني شاعدها في بيروت فوجهها مألوف ولكنني بالتأكيد لم أرها منذ حشرة أعوام حل الأتقن لي منذ إقامتنا هنا بعدما طردونا بيروت.

أضألت: وما حبيبي كم كثير. كذبت لا أعرفك.

شيء ما في نظري أمرني بأن أدعوها إلى الدخول. شيء ما في حضورها جملي أبداًها رفع الكلفة حل غير عاتق.

اعتلرت من القمار الذي يغطي أرض المدخل، فالعجار الذي مر حل حين غرة قليل قليل لتصلق المرأة البلديدة للمدخل ترك ورائه عمار حفاوة الجدار، كما ترك مريعاً من الزجاج كان من المفترض أن يستبدل به الزجاج المكسور في نافذة الحمام الصغيرة لو لم ينس أدواته وبعد بالعونة في اليوم التالي بعدما ملته حل أرض المدخل.

وحين جلست حل المقعد الوثير خبرتها عن الزيارات الدورية لأمي وأبي إلى مسطحات الخضار الشعبية في بعض الأحياء حيث هما الآن، وقلت لها: كمعظم المغتربين نحن نأرمس هنا لبنائنا مطيحياً ولولكلورياً.

نهضت من مقعدها وهي تتلخع معطفها كما تلعل البيرونيات في حضور غير «الحارم»، ولا حظت أن المقعد الوثير تحتها لم يتغير بفعل وزنها والوسائد لم تبدل هيئتها كما لو أن عصفوراً حط عليها لا امرأة.

بدأت تبت سبعة من (الكوربا) (*) وضمرت أنني أعيش ما يشبه

(*) الكوربا: حمار شبه كرم Assevo.

الحلم، فلما أتاهى عاتق بالتي حقلاني ومنطقي و «كارتيزيان» كما يقولون هنا في باريس، - أي من أتباع ديكارت -، ولذا صرت أبحث عن تفسير منطقي لأسئلة من هذا: من أين هذه السيدة بمعرفة اسمي الحقيقي عبد الرزاق بدلاً من أهدول؟ ولماذا رن الجرس المعلق تحت أصبعها؟ ولماذا لا يتغير القعد الوثير تحت جلستها؟ ولكن، بالمقابل، لست متأكدًا من أن جرس الباب قد رن ولعلّي سمعت حركتها أمامه فافترضت أنه رن. أما القعد فليس يوسمي أن أجزم في هذه الأضامة بمدى تقبّره. أما أصعبي فمتعبة بالتأكيد، فالحقلاني لقرار الزواج من ناهين لم يكن سهلاً.

تابع كلامها بجديّة مفروطة وهي تعبت بعيات سبحتها ذات الكسرات العسليّة: «عروس نادرة يضاء شق القلب»^(*) تقول للقمر قم لأجلس مكانك. لا تفك الحروف كي لا تفسد القراءة أصلاقتها ولا تسرى التلفزيون إلا بأمرك. لا ترتدي الأحمر إلا في البيت أمامك. وقطع فراعها قبل أن تدها من الباب ويراعها غريب. لا تشر القليل على السطح إلا بحجة خوفًا من كلام الناس وميون الميران والشيطان. لا تراها إلا ضاحكة ولا يراها أحد غيرك إلا عابسة. لا تصافق إلا النساء الفاضلات اللواتي تختارهن أنت بنفسك، والتي لا تعجبك نظرها حتى ولو كانت أمها.

الكلمة في البيت لك والسكرت والسمع والطاعة لها. أيا كان ما تقوله نجيب: أمرك يا سيدي يا تاج وأسي.

لا تقطف الأزهار من أحواض الشرقات ولا تطل من النافذة. لا تستمع في الراديو إلا إلى البرامج الدينية وبرامج الأطفال مع أولادها. لا تدخن ولم تشم رائحة الحبر في حياتها. لا تقول كلمات مثل «موزة أو خيارة أو بيضة» إلا وتضيف عبارة «ولا معنى» بعدها لكي تنسأ من الإيحاء بمعنى جنسي. بنت ١٤ سنة تصلح للزيجة المدروسة.

(*) يضاء شق القلب: تعبر على تعصبه به يضاء البصرة التي يذبه يضاءها لون القلب بعد خلع إلى نصلون. والياض صفاء جمالية مستحبة جداً عربياً. والمقابل لها تطلق في الأدب الغربي تعزاً خاصاً بياض المرآة التي تلملح هناك لبعض بمرها تحت الشمس.

يكاد يتفجر ضاحكاً وهو يتخيل وجه تلك السيدة الضاحكة لو شاهدت تالين، الشابة التي ينوي أن يطلب منها أن ترضى به زوجاً هذا المساء بالذات.
 سيقع عليها بالتأكيد لو سمعت حوارها أو شاهدتها معاً. ولن تصدق حينها لو عرفت أن بيتاً كتالين يجدهن أزواجاً (مثل الجسر قرب باريس وقتنا ذلك) التفجر الجعيل مع رفاق النادي الرياضي. فبدأوا قديمي ناديهن بالمطاط جيداً وسط الضحكات. كانت تريد أن تحجب تلك المقلقة في الفراغ عن الجسر، مربوطة بحبل مطاطي خاص من قديمها، حيث تهوي وقيل أن تراقط بالأرض يميدها المطاط إلى أسفل كلتي «ويو» بشري.

حاولت القاصي والرفاق بالانضمام إليهم. قلت لهم إني صرت عجوزاً في الخامسة والثلاثين من عمري ولا أتلق هذا النمط من الرياضات العصرية وجائز صبية في العشرين. ضحكوا علي وعجلت من جبتي، ولم أحجل من حين تلك الجلبة الجميلة المدعوة تالين.

هربت أسرها من الحرب وهي في العاشرة من عمرها فكتبت في باريس وتوجهت مزيجاً من سحر الشرق والغرب معاً. شغرت كخالية عسل الأجداد يسيل حل جاتني وجه مضيء بالأمل والحياة والذكاء المتحمدي لشابة مبدعة في جنوبها محقة في حراستها كواحدة من التطورات في العهد العالي الشهير «H.E.C» حيث تدرس إدارة الأعمال والتخطيط المالي. لا التسليم المتزلي واللغات بالتقار العريس كصباها الأسرة في بيروت أيام كنت صبيها صغيراً، أراهم حولي يدرسون أشياء خاصة (بمقلتين) كما تقول أمي كالأدب الانكليزي والفرنسي الذي حرمته أنا حتى الدكتوراه!

جرتي تالين من يدي بقامتها التي تعانلي طولاً وأقصرني حل التمدد فوق الأرض وثبتت جسدي التحيل الحش بذراعها الرياضية القوية وطلبت من الرفاق حزم قديمي بالمطاط بيتا رحت أأمل مبهوراً قامتها الباسقة التي بدت في أكثر طولاً واتصافاً من عندها، ساقين جميلتين مفتوشين وشهدودتين تمت جورب رياضي يغطي الركبة ويبدو جزء من اللعنة المعاري بين الشسوت والجبورب شها. جمال من لطف جديد لا يشبه عجينة الفنج نصف المتحلل نتجيات السينا القديمة اللواتي كنت أحلق صورهن في غرفتي البيرونية أيام

مراعاتي. بدت في امرأة من فصيلة أخرى، أحبها لأنها كذلك. وأتوجس شراً منها لأنها كذلك أيضاً! وما يجذبني إليها هو تلكه ما يجذبني منها! وكل ما يدفعني إلى حبها يدفعني إلى الخوف من الزواج منها!

حزموا قلبي مع الضحكات وهم يهتفون بالفرنسية أهدول سيفيلز، وقالت كوايت صديقة تلدين مازحة إنها تعلم بحزم أقدام جميع الأساتذة وورعهم عن الجسر على أن لا يكون المطاط جيداً وينقطع. كهنهوا وجرروا، ذعر سري: لا أستطيع أن أقفز هكذا في الفراغ حتى ولو كنت مربوطاً بحبل والسرعة المطاطي!... نعم. أنا خائف. رجل وخائف. ليست لدي روح المغامرة. أكثره القوط مع الحاجات. قالت تلدين: هات يدك للقفز معاً. قلت لها: اقفزي أنت أولاً ومعني أكثر... لا أعتقد أنك ترعدين القفز حقاً. لكنني كم ذلك خطر. أن تقفز أو لا تقفز تلك هي المسألة...

قالت مداعبة: حسناً يا هاملت النيثاني... أوفوروار... ومدت ذراعها كالصليحور وقررت في القضاء وهي تصرخ بالفرنسية التي تتكلم بها طوال الوقت: حرية...!

حُلقت في لحظة طيران وحرية مطلقة، وبدت لي وهي تطير في الجو فصيلة جديدة من الوارص. ثم هوت كما لو أصيبت بطلقة نارية، عليها قانون الجاذبية ولم تصرخ وانخلع قلبي: ماذا لو انقطع حبل المطاط؟ الخطأ البشري ممكن دائماً، فهذا لو راحت ضحيته؟...

وطلعت بهوي بهوي وقلبي يغمص كما يحدث لي دائماً حينما أشعر بأن الأمور تخضع لسلطان لا يد لي فيه وأعجز عن تحريره. وبالثاني أرضض غالباً الخفاة الفوارات الخامسة بشأنه وأقبل الحرب منه. وبصموتي بالجبن الحاملي والمعجز عن اتخاذ قرار وأنا مجرد ميكانيكي مذخور على حبيبة ما زالت بهوي. وبعد ثوان أو دقائق أو ساعات لا أدري توقفت عن السقوط قبل أن تلامس صفحة النهر وارتدت بقوة المطاط إلى الأعلى وسارت تتأرجع كالبيور البشري جيدة ونعياً في ذلك الفضاء القضي المزرق المزرق بالحقول وخيوط الشمس التي بدأت ترسل نحيبها الضوئية في الاجتماعات كلها. غمرني الذعر حين تميلت نفسي مكانها

أنوس في الفراخ هكذا وقلت لكوبيت: أرجوك ساعدني حل فك وثقي.
عشيت أن تعود تدين إلى الجسر وأنا لما أعود بعد وتقرني حل
الفلز... .

وعشيت أيضاً من اليوم الذي تتحول فيه تدين إلى طائر رخ هائل عبت
أنتك بريشة لأطير معه وأنا مدهور).

تابع السيدة الغامضة لعب دور الحاطبة، متفتة في ذكر فضائل عروسها
التي إن يدهشه أن تخرجها كالحلوي من حفية يدعا. (مور لا يبدو في غريباً
جداً في البداية، فقد عاشت متاخمة في بيروت أيام طفولتي، وكان ذلك ما يزال
يدور أحياناً حولنا ينتثر البعض به لكنه يساهم في حقد بعض الزيمات. وما من
سيدة حسنة أمة تحترم نفسها إلا وكانت للعب في ذلك الزمان دور الحاطبة
التي شاب حشريني ثلثي به وأخرج الصبايا له من ملائها كما يخرج الساحر
الأراب من تبعته. وكنت أظن ذلك انتهى مع الحرب، أو بقي جوهر تلك
النظرة إلى الزواج قائماً و«تصغرت» سبل التعبير عنها. ولكن المشاكل المنظمة
لم يتم تكتسبها كلها من حديقة الدار لها يد).

نصت إليها وهو يسترخ على شعوره بسرور خفي غامض وهي تقول وتكرر
دون أن يفسجده التكرار: «أنت ملك البيت ومسيد الكل وهي صيلتك. إذا
منيت تشي خلقك حل بعد خطوة ورائك لا تزيد ولا تنقص، لا تسكب الطعام
في صحنها إلا بعدك وقطعة اللحم الكبيرة لك. كلمنتك لا تصير اثنين. صوبها
لا يرتفع أهل من صوتك إلا ساعات غاضها. لا تفهم في السيلة ولكنها تخرج
في أية مظاهرة إذا أمرتها. إذا لم يعجبك شيء ضربتها وأدبتها وعلمتها كيف تأكل
القطعة عشامها وهي ساكنة. عروس عجبول تشي من أكل موزة أمام
الناس... .

بدت له الجلسة عزلية وهزنة وممتدة في آن... . والأنا تذكرني بأجاء غابرة
ولت ومميزات كنت أرثها لجرده أنني ذكر؟ أم لأنا توفظ في أمهالي شخصاً آخر
يفطني وكنت أظنه قد مات ودفن في باريس؟ هل أنا مسرور بجلسي الطريقة
مع هذه الحاطبة الغامضة لأنها تذكرني بقيمتي كذكر في بلدي وبلدان أخرى
حيث أتحني بعض الإضافات اللحمية مزاجاً ومكاسب غير قابلة للمناقشة؟ إنها

تذكرني بزمان كنت فيه مبتدئاً وكان يكفي أن أبدو حائراً لتجرح المحلات والمئات لتقديم الحلول وعرض الخدمات! كان ممكناً أن أكون رجلاً في لبنان الغابر ويبدو أنه يروق لي استحضار هذه السيدة لأنثي الذكرية حين كانت عجائز أسرتي يشفقن الأخالي الشعبية البليجة والأعضاء الأطفال المذكور فرحاً بهم وفخراً بفحولة الزمن الآتي، أمام حيون بنات الأسرة مكسورات الحاطر.

نظر إلى ساعته كي لا يتأخر عن موعد مع نادين أمام مدخل ناديا الرياضي ولكنها كانت ما تزال تشير إلى الخامسة كأنها تعطلت أو كأن الزمان لوقف. السيدة الغامضة ما تزال لمحت بعبات سبحتها.

يقول لي أنه شاهد هذه السبعة والكورباء في مكان ما، بأحجارها النخرة والحشرات المتجمعة المنحلة داخل شفاقيتها العلية منذ عصور.

تتابع السيدة الغامضة: «يا ابني عبد الرزاق. المرأة جانحها مكسور وهي لا شيء بلا رجل، قيمتها من قيمته، وإذا لزمتم لدخل عدتها (٢٢) الأول عدة شهر لا ترى خلالها رجلاً، وحين تنتهي العدة تنابح حداثها على حياتها في (عدة) مفتوحة رثياً بنعم الله عليها بزواج آخر. ما قيمة المرأة إذا لم تكن زوجة فلان أو عمة فلان أو أم فلان؟ المرأة جانحها مكسور يا ابني...»

صارت تكررها بلهي وهي تضرب على صدرها بيد مزينة بالخرائب والحلي القبروتية العتيقة من «مرومات»^(٢٣) وسواها والذمغ يكاد يسيل من عينيها كمن يبكى زمناً حلوياً. (المرأة جانحها مكسور؟ أه لو ترى انكساري أمام عطفوان نادين وطيفان حضورها الإنساني.

ترجعت على الثلج في «ميجيف» وأنا أناملها مثل مهرة عصرية بتطايير الثلج تحت سنايكها، ثم جاءت لداعبي: ألم يكن هاملت بترليج على مرتفعات الدامرك وتزوجها؟

قلت لها: أحب أن أترك الذكرى تترليج وحدها على تلال الذكريات..

أجابني: يا هاملت اللباني الحارث من القعل إلى الشعر، فلما لا تعترف

(٢٢) العدة: فترة انتظر على امرأة الانتظار خلالها قبل الزواج ثانية.

(٢٣) المرومات: أسراراً شائعة محلياً.

يساطة أنك لا تحب من تعاليات الجسد إلا رياضات الفراش؟

ضحكتُ. لم أضحك من الداخل. تتعني صراحتها ونظرها الشاذة للأشياء، وربما لذلك أحبها. إنها تثقيفي بمعنى ما. هي تذكرو الأوهام ولحب تسمية الأشياء بأسمائها وأنا من رعايا لغة الأهماء والتطميع وأخنة ليروز دوما ولا تحب. - تعال ولا تلت! -

قلت متاكداً: وأنت أنتب مثل لبنانية؟

أجابت: أنا امرأة عصرية وواقعية وحررة ومستقلة وعاشقة ولبنانية. إذا كان يمن لي جمع هذه الصفات كلها مع لبناني فأنا لبنانية. أراك يوحسوح وأعرف عيوبك وأحبك وأعرف أنني مشغلة بالمعيب وأريد أن أحب حقيقي لا صورة ترسمها لي ثم تحاول أن ترضي عن أن أصيرها! - وأنا أحبك حتى الجنون العاقل! -

- أحبك ومستعدة للارتباط بك. وعليك أن تتخذ قراراً. لا مفر من مواجهة الأشياء، لتتخذ معاً يا هاملتي العزيز. لا مفر من اتخاذ قرارات في الحياة. هذا ما أحرصه في العهد: من اتخاذ القرار.

قلتُ في محاولة للتخالف عن شجار عتمل ميدلاً الموضوع: حسناً، أنا لا أحب الرياضة وأفضل الشعر وهذا من حلي.

أجابت: أنت تكره الرياضة حين أمارسها لأنها الحرية. إنها انعكاس لحرية روحي وحلي. وانعكاس لعجزك عن التفكير على الطريقة اللبنانية، كما يمتلك أي أمي. عندك في البيت نموذج مشابه.

نعم أنا لبنانية ولكنني لستُ نسخة عن أمي، أما أنتُ لبنانيك أن تكون صورة عن والدك حرصاً على مكاسبك. إنك تريد أن تتابع حياتك كأن الحرب لم تكن والزمن لم يمر. أنا جئت طفلة إلى باريس وليس يوسعي أن ألقي ما شاعده هنا وما تعلمته. . . . إنني امرأة مختلفة عن أمك وأمي. . . .

استلأتُ بالقضب لكنني كبحته وقلت لها بهدوء مضطجع: ولكنك أنتي أيضاً لبنانية. هل تعلمين أن جسيبتك الفرنسية تبدل من الأمر شيئاً.

أجابت: أنا لبنانية بمعنى الحرية، ومعنى أنه ليس يوسع أي ذكر لبناني أو

غير لئلي عبارة استبداده عليّ لكأس موزونة لا شخصي. فولكلور المطبخ في بيتنا لا يجمعنا بما يكفي لتأسيس أسرة، أنا امرأة متعمل وستكون حرة وستختار أن ترتبط أو لا...

قلت لنفسي: وصلنا إلى بيت القصيد. وشهرتُ السلاح الأخير: ليس بوسحك العمل بعد زواجك من أي رجل. من سيري الأولاد؟ ومن سيحمل مسؤوليات البيت؟

لم أقل لها عبارة «بعد زواجنا لأنني كنت أخاف الزواج منها وأثناء في آن!

زمت شفتين شهيقين وقالت: ستقاسم المسؤولية، وعددتُ ستجد أنت عشرات الأساليب للهروب من تسطك منها، كاستخدام الخدم والمربيات، وسأكتفي بذلك...

تأملتُ بدوء غير مصطلح: كوني احظن اليخنة تسعة أشهر ليس مبرراً لتجريدي من حقوقك المدنية... لا أريد أن أكون موقوفة عند زوجي أي سكرتيرة بيتية. لي أنا أيضاً عملي وعالي وعذابتي والفكوري، وأنت جزء من حياتي لا محورها. لم يعد الزواج جزءاً من حياة الرجل وبهاية حياة المرأة... الحب جزء من حياتها معاً وليس محورها لها. أحبك ولكن... وعبارة «ولكن» أهم من عبارة «أحبك»...

ولم أقل لها إن مسألي هي أن الحب محور حياتي، ولما لحظات أشعر فيها أنني أريد امتلاكها، إصرافها كما فعل بك الجن وصنع إناؤ من وملعها أقل أشرب منه حتى الانتصار عليها. لم يكن ذلك صحيحاً كما لم يكن كليباً شاماً. فأنا بالتقابل أحب رأسها ولا أريد قطعها ليلة العرس ولا يسلعها، وأفضل التضامن معه.

لملي بالفعل هامت اللباني: أحرف الاحتمالات كلها وأقلب الأمر على وجوهه كلها ولا أدري شيئاً غير أن الزمان يمر والعالم يتبدل وأنا حائر.

ذلك المساء متحتني جسدها ببساطة، كتباً تلمسه رمال الشاطئ تحت جسد الليل الدافئ، بعلوية وبراعة. تذكرتُ «دلالة في بيروت»، ومارعفتي،

وكيف تراجعت يومها قبل سقوط قلعتها الأخيرة كأنها كانت تغلق حطة مدروسة
لستعرض أمامي ما سأعمره إذا لم أترجها! . . بحيث كهذا لا تعرفه نائين . .
قدمت لي يومها أدلّاه تفاسيها. تركتني أركض في حطوطها، أفس التفاح وأشمه
وأقبله وأعبث به على هوائي شرط ألا أقضم تفاحة بلبل ليلة الدخلة! .

تأهب السيدة الفاضلة للذهاب، ولا يدري عبد الرزاق لماذا يرغب في
استيفائها قليلاً لسباح الزبد عن صفات المروس المحملة . . . ولم يخل عليه
بالمزيد: الطاعة. الرضى. الجمال الحسّوس ليلة الدخلة المهمة جداً (حيث لأعجب
دور القاضل كما كنت أحلم مراصفاً قليل عفتين وأوقع اسمي بدم جرحها على
حرقة يعضه كانوا إلى زمن ليس بعيد يطوفون بين الأهل المقربين ويدفون
الطبول سبعة أيام وسبع ليال، قلعة بكاره إضغاية من بكارات القبيلة تم لفها
على سنة الأجداد).

سأله الحافظة الغامضة هل يعني عروسه شعراء أم سمراء، طويلاً لم
متوسطة الطول . . . ويغيب عنه صوبها كالمسحوق . . . (وقبل أن تتعري نائين أمامي
على الشاطئ إلا من ورقة التوت في «جوان له يانه» وتتمسك على الرمل الحار
لتصير امتداداً له قالت لي: وأنا لست عذراء).

لم تكن تتعري لي وحدي ولا لبينة رواء الشاطئ بل للشمس ولنفسها
كما قالت ضاحكة: لماذا من حطك أن تستمتع بولع الشمس على صدرك وليس
فلك من حقي؟ أليجهد أن ألدني زوائد لمحبة لإرضاع الأطفال؟ كيف يمكن
للزوائد الشحمية عندك وعندي أن تكون مصبواً للتفريعات والقنواتين
الاجتماعية؟

قلت لنفسي: إنها جميلة وبسعتني أن أراها شبه عارية وبضائقي أن
يراعا الآخرون ويغتفي أنها ليست عذراء. أريدها في وحدي

أريد ترويض تلك الثمرة واستلاكها وستكون متعني أكبر فيما بعد كلما
كان الترويض أكثر صعوبة.

أردفت بهدوء: «هل يضاهيك أنني لست عذراء؟»

أجبت بهدوء مماثل لكنه مضطجع: أجل. يضاهيني. من هو الذي . .

لاطفتي: هل تعني أنك أنت (مطلوبة)؟

أجبتها: أنا وجل...

قلت: وأنا امرأة. وكونك رجلاً لا يمنحك عتدي أية مكاسب موروثة.

قلت: من هو؟

أجبت: من هي؟

قلت: لا لأمر.

أجبت: وأنا أيضاً. هل نظني سائحت نصياً تذكرانياً لكل نزوة أو

مغامرة أو شهوة اكتشاف؟

بدخر ما سأقوله لك: إنني مثلك تماماً بكل سموك ووضاحتك ونزواتك وشهواتك. وأنت لا تستطيع لمعي بسطوة المجتمع أو القانون في فرنسا كما هي الحال في بلدنا. وإذا كان ذلك يضاهيك من الأفضل لك أن تفتش عن عاقبة نجد لك حروماً لم يُقبل فيها إلا أمها، وما فم يأكل وليس لها فم يمكّي كما تتلذذ أمي في أمثالها.

هذه أنا، امرأة لا تشعر بالذنب لجرد أنها ولدت كذلك ولا تعطر حتى عن نزواتها - كلّي رجل - وليس بوسعك أن تمتلكها إلا إذا أحببتك.

كنت أقول لها: إنني تزوجي من فرنسي ثم تذكرت أن بعضهم، أيضاً، قد لا يرضى بشروطها. وسكنت، فقد كانت أجل من أن يقول لها المرأة كلمة جارحة).

تهبّ السيدة الغاضبة وهي تقول: لقد تألمت. لم يعد بوسعي البقاء. تودع عبد الرزاق دون أن تصافحه. يسألها أن تترك عنواناً لتتصل بها له حين تعود. تقول: الاتصال بي صعب. سأفعل ذلك بنفسني.

يُقبل إلى عبد الرزاق أن صورها لم ترسم في امرأة للدخول وهي امرأة أمامها. تأمل فستانها ذا الطابع القديم كما في صور واليوم الأسرة وهي تخطيه بمعطف أسود طويل كالعباءة ونحشي حبوب باب الخروج بهذاها شبه الآثري بتصميمه العتيق. لا يدري لماذا تغمره رغبة جارفة في استيلائها. لا يريد أن تذهب.

يقول لها: انتظري أُمي . سنعود بعد قليل.

تجيب بتبرأ جوفاء: لم يعد تلك يوسعي يا ابني . يجب أن أذهب .

تشي على عجل . لدوس دولاً اثنين لوح الزواج الذي تركه التجار معلقاً على الأرض . لا ينكسر تحت وطأة ثمنها .

يصل المصعد . يتفتح بابه . تلتذره الجلالة . يهيئها . تختفي الحطاطة الغامضة داخله .

يسأل الجلالة عن الطقس وهي تخرج مقاليدها .

تجيب: جيد . ولكن لماذا لم تستقل المصعد إذا كنت ذاعباً .

يقول بدعشة: كنت أودع السيدة .

تسأل: أله سيدة؟ لم أر أحداً .

يعود إلى البيت . تبدو له الزيارة غير حقيقية وحقيقية في آن مثل حلم .

لا يجد في المصعد وماذا لفافتها التي كانت تدخنها ولقنته بالاسم الطريف على العلية وخاتمهم ويغطيها الآخر الغامق اللثمن . لقاعة لم ير مثلها من قبل . لا يجد أيضاً آثار ثمنها على غبار (الاستريم) . الدخول المدموع بالآثار حطائه وحده جبهة وألعاباً . أما لوح الزواج الذي شاهدنا تدومه فلم يصب حتى بخدش أو يروح إلى الشرفة ويراعا . إنها تغمر المبنى وتقطع الشارع كمن لا يلوي على شيء ولا يتالي حتى بالسيارة التي تصنعها .

يركض كالفجئون إلى المصعد فمدخل المبنى مرتاحاً من مشهد يتوقعه: هي ممددة على الأسفلت تحتضر وقد تجمع الحارة وحارس المبنى حولها (سكينة على جامت لصوت عندنا؟) .

يصل إلى الشارع . لا يهدأ وكل شيء يضي في طريقه كالكافور .

يسأل حارس المبنى عن السيدة التي صعدتها سيارة . يقول الحارس إن شيئاً من ذلك لم يحدث .

يؤكد له عبد الرزاق أنه شاهد حادث صدم سيارة لسيدة من شرفته . يقول حارس المبنى إنه لم ير شيئاً ولم يسمع شيئاً .

يؤكد حينئذ أن التصدعة هي البسطة التي راوبهم ويذكر الحارس ثلثي توصافها. يقرر الأخير أنه لم يفتخر مكانه في غرفة الزوجانية مقابل الباب ولم يفتح الباب الكهربائي إلا في ليلة كهلة.

يعود عبد الرزاق إلى البيت مضطرباً. (إنني وأعم بالأكيد. الجارة لم ترها في المصعد. حارس المبنى لم يرها لدخل أو تخرج. الجرس المتصل لم يرن. لرح الزواج لم ينكسر تحت قدمها. المقعد لم يسجل أثر جلستها. وماء طافلتها اختفى. . . مثلهاء، لأنها بساطة لم تحضر. وأنا بالأكيد متصب الأعصاب إثر قراري الزواج من ثنتين وربما كان علي أن أعيد النظر في ذلك. . .). ولكن البسطة ما تزال متربعة على الطاولة حيث نسبتها الضيقة لا يجرؤ على مسها. يتأكد أن تكون هي الأخرى وهماً كصاحبها.

يدخل إلى غرفة والده أو غرفة الذكريات كما يحلو له أن يدعوها، كمن يشتش عن جواب وقد انتعشت ذاكرته وبدأت ترسل له إشارات غامضة.

يجلس على المقعد ذي المسندين المزين بأشغال صنارة أمه في الغرفة نصف الممتدة مسافة المسائر ذاتياً، كما أحب أن يقبها أمه ربما لتتخيل أن البحر ما زال خلف النافذة والغرفة ما زالت في بيروت. مضطرباً، يحيل عبد الرزاق عينيه في الفلوحات كمن يراها للمرة الأولى. لوحات لعمر الأنبي ومصطفى فروع وجورج حاوود لرم، حملها والده معها من أيام الغزاة كما يسمى الجميع أيام ما قبل الحرب في بيروت.

يتأمل دانتيل الفراش الذي سويته أمه بيديها الموجهتين للصائتين بالبروماليزم.

يتأمل المرأة المنحادة بالفضة للطروقة والمصنوعة في لبنان قد شابهها صداً عريق جداب، وسوط والده الملحق على الحائط متعلباً مثل راية منكسة لم تعد لها أية فقرة على الانتصاب.

يتأمل مائدة لها خطاء مشغول بقصب محلي وفوقها الصور العائلية القديمة. . . فكان يفر من هذه الصور قبل ذلك. يهرب منها. يريد أن يتعمى لل حيث هو بكل قوله، ويترك والديه العجوزين لزمان الذكريات.

يشمل في النور الشاحب صورته طفلاً وصور شقيقاته وأخوته وكلهم يكبرونه منا وبينهم من قتل الآخر في الحرب وكثروا في الصورة متمتقين (إنها صور أسرة قاهيل وهانيل . . . الغرفة خارقة في ضوء رمادي بين الأسود والأبيض كاللجج أو الغروب وتلقي خروق في الإضاءة ذاتها).

لأن هذه صورتي طفلاً وأنا في السابعة من عمري. في وجهي نظرة اعتزاز لا تبدو في عيون شقيقاتي ربما لأنني صبي في أسرة يحب الصبيان أو لأنني كنت أحس أنني سأبقى الصبي الوحيد بعد مصرع بقية «المقاتلين» من اخوتي . . . الصبي الأصغر الذي تخصصه الحفلات والمناسبات ونساء الأسرة بالدلال . . .

للغرفة الأولى يدر عبد الرزاق وقتة في التحقيق في الغرفة بحثين كمن يودح لحظة حارة تتلظى في الضوء المغبر تدريجياً.

(كانت هذه الصور هنا ذاتياً ولم أرها. كنت مشغولاً بحياتي عن ذلك. لم يخطر لي يوماً أنها جزء مني بتفصيلها وغيابها وبقصورها القامض كذكرى راقية).

بالمل بداية الصور دون أن يسمح عنها غبارها، قائم تترك الغبار بتعليقها ونسجه من كل ما في الغرفة باستثناء الصور . . .

يعلق في صورة أمه أيام كانت شابة جميلة متوهجة بالحياة تلف تحت جاتح أبيه النحل الرقيق بالبنانة كلها وهي. يرى صورة أخرى لها عاطلة بشيفاتها. يمدد لحياته كمن خربته صاعقة (يا إلهي. حله خاطي بدوية الواقعة إلى جانب أمي. إنني أذكرها. إنها هي بالتأكيد . . .).

توقف نظراته حنينا. يذكر أنها ماتت بالسرطان وهو بعد في الثامنة من عمره. قيل له إنها كانت تحبه كابنها الذي لم تزرُق به لأنها لم تزوج. لم تكن جميلة ولا بهيئة، وهو خطأ لا تغضره الحادثات بسهولة.

قلبه يفرج كطبل يمنون. يتأكد من حقيقة لا سبيل للإبائها: المرأة التي زارتهم مساكلة عن أمه هي حالته بدوية أو أنها تشبه كثيراً امرأة الصورة، حالته بدوية (بل وترتدي الثياب ذاتها كما في الصورة ولها للشليل المائل فاته. أمي

تقبه عظامي كثيراً إذ لا يُعقل أن تكون هي نفسها بعدما صارت عظامها تراباً من زمان).

يشعر بالذهول. يسمع مفتاحاً يدور في قفل الباب الخارجي ولا يتحرك. يسمع أمه ووالده يتبادلان التهادي لتجلبعها في الحصول حل والقرع^(*) والغندباد^(**) من البسطاء مقابل غلغله ولويسياه.

لا يتحرك. تناديه أمه. لا يتحرك. يسمعها تقول لوالته: هذه البسحة ما الذي جاء بها إلى هنا؟ إنها بسحة أخي بدرية رحمتها الله. قرأت عليها والصمدية عشر مرات حين ولد عبد الرزاق. لا يتحرك.

تقول بدعشة: من الذي نبشها من بين حفاقي في القبر؟ لا يتحرك.

يسمع والدته يقول: لا أذكر أنها كانت في حفاقي القبر. لعلنا نحن أخرجناها من خزانة خرفة الثوم حين قمنا منذ أيام بترتيب الخزانة. يرن الحائط. لا يتحرك. الذهول يلغره.

تدخل أمه إلى الغرفة. تجهد جالساً. تشق نصف مرتاحة وتساله عما الذي فعله هناك هل أنت مريض يا حبيب؟

لا يجيب. يحاول أن يقول لها شيئاً عن الزائرة التي جاءت في غيابهـا ولكنه يصمت كما لو كانت الزيارة تخصه وحده. تكرر أمه سؤالها. يقول: لا شيء. كنت فقط أتأمل هذه الصور. هذه السيدة الواقفة إلى جانبك في الصورة أليست عظامي بدرية؟

- أجل إنها عظامك بدرية. كنت مدللها وكنا ننشر بحراسها لجميع والسين بالخلال، فهي تحب دور الخطابة دون أن يكلفها أحد بذلك. وكنت طفلاً وكانت تخبرك لك العرائس! لو عاشت حتى اليوم لما تركت هكذا عجوزاً بلا زواج والصلح يلزوا رأسك.

تتابع مستعركة: اعلمي. لم أعرف أنك كنت هنا. لقد هضمت للنين قبل دقيقة وسألت عنك وقلت لها إنك غير موجود.

(*) عصار شعاع في لبنان.

ينظر إلى ساعته. يجدها الخامسة والربع. (إنه عاد الزمن يتحرك!).
.. كمن يصحو من غيرة، ينهض مهزولاً وهو يقول: لدي موعد معها
بعد ربع ساعة.

قبل أن يغادر البيت يلبح سبعة حبات بدوية على الطاولة. يمكك بها
يحزن ويغلبها في جيبه.

يغادر المرائب سيارته، يتوقها متبكاً حاراً لا يلدي ملأ يحدث له.
عند المتوقف يلبح حباته بدوية تركن في شوارع باريس والسيارات
تدسها وهي لا تبالي وتتابع ركضها أمام عينه...

يون حين وآخر يتحسس سبحتها في جيبه يحلين ويدعش. (من أخرج
هذه السبعة من صناديق الزمن؟ هل يمكن أن أكون قد فعلت ذلك يوماً وهي
ملي؟).

أمام مدخل النادي الرياضي تلقى ناظرين بانتظاره (كم هي جميلة متوهجة
يلواحين من العاتية والظلمة، وفحلين رياضيين شهيون لغزاة برة... وصبر
تأخذ الأمور كثيرة، الرضاح من بينها كما التفر في الفراخ إلى القمامة)...

تقول له مداعبة كعائتها: أهلاً بياضت البنات.

تخرج يده من جيبه، ويترك سبعة حباته ليضمها إليه بيديه وأغلبه وجسده
وكل ما فيه يتفقد (اللعنة عليها كم أحبها... وأكرهها وأتوق إليها وأحشاها...
ولكن ما كنت غير قادر على قطع رأس القط ولا ذنبه، فلا بد لي من التفكير
طويلاً: ترى هل يوسعي أن أفرز معها عن اليسر؟ أفرز أو لا أفرز تلك هي
المسألة. بل واحدة من المسائل الكثيرة... لا. لا أجوز).

يتبل إليه أنه يرى من جديد حباته بدوية وسيارات باريس تدسها (من
أعرض عليها الزواج الليلة، بالرغم من أنني كنت قد عقدت العزم صباحاً على
أن أفعل ذلك. يجب أن أفكر في الأمر ثانية، أن أفكر طويلاً طويلاً. ها أنا
مر بوط من قديمي يحبل مطاط متدلى فوق الحاوية، مجرد (ويوبو) يلدي أحمر
مذهور. أقتلري تعبت بي. تصعد وحيط بي. نعم. لا. سأتزوج منها: لن
أجوز. بل سأفعل. لا، لن أجوز... نعم. لا. نعم. لا...).

يلمح حالته بفرقة ثلثي في وسط الشارع نصف الممتع ببطء كما لو كانت
ثالثة. يتوقف وربما تمر ثلثا يدعسها. تقول ناعين بترقها: لماذا توقفت والشارع
عالي من المارة والإشارة الضوئية صفراء؟ لا يجيب. يتابع السير بسلوته، لكن
يده تبحث في جيبه عن سيجة حالته بفرقة وثلثا بها في الظلمة..

١٩٩١/٨/١٥

الساعة ٣,٣٥ ليلاً

التمساح المعصني

التمساح الذي أكثر الفضول
في الحياة ولهياً وكرباً هو المخلقة
الأولى والأخيرة.

د. جونسون

التمساح يزعم الحروف أكثر مما
يزعم الشجاعة.

جيمس ستيلز

لنحلم عالم الخامس: تلك من
الحقيقة البيرة.

الفورد بايرون

ما أكثر الذين يفسدون انصافك
لهم على تفاهلك لحاجتهم
لنورد فسترفيلد

التسامح البعطي

تفتح الريح بشفتين متجلتين على حشف طويل من بشر بدوا بلا ملامح في ظلمة القبر الشتائي . انتظموا كالأشباح على الرصيف كأنهم أعضاء في منظمة سرية للبيكاد وتعليب الذات .

ينحني سليلان من ولقتة مترنخاً . يتلوي على نفسه كمن يمتصن جرحه . يحاول عبثاً لتحطيه وجهه بطرق ياقة معطفه . (ما الذي أفعله هنا؟

ها هو ألم ضرمي يستيقظ من جديد تحت مطارق البرد القارس . لوقال في منبجهم يوم كنت شاباً غارقاً في دلفه شواطئه بيروت إني سائق أمام مركز البوليس في باريس بعد عقد ونصف عام ١٩٨٥ غارقاً في الليل في الخامسة فجراً بانتظار فتح الأبواب ومؤثر حرارة الجو ينير إلى خمس درجات تحت الصفر لسحرت منه أنا الأمن في داسبرطورييه البيروتية .

يومئذ كنت أدرس هواية صيد السمك فوق صندوق شاطيء وأرسل بيروت وأفسر أن جسدي جزء من الصخرة تحت ومستقر لوقها ووالحجر في مكانه القطر^(١) كما كان يرعد أي .

ينبش ضرمه بالألم مرسلًا سهله في الاتجاومات كلها .

يكاد يشعر بالنجم لأنه حيث هو . (كان عليّ أن أكتب رسالة إلى مدير البوليس الفرنسي أشكو فيها هذا الإذلال اليومي اليارد للفرقاء ، كما طعلت ليل احتجاجاً وجعلت طفلها فراس وعامت به إلى بيروت وهي تقول : سأمت تحت القصف بدلاً من هذا الإذلال الصامت البارز .

ولكن ما الذي يوسمي أن أكتبه أنا مدير البوليس ؟ وهل يحاملي أهل بلدي بأنفيل عما يفعل رجاله ؟ هل أقول له إني است هادياً من القصف بل بما هو أسر وأدهي ؟ وعلام أومه رجلاً بلدي للتغلب من عني ما تزال تذكرني بماسي القوضي ؟

(١) والحجر في مكانه القطر ، مثل شعبي ضد مفارقة المرء لمسط وأمه .

أكلنا بعضنا بعضاً حتى ساله القدم من وجعنا وتكونت الجثث على
سجادة وداخل قناجين قهوتنا، وانهار كل شيء على رؤوسنا وسط التصليب
والخطب الخرسية واللصقات المتطايرة مع رصاص الأتجاه والتهنئة إلى هذا
القل الذي لا مفر منه. هوجي إلى بيروت تعني يساقة قلبي على يدي وأبو
المهاولة.

لم أكن أعرف أن تلك السيدة التي جلدني طالبة «عقد ذخيرة» زوجها من
كل آدمية أخرى بلغة الجبان، وحرمانه من قواه الجنسية باللغة العصرية، كانت
زوجة الزعيم المباشيولي وأبو المهاولة في القر المجاور لقرى.

في البداية كان زيارته أكثر حدة من زيارتي لكنهم علموا إلى واحد بعد
الأخر وبمعهم بعض أزماته وحصار بعضهم يستشري أيضاً في أمور السياسة،
تأليف عن خط حياته.

كنت بصاراً، للكفا، ساحراً، متجسماً، ولا يعني حلاً كيف يسموني
بقدر ما يعني أن يندموا أكثر وأكثر، لوراني زوجتان وسيدة أولاد يتعلمون
ويأكلون ويمرضون ويتفنون.

قالت لي زوجة «أبو المهاولة» - يوم جلستي كأي زبونة ثرية مبهولة - إن
زوجها يغربا مع حواء أرمني صوريا في صفحة المجمع في إحدى المجلات
وإن صديقها محبت بذلك في ألبا. فصارحت زوجها الذي ألهمها أن ما يقوم
به «واجب وطني»، فهو يرتاد السهرات الراقية ضمن «تكتيك استراتيجي» وأنه
مضطر أحياناً لحبائنها. وأكدت لي بأنك أنها لم تفهم من أحذاره تلك خبر أنه
يغربا.

وتعجبت من هذه الحكاية إذ هل يمكن للتذلة أن تصير واجباً وطنياً؟
ولكنني لمت بعمل اللازم وكنت أعرف أن ما أفعله لا يقيد ولا يضر، وهو قد
يزيد من لغتها نفسها ويساعدها بالتالي على استعادة زوجها، وكنت أجهل أنه
«أبو المهاولة».

اكتشف الحرز الذي دسّه في سريه واستجربا ببعض طرقه الخاصة التي
لا يصمد أمامها أحد، وجاملي غاضباً وفي يده «أ.ي. جي» وطرف اللطيفة

برخي ويؤيد.

عندته بالشياطين والأرواح ولعنتي عليه وجعل لحيته، ودمعت حين عاف من ذلك واكتفى بمطالعتي تلك السحر عنه وبالرحيل بعد ذلك.

كان مثلهم جميعاً يخشى القوى الخفية، وأنا مثلهم أختصها، ولكنني لا أسلك شيئاً منها!

من زمان مارس والذي التقير ألعاب الخفة في اللعابي والكاباريات والسهرات وعلمي الكثير منها. قررت أن أروح أكثر وأتعب أقل، فوضعت لافتة على بابي: الطلطي الكبير. وقضيت لكثرة الزبائن وصرت أغني بسرعة كالتي أشرف من متجهم نعب. كل ذلك الأسحر من السجور في القلوب تحول إلى شكايات على طولاني وسبائك ذهنية في عزالي.

قال أبي: ألعاب الخفة فن، والشعوذة السحرية دجل، ونسمة أشخاص نامرون أنهم الله عليهم بقوى خفية يحركون الأشياء المادية عن بعد بإرادتهم الروحية ويخاطبون الماوراء ولست من بينهم يا ابني.

قلت ما الفرق ما دام الزبائن سعداء وأنت تتساعدت يا أبي والأولاد يتعلمون ويتكبرون ويحاربون يسمى الزواج من ثلاثة أيضاً).

السيدة الواقعة في الطابور أمام سليمان تنحني مطعنة عن الأرض وسعها مرافقتها الشفراء وهي تنعند بشبهة: وكذا نعت هذا والزنطاري^(*).

إذن هي إبتائية مثله. يحاول أن يكلمها ورفيقها ليحتمي بذلكه الأنس معها. يجد صورته متجسداً وقد تحولت حنجرتة إلى مغارة جلدية تنهش قربها جرة تحول إليها ضرسه للشجر يكلم كاي.

بلفت وراة. يرى زنجياً وعقله صف طويل من الناس الذين تقاطروا بعدها.

يحاول أن يعود برأسه إلى الأمام. لا يقدرو. ذلك الزنجي الواقف خلفه بقامة شاهقة ونحيلة مثل هيكل عظمي بجمجمة غسطة، يخلق فيه بعينين

(*) الزنطاري: البرد القارس باللهجة الليوانية.

طريقتين ومرعبتين في آن تشبهان كرتين تالفتين خارج حجرهما كما لو كان صاحبهما غلوقاً فضائياً. عيناك لمسا شعاع مسلط عليه من ضوء سري يشله ويريكه رغم برده ولكه. يشعر بشيء استثنائي غير عادي. (السال لي والقيدي: ساهبطحك إلى رجل لديه قوى خفية جداً).

في حضور كاشف البحث المتشدد حقاً على قراءة الأكتاف وسواعاء، امتلات بشعور يشائي ويريكني وأنا ساخط تحت حزمة من أشعة سوداء تخرقني لامرية كالشعة اكس ولكنا تسير غور مغلور ووشي. شعرت يومها أمامه بأنني هار وخلفت).

إنه الشعور ذاته يخمره أمام نظرات الزنجي، وهي تنسب البرد القارس والريح الملوحة. (أحب الزوج، ربما لأن بشرتي قلقة السمرة وأكاد أكون بهذا المعنى نصف زنجي، وربما لأنهم معذبون مثلي - أو أكيلهم هكذا - وعوالم التلج للرهبة لا تحبها).

الزنجي يحول نظراته عنه إلى كلب ضخم مرعب خرج من الظلام وجاء يعوي على قافلة الأشباح المصطفة أمام الباب قبل الفجر كي تحصل على أوراق رسمية تسمح لها بالإقامة في باريس. ومن يجلس في الساعة وقت الدوام العادي يغني بنية يومه منتظراً أن تتاح له فرصة المشغول لكثرة الأزدحام.

الكلب الطالع من الصفيح يعوي ككاهن بطريرك. يمضي أمام قافلة المتجولين برداً ليثير الدهر في النفوس القبطرية. يكاد سليمان يضطك يؤسا من هذا القادم الذي جده يزيد في قهوه. الكلب ينفضه بعواثه وأحدى اللبائتين تتسلق به مرفاعة وهما تبهتان. يتصرف عينا ليخص الزنجي بهاجه. لا يبدو الزنجي خائفاً. لا يتحرك من مكانه. يثبت على الكلب نظراته مثل أشعة ولايزره لامرية. يبدأ النباح. يتراجع الكلب مذعوراً ثم يعوي لجاء عواء من لظ آخر كاه ألم..

(مرة ضربت كلب أحد الأطباء الدكانة المجاورة والدكانة بحجر خلسة، فصار يعوي مثلاً وعجلت واندمت لأنني لم أجروا مرة على ضرب صابحة).

الكلب يربب متراجعاً إلى الوراء وهو يعري أماً ولا يحرق على أن يدير ظهره للزنجي .

بالعربية ، يقول سليمان للسيدة الليتانية مستغرباً بالزنجي : لا تخافي يا انجي . لي الصف وذاك بمحولات!

لهيب بسفريه لم يتوقعها : لست بحاجة إلى حاية الرجال . أنا هنا هرباً من حياتهم .

لا يريد شجاراً ولا شراً . يقول لها : ساعيني يا انجي . لم أتصد جرح شعورك .

تقول زميلتها بصوت عال عفواي : لقد عائلنا بعض ذكور بلدنا كما يعاملهم الذكور . ولن نسمع أحداً من الفريقين .

ارتاع سليمان هذه العدوانية . لقد ألف ملاطفة النساء المكسرات لكن لا يعرف كيف يكلم هذا الصنف منهن .

تابع هي : نهم والمزماراة ونساجل مسؤوليتنا عن يؤمنا .

يكاد سليمان لا يصدق أذنيه . هل يمكن لأحد أن يتكلم هكذا حيال الساسة صباحاً ودرجة الحرارة حسة تحت الصفر؟

تليمان تقجير صومها فياً يشبه الحلبان : الذكور هم المسؤولون . خربوا البلد .

تقول صديقتها : طبعاً لأن الرجال يكموننا وحدهم . . . يهرون من كل واحد ونحن من ذلن التين! وكلنا هارب!

.. آه . . لا يجمع العرب إلا نظريهم المتخلفة إلى المرأة .

تعاود سليمان الأم ضربه بشدة وهو يستمع إلى الليتانيات تصبان بهام ظهرهما على سامعه ، ويشعر بنهيء من الحرف إذ يجدهما غير متوازيتين (لقد جتا فيا يبدو ولكن من ليس جتوتا منا؟ وماذا لو عرفنا أنني متزوج من امرأتين وأحلم بالثالثة؟ متفقدان عني الآن ، هنا على الرصيف . لا . ستفوس ذات الأظافر الطويلة أصبحها حتى قلبي كالسكين . كم أعاف النساء وأحبهن . .) .

يختصم سليمان بالصمت، ما دامت شهادته الاستعرافية لم تلق عند
الرائين غير إذن التأليب الصاغية.

يلفت صوب الزنبي كلفة ياني ثناء بصوت غاقت سمعه ولم يسمعه .
أرجاع ضمره لكافة لقطع به إلى البكاء من جديد . يسمع صوتاً بلا صوت داخل
رأسه يقول له بوضوح : ضمرتك يؤلك، أليس كذلك؟

ينقل قلبه رعباً وذهولاً . منذ زيارته للرجل ذي القوى الخفية في بيروت لم
يخاطبه أحد هكذا عبر المخاطر .

يكرر الصوت الذي لا صوت له سؤاله : ضمرتك يؤلك، أليس كذلك؟

يقول بلا صوت : أجل . أه كم يؤلني هذا الضمرس القلبي . . ولكن،
كيف عرفت؟

- إنك تصمم حاسي لكثرة ما صرخت لئلا بلا صوت منذ وصولي!

(هل بدأت أوجاع ضمري تدفع بي إلى الغلظان والجلوت؟)

- لا . أنت بخير فاطمين . سأحاول أن أساعدك . الفت صوبي وحقق
جيداً في عيني . استرخ شيئاً فشيئاً ودع صرعتي تدخل إليك .

يلفت إلى الزنبي عطفه . عيناه مصباحان مشعان تاليان في آخر شارع
حزين مظلم غسله المطر في المسافة بين الدخشة والحنان والبكاء . يكاد يصرخي
وهو يذكر ما يدور في وصلات التروم المغناطيسي، ثم يقتضض مرثعاً . (إني لا
أسمع صوتاً لكنني في الوقت ذاته أعي أن الكلام يقال في داخل رأسي . ما الذي
يحدث لي؟ لعلها أوجاع ضمري وهذه التوقلة القليلة القارسة تصالحان وتسيان
لي والملوسة وتستطيعان الغلظان).

يقول له الصوت (بلا صوت): إني أعياطك بلا صوت ولا لغة فلا
تخف . حدث لي عيني . إنك لا ترى سواهما، ولا تسمع غير صوتي . هذه موجة
داخلة تلمرك . أنت لم تعد على الرصيف البارد . أنت داخل موجة قلبه . .
ضمرك لم يعد جزءاً منك . أنت تفصله عنك وتعرله . إنه لم يعد يؤلك . لم يعد
يرسمه أن يؤلك .

يستسلم سليمان للصوت وهو يخاطبه يدوه وي نصف أمر .

يرجم شرطي متتاباً وهو يفقد من علم (خليون) المتطرين . .

يقول سليمان لنفسه: إني بالتأكيد أعلمي من الوجع والبرد. يلعله في الوقت ذاته أنه لم يعد يشعر بالبرد كثيراً ولا يرجع لمرسه. (الأم يشتد ويخفت ولعل البرد بدأ ينحسر والساعة تقارب الساعة. انقضى نصف وقت العلاب) إنه لا يستطيع أن يصدق أن الخديق هذا الزنبي في حوسيب هلوه لوجاعه كما كان قبل قليل سباً لذهر الكلب والله وهربه. لا. لا يمكن أن يكون ساعراً حقيقياً. يسمع الصوت البلا صوت وهو يجره على الفكاره:

نعم. أنا ساعر حقيقي أت من غابات السر وسليل أسرة عريقة من سيرة قبيلتنا الإفريقية الشهيرة ولست دهجلاً طريفاً مثلك!

لا يدري سليمان، أهو لريسة خيالاته، وهل يتصور هذا الزنبي ساعراً لمجرد أن له نظرات يتوهها غلالة وأوجاع غمره هذبات بما يشبه التتويم للغناطيسي والكلب عرب مذهوراً لسبب مجهول، أم أن الرجل يخاطبه حقاً بالتخاطر بدل الحوار العنوي ولديه طاقات خفية؟ (أهو الذي جعل الشرائين اللبنيين الواقفين أمامي تصمتان تماماً أم أنها تعبتا وازدادت التصادماً بالجدار فيما يشبه القيوية؟ إني متعب والوقت طويل).

يسمع سليمان الصوت البلا صوت يقول له: لا تخف سيمر الوقت بسرعة. ستأم دون أن تنام، ولن تستيقظ إلا وقت فتح الأبواب. . .

ينظري سليمان من بعيد على الرصيف قرب الشرائين، ويغتم بجسده في الرحم الحبيري للجدار (أعفا ساعر حقيقي؟ منذ طفولتي وأنا أحلم برؤية ساعر. تخيله دائماً بلحية جزئية وألواناً يندب على بابا وغتم سيدنا سليمان. لم ينظر بياني أن يكون زنجياً طريف المظهر رث الثياب أكتفه ذات فجر بالنس في باريس).

إنها التاسعة وأبواب الفرج في جدران البوليس (البيركتور) بالقرب من كنيسة لوثرودام بدأت تفتح. الشمس ساطعة باردة، معدنية والليمة، ترسل ضياء صليحاً كله سخرية سوداء من الدفء، ولعل درجة حرارة الجو ما تزال غصة تحت الصفر كما وعد ملجع النشرة الجوية زبائن الحزن على يوابات أسوار اللدن.

يشعر سليمان أن الشمس الباردة هذه تكهرب الرثبات يتهدد سري
عليه .

تتحرك قافلة المتعين متحيزة وتدخل جسداً تلو الآخر.

يخطو سليمان آخرها فوق العتبة المرتفعة . الشرطية تنفخص أوراقه . يمر عبر
آلة اكتشاف السلاح . تصفر الماكينة . يفرغ جيوبه من القطع المعدنية ويغمره
الذعر . (كم صرت أحمال رجال الشرطة وكل من يرتدي زياً رسمياً أياً كان ،
ميليشياوية أو تاصع اليافض لطيفاً) .

يتابع سيره بعد أن يكرر الدخول عبر المربع الخشبي للمستطيل المواتي
ويستعيد قطعه المعدنية .

يشع القطيع الذي يدلف إلى غرفة زجاجية صلبة مربعة تنوسط أحد
أضلاعها نافذة لمجلس علقها شرطية .

يكاد سليمان يخنق في عتبة السردين البشرية الشفافة ويلتفت خلفه بحثاً
عن الزنجي . يراه في موضعه وراءه ويسمع صوتاً بلا صوت : لا تخف . لن
تتعظم أضلاعك . سألعد لك الزجاج قليلاً إلى الخلف .

يشعر سليمان بجوده نسي والامر البشري يحمر جبهة ولهاياً حتى يصل
أخيراً إلى النافذة ويحصل على رقم يؤهله للانتقال إلى قاعة الانتظار الشاسعة .

القاعة تشبه مسرحاً للعديد من الشرطيات الحاكيات بأمرهن كما يجلي إليه
من جلستهن الواقعة وتعالى نظرات بعضهن . ولكل شرطية حاكمة منفسدتها
المرتفعة على منصة خشبية وثاقبتها . ويوسعها تيسر الأمور على الغرباء
اللامرغوبين أو تعبيرها .

يجلس سليمان على مقعد خشبي طويل بانتظار أن يسمح النداء على وقعه ،
وقلعه برتيف حقاً ومحاول توضيب أموية مفتحة للأسطة كلها التي يتخيل أنها
ستطرح عليه . إلى جانبه مجلس الزنجي ، كما لو كان ملاكه الخالص لو (قرينه) .

يحدق سليمان في وجوه الشرطيات متفرساً . كانت مهته قد علمته محاولة
استشفاف بواطن الناس من ملامح وجوههم . (هذه الشرطاء تبدو متمجرفة
وقاسية . الأخرى الزنجية إلى جانبها ستكون لطيفة مع الناس فهي سوداء

وتعترض بالتأكيد لبعض الأخطاء. هذه الثالثة ما أجلها؟ ما الذي تفعله هنا؟
وهذه الرابعة والخامسة. . . والتاسعة).

يفسر. يبحث بعينه عن القوانين المتمسكين لتحرير المرأة وبمقدورها
واقفين. يفكر بأن يفسر بشهامة ويحط بها مقدمه ثم يقرر أن يتركها هكذا
ما دامنا نريدان المسألة بل ونحاف لو عرض عليها الجلوس مكانه أن تشبه
وتذكراه بأن لها سفين هما أيضاً.

يظل جالساً متفكراً عموماً من مسألة شرعية هل وقته دون أن يسمحها.
يشمل من جديد الشرطية الزمنية شيئاً أن يكون من نصيبه أن تتأخر
هل وقته. يسمع الصوت الذي لا صوت له ولا لغة يخطبه من داخل رأسه:
ولا تدع الظاهر يفتدحك. حاول أن تتعلم الغناء إلى الجهور. أنت لست دجلاً
بقلوب ما يترجم. لديك قوة ما لكنتك لا أفسن استعمالها.

يلتفت سليمان إلى جاره الزنجي. وجهه شبه يتعطل صخري من تلك
التي شاعده صورها على ساحل البحر في إحدى الجزر النائية. وجه من حجر
شاعن مرمي على الشاطئ الأزلي للأسرار كأنه يتأخر المليون.

صوت الشرطية الزنجية يعلو. إنها تزجر حاملاً مغرباً يبدو وكأنه يرافف
تحت وقع كهراء الليل واللاهة.

يقول له الصوت الذي لا صوت له: هل فهمت ما أعنيه؟ إن اللطقي
يجول بينك وبين الحقيقة. تبرعهم الناس دمي. إنهم أكثر تعقيداً من ذلك. لذلك
للهمان ليس بالضرورة لطيفاً مع أمثاله بل قد يصير جليلاً كهذه الشرطية
الزنجية. لمعرفة الناس عليك أن ترحل إلى ما تحت جلدهم وأخراهم. . .
بالطاسة أما زال خبرك بـيوك يا سليمان؟

- لا. شكراً. ولكن كيف عرفت اسمي؟

يكاد لا يصدق أن ذلك يحدث له. يشعر بالدهر (هل بدأت اسمع
أصواتاً غامضة وأصايب بالجنون؟).

يصدق في جاره الزنجي فيلنفت الرجل إلى الناحية الأخرى وبعب منه
واتحة الغابات دائكة الأشجار المظلمة بأمرورها وخيراتها، وسمع الصوت الذي

لا صوت له يقول له : دولتا آدمي دونجاء .

الشرطة الزنجية تزجر غريبة أخرى ، وتبدو سليلان نموذجاً لذلك النصف من الناس الذي يحاول الذلال الآخرين دولجا مجرد ويستمتع بغيرهم علناً . ولكن ها هي تتعامل مع طالب إقامة آخر غربي الشفرة والملاصق بكثير من السمكة لتعود إلى زيجي رجل من العرق الأصفر رفيق الحال يبدو أنه يعمل عادياً في مطعم أو هكذا يحكى إلى سليلان .

يسمع صوتاً داهك يقول : إنها نوعاً هكذا . تتلوي قهرها بغير الآخرين . أعرفها منذ أعوام وعرفها كل من زار هذا الجحيم الأرضي .

بخلاف سليلان . إذن هذا الصوت الذي لا صوت له ليس صوته فهو مجهول هذه المعلومات عن الشرطة الزنجية ، ويأين إلى هنا للمرة الأولى ، ثم تراه يتخيل قصة حياتها مع غير القهورين مثله ؟

لما تافدا غريبة نصف مفتوحة يندفق منها الورد حل غمرس سليلان مرفقاً الله . يشعر بالذلل لأنه لا يجرؤ حل أن يهبط لإغلاقها خوفاً من غضب شرطة ما .

.. سأخطفها لك ! يمدق الزنجي في النافذة وها هي دفنها تتلوى ببطء شديد كان رجلاً لائعية تنفضها وتطيقها .

بُعاده طفل المرأة المجاورة بكلامه . يمدق فيه الزنجي دونجاء . يبدأ الطفل (إنها بالتأكيد مصادة . الريح هي التي أغلقت النافذة . أما الطفل فقد كنت أحلق فيه أنا أيضاً وفيه الحضور . حين يبكي طفل لا يملك المرأة إلا أن يمدق . ولكن لا . إني أعرف أن الحديق جاري الزنجي دونجاء غطف ولا أملك التليل حل فلك . بالتقابل كيف الوقت وجع ضربي من تلقاء نفسه ؟ وكيف التقضي الوقت ولم أشعر بالبرد ؟ ولماذا حرب الكذب مذمومة ؟ ولماذا أعرف أن اسمه دونجاء ؟ إني لا أعرف كيف أعرف ولكن هل اسمه دونجاء حقاً ؟ . يسمع الصوت الذي لا صوت له : وعده هي المعرفة الحقيقية . إنها تفسير في صدرك من يناميك الداخلية السرية التي تصلك بالنبوع الأول . حذرو من إقامة سندوق المتعلق بينك واللامعقول والموراء . . . والسر . .

الشرطة الزنجية تنادي على رقم غير رقم سليلان . يتهدد كمن نجا من

طبع . ولكن دونجا يهتف ويضي نعرها . يلفق سليمان عليه (ستلغج جلده وتعلق جسده التحيل أمام مدخل حريمها . ستقطع جميعته البيضاء وتلقها على الشجار خائبها إلى جانب رؤوس آلاف الغرباء الذين قهرهم).

تأتي الشرطة الشراء على رقم سليمان ويكاد لا يسمعا منشغلاً بفلقه حل رفيق الزنبي القامض . رغم ذعره من الشرطة الخاصة به يتساءل : ترى هل ستراف الزنبية بدونجا وبق القوة والغايات والدم . . دعها ويذورها؟

تعال على سليمان الأستاذ بلطف وعلما عفوانية . كم ملك من المال . أين ستعمل . أين تقيم . هل لديك فواتير الكهرباء لإثبات ذلك؟ وهل تحمل ملك نسخة من عقد العمل . وتكتب عه الشرطة بنناً في الاستشارة نسي أن يملأه (عند الشرطة الشراء التي كنت أنظما متعجزة كم هي لطيفة وعادة وتعاملت مع اللبائين). تسير الأمور على ما يرام مع مستجوبته . هي تسأل بلطف واحترام وهو يتلفن بالتفاصيل.

يقول لها : أنا متجه . بمبارك الحرف المستقبل والعب بالمعاصر . أحصل حالياً في الملاهي العربي وأسأل الساعرين بسحري ريشا لوتب أسوري . . . تبدو بالغة الاهتمام بعمله . وشديدة الاحترام لطاقاته . يكاد يرتك أمام جمالها وطيبتها وجوعها للمجهول القامض .

يعرض عليها أن يقرأ لها كتابها . تبسم قائلة : ليس هنا . إني أحصل . بضيف : مجاناً .

تضحك بعفوية .

صرخ إلى جانب . إنها الشرطة الزنبية تزجر دونجا . انلديه كما تقضي الأصول : السيد دونجا . إذن هذا اسمه . برهجت سليمان متسائلاً (كيف عرفك اسمه؟ إذن حدث ما حدث حقاً . ولكن لو كان ساحراً قائماً لفتح هذه الشرطة من إنكلاه علناً هكذا . وسحرها بنظراته وحائنها على ضرورها . وهي التي ميون هكذا أبناء جلدها).

يلتفت سليمان إلى دونجا يثي من الشفقة بعدما أتعش اهتمام الشرطة ولطفها ضروره الخاص . صار يوسه الآن أن يوزع حثاته على الحاضرين ككل

المحطون.

سليمان يرى دونجا - والشرطية ما تزال تنافسه - كتلة من الضوء الأسود الشبح والغضب ولا يدري لماذا يهابها (لا شياطة سبع مخلوقات كثيفة الحضور الروحاني كهذا الزنجي التلطيف الوديع الغامض اللطيف... لو كنت مكانها لحقت منه حقاً). يتعجب سليمان لمخاترة القاعة ويرى الزنجية تلمس أكتافها وتخرج صرخة وفريه. (إن كان موعد طاعتها بعدما عارست قسوها واتهمت هذا الزنجي المسكين وعشرات مثله وأوجعتهم بخيانة الدم).

يختلر القاعة من الباب الآخر المخصص للخروج. يمسك بالباب الثقيل كي يمر دونجا قبله إشارة ود. يمشي إلى جانبه في تعاطف إنساني لا لغة له ولها اللذان لم يتبادلا كلمة واحدة لها صوت. يسمع سليمان الصوت الذي لا صوت له ولا لغة داخل رأسه خمس : إلى خاضب ولم يعد يوسعي تلك الآم خرسك لعمالة. إلى خاضب جداً... ولدت الآن خاضب آخر... سأركز طريقي على هدف آخر.

يقول سليمان لنفسه كأي إنسان لا يريد شراً (أه مني أعود إلى غرقي لقروضة وأنام لساعات وأتخلص من هذا الصباح المأذي الذي انتهى وعمل غيره ويقول ظلمي للإقامة المؤقتة؟ مني بصير دونجا الساحر والمرأتان المبهتان الغاضبتان كليوماً حليماً للتسيان؟ كلأس من الويسكي، حمام سامن، وجبة صعبة، تسكع في الشاتر يلزيه بين سيقان الحستوات، وينتهي كل شيء... ولهاً أفتش عن شقة لأعيلي، وتلك المقتربات الثريات حملات إلى صومهن وأرحامهن المرتبكة - بنت أم صبي، حل أم لا حل - وعملات إلى أيضاً حليهن وثروامين... وسجن يتوقف القصف وانتهى الحرب، ولكن حرب نهاية، أعود إلى بيروت وأعود سيرني الأولى... «الدكان» كلها سيتم إغلاقها ذات يوم، ويوجد «دكان» سكره... وحدي الباقي لأنني مفروس في الظروف، فانا قد أكون مستقماً لكنني أنفد من ترسيات بيع الحقيقة، إنني «الدكان» التي تشهد الضوء من... أه خرسني عند يوليوي، تنزلي أفكار سليمان وأجابه تحت حضور ذلك الصوت الذي لا صوت له: حذار من الميت بالحقيقة لحساب جزء من الكذب. فالحقيقة موجودة حتى ولو تاجرت بها، ولم تؤمن بها.

لا يدري أهلاً صوته هو أم صوت دونجا.

ولفت سليمان إلى ذلك الزنجي، الذي ما زال يشي بالقرب منه، مكهرباً بسيالات روحية معتقة تكاد تكتم ألقاصه كما لو أن ضغط انفجار استثنائي ما فترغ الشارع من الحراء. (لماذا لا يدعي وشاي؟ أهو قروي؟) ويلاحظ أن الشرطة الزنجية القاسية تشي أمامها (وما الذي جعلها تترك الآن مقر عملها؟ تراه موعد خدائها، أم أن شيئاً أجهله وتجهله أخرجها من مقر وسلطانها؟ الأمر لا يخصني على أية حال).

يتابع سليمان السير صوب محطة القرو دونجا إلى جنبه وتيار مظلم من شلالات الطاقة يتدفق من العينين النافرتين باتجاه الشرطة الزنجية. يلاحظ سليمان أنها تمضي بسرعة كأنها تسعى ليعاد مهم ولقاء لا تقدر على أن يطويها. لكن هدبر الشلالات المائية المظلمة المتدفقة من كيان دونجا سيالات روحية وكاد يصم أذنيه.

يخيل إليه أنه يسمع أيضاً نوح الطيور المشاغبة وأغاني «النم» و«النام» والتعاريف السرية البدائية للقبيلة ويرى دونجا في ثياب ساحر القبيلة بفساتحه الذهبية. وكان الشرطة الزنجية تسمع الأصوات ذاتها مثل سليمان بمنزلة صبح هدبر الشلالات المظلمة في جنواها لأمرية لتضاريس روحية يتحرك ثلاثهم في وروجها إذ تلتفت إلى الوراء وتظهر إلى دونجا عارية من منصبتها ومنصلتها وكأنها تراه جيداً للمرة الأولى. ويخيل إلى سليمان أنه يتساهد في عينها نظرة دهر حلقية. . . ولثة سيارة تتحرك في الشارع فوقها سائق متجه صوبها، كأنها تشي الزنجية إلى ملاقاتها بنفسها نصف نائمة. يتراجع سليمان إلى الوراء عارياً منها وسعد دونجا.

تظن السيارة تتحرك متسارعة، ويقول سليمان أن يحذر الشرطة الزنجية ويصرخ، لكن بدأ لأمرية ليدفعه وتشتل حنجورته ويلاحظ، ويلاحظ حقيقة يحتاج أوصاله، أنه لم يكن واحداً وليس للسيارة قائد ولكنها تتجه صوب الزنجية كما لو أن قوة خفية تحركها بالتحكم من بعد (ربوت كونترول)، ويخيل إليه أيضاً أن السيارة تتسارع بطريقة غير منطقية ويصمت ويلا هزلة كالأنباح، وما هي تحتاج الشرطة الزنجية وتصدمها في غربة قوة سريعة شرسة كالبرق وتطيح بها

في الفضاء مثل فريحة تُرمى بها في الغابات البدائية إلى إله العشب، وتطير حفية بعدها وتبدو في ثانية عراقية كمن تصعد في الفضاء متقلوبة بفعل قوة جبارة لتلتقي طعنة مرصوبة، إذ تستقر بعد طيرانها السريع فوق المستنقعات الجليدية الحبيبة المدينة كالرماح الجرافة كانت تفعل على إحدى شعايد الشارع بالقرب من سوق الأزهار المجاورة التي لا تخلو من الزودو الاستوائية أكلة اللحم.

يتعلم سليمان برهب مذهبون جسدنا معلماً فوق الأبواب المعدنية لتجراقة وقد انتهت النداء منها ولحجرت حينها على نظرة دهر.

حدث ذلك كله في لحظة عين. مثل ومضة فلاش التصوير. ذلك التبارك للظلم من الشلالات والطاقت الحفية التي تحرك الأضياء صابر وتدفق على غير هدى وينظفه ويصنعه ويحميه ثم يلاشي ببطء كيا تتراجع المياه إلى مجراها الأصلي بعد الطوفان.

الذهول يغير سليمان. يتوقف قريباً من جنة الزنوجية المعلقة على أبواب الجرافة مثل الأستان المعدنية لتصالح عراقية.

يركض شرطي صارعاً: سأطلب سيارة اسعاف.

يقول الشرطي الآخر: سأتابعهم من مستشفى سان لوي على الرصيف الآخر.

يقول الشرطي الذي يحرس مدخل مبنى الشرطة (البرقكتور) وهو ينظر إلى (الكابح البدوي) في السيارة الصاعدة: ما أقرب هذا الحادث، لقد دعسها سيارتها. صحيح أنها نسيت شد الكابح البدوي فيها يبدو حين ألقتها صباحاً، ولكن السيارة كانت متوقفة منذ الصباح، فما الذي جعلها تندرج الآن؟

يفحص آخر السيارة - والناس يتقاطرون - ويقول غير مصدق أنه رأى ما رأى: (تحليلك) صحيح. إن الكابح البدوي غير مشدود. ولكن، ما الذي حرك السيارة الآن بالذات؟ ولماذا لم تتحرك قبل ذلك؟ ولماذا تندرجت بهذه السرعة التي لا تصدق والأرض هنا شبه مسنونة؟

يجيب غير سبيل: ربما زارتها لرمحاجيات قطار الأخلاق (الترن) المجاور، لحظة بعد أخرى حتى تحركت الآن مصدقة.

تفسير لم يفتح الكثيرين، ولكن لا يبدو أن لدى عابري السبيل أي تفسير آخر أفضل وأكثر اتساقاً.

يشتهي سليمان أن يقول لهم الحقيقة كما يراها، وهي أن دونجدا ساحر حقيقي يائن التماخض ويحرك الأشياء بظلال لعلها (ورثت) كايح اليد دافعة بالسيارة في سرعة خاطفة مما يفسر حركتها السريعة رغم الاستواء النسبي للأرض. لكنه لا يجرؤ. يخاف أن يرمى بالجنون ويحرم من بطلاة الإكلام الموحدة!

لذا يقول سليمان بفرنسية بيرونية اللكنة دون أن يسأله أحد رأيه: ولعلها مصادفة لا أكثر. الصدفة اله العله... ويدعش حين يلقى تفسير، هذا تأكيداً، بل ويكرر البعض وراة حقاً. يا لها من مصادفة غريبة.

يلفت سليمان إلى (غريت) الزنبي دونجدا ليتخاطبه للمرة الأولى بصوت، ويسأله رأيه فيما حدث فلا يجده قريبه لكنه يسمع الصوت الذي لا صوت له ولا لغة يقول له داخل رأسه: وأجل قتلها. كانت تستحق ذلك. هذا عقاب أمثالها عدتها.

ويلمحه سليمان وهو يخفي عند المتعلق بقامة الشاعفة ولبابه الرثة وجهته الضخمة وعينه الطريفتين التافرتين من عجبها. ولا يدري لماذا تسري في جسده رعدة خوف كما لو كان قد التقى بساحر حقيقي!

١٩٩١/٩/٦

الساعة ١٧، ١ ليلاً

المغامرة على بحريج!

كنتُ أنتَ مستقبلي الذكريات
للخبرة إن أميانت؟
أليس للمستقبل هو الماضي؟
قائري - ١٩٤٢

عشق النزهة للقائه بدولة حكاية
حبك تكوم العبر.
أوسكار وايلد

إذا كان لينة يدوي عن الحب فهو
الذاكرة. أن تذكر لأن يعني استعانة
الجمعية.
جوزيف برومكي

المواجهة على يدجيج!

.. أنت تعرف يا بدجيج أنك في خطر وقد حضرت لمساعدتك. النساء. يوماً
النساء. إثنين دائماً مصابك ولعنك وسبب خرابك.

.. انتظري قليلاً يا عديب. دعني أنجز الآن هذه الحسابات، وستحدث
طريقاً بعد ذلك.

.. هل تظن أن يوسعك أن تهرب إلى العمل هكذا لتنجو، دافلاً رأسك بين
الأرقام إلى هذه الساعة المتأخرة؟

.. هذه ليست أول مرة أبقى فيها للعمل وحيداً بعد انصراف الموظفين. لو
لم أكن هكذا لما احتفظت بي المؤسسة حين انتقلت من بيروت إلى لندن.

.. المهم أن تحفظ رأسك قبل أن تحفظ عملك يا بدجيج.

.. سألافيك يا عديب في البار اللججور. .. لا أريد أن يسمعتا أحد في
الكتب. لو برانا معاً. حاملة التنظيفات سمعتا تتحاور معاً في زيارتك الأخيرة في
ولم ترك، فاشاعت بين الموظفين أنني التحدث مع نفسي حين أبقى وحيداً في
الكتب ليلاً.

.. لا تقلق يا بدجيج. سألتصمها بالسكوت ولن ترعبك بعد الآن.

.. ربما كان من الأفضل أن ندعها وشأنها. الفترة هي كل ما تفتقر عليه
وقد ألتقي وانتهى الأمر يا عديب.

.. أنا شفيكك الدوام يا بدجيج. قد أليب طويلاً لكنني أحضر دوماً
لمساعدتك. وأنت تعرف أنني لم أقتل يوماً عنك. ولم تكن يوماً في خطر إلا
ووجدتني جاعزاً لخدمتك. سأنتظرك في الحانة.

.. هل تعرف حوانها؟

.. أعرفه كل مكان لأذهب إليه. إني ألازمك كظلك في أيام اضطرابك.
إني قوي ويوسمي أن أحييك من عالم كله خلو. والحب هو القدر الأول، وأنا

أعني الزيايث.

- أرجوك أن لا تلفظ هذا الاسم. إنني أحاول أن أختارها قدر الإمكان فقد أساءت.

- مع النساء، الاحمال لا يجدي. إني يزدن تعلقاً بك وحلماً عليك في أن. إني تعرفت عليك أكثر مما ينبغي. . . مستحلت عنها في (البئر) . .

- لماذا لا نذهب إلى البيت ونسعدت هناك في أمان طوال الليل دون أن يرقنا أحد معاً أو يسمعنا؟

- لأن علينا أن نرقم بزيوت إلى الزيايث قبل الذهاب إلى البيت. علينا أن نقتحمها بالسكوت ونسيان كل ما نعرفه عنك وهو كثير. لقد ضيقت أسامها وبحت لها بأسرارك، وهي على وشك استغلالها ضدك.

- أنه كم تأملت منها ومن سواها ومن المؤامرات التي تفكك شدي. أشر أنني قضيت عمري وأنا أفر من فم إلى آخر، رحيماً ومجروحاً، وما أكاد أروم جرحاً حتى يترق أعم. . . إني مكسور القلب والروح لا ملاذ لي. . . وحيدك تحس بعذابتي وتكفي لمساعدتي. . .

- إلى اللقاء في (البئر) . .

- سألق بك.

بعد نصف ساعة، يغادر بديع مقر الشركة بعدما جمع أوراقه بعناية خاصة ووضع كل ورقة في مكانها ومسح الباب عن طوله للمرة العاشرة ذلك مساء.

اتخذ بعائلة التنظيف فلم يلق عليها تحية النساء. يشعر بأنها تراقبه ويتضايق منها. في المصعد الفارغ مسح يديه بفضفا من المناديل عن المرأة وهو يتحلى النظر إلى صورته في قمرها.

يغادر البيت ويضي صوب الحانة. إنه الغروب. اللحظة التي يخالها ويشتق فيها. زمني كانت تحلف الغروب لهما. حين كنت أعود من المدرسة ولدت الغروب كانت تضمي إلى صدرها الدافئ ونحن نحلق في البحر ولا نزعجني كعادتي لأنني وضعت يدي بالطين وأنا لعب، ونفوح من رجليها البيضاء النظيفة والحة الصابون وكولونيا وجان ماري للريشة. وأنا سعيد باختصاصي في

ولد ثلاث طير من حمو أبو رمزي وحمو أبو مروان وحمو أبو طائوس
وغيرهم من أعمامي الذين لم أسمع بهم لكنهم ظهروا بعد موت أبي وصاروا
يتأخرون عند أبي لمراستنا كل بدوء. أما أعمامي الخليليون فلم يأت منهم أحد
وقالت أمي إن الحرب تطحن الجميع وحل كل واحد لحصيل رزقه ببطارته ولا
أحد يساعد الآخر في أيام كهذه، وصار أولاد أبي يسخرون مني في المدرسة
ومن باقي القاعة ويلتصقون إلى ألباء يذمون ككافرين أن أمي تقوم بها.

قال لي ماهر: أمك... وكذا... لو كنت مكانك لفتيتها.

عدت إلى البيت ولم أجدها. كان الوقت غروباً. اختفت وحسرت أبني،
لكن قفها الصغيرة لم تتوقف عن التواء فمكتت بها وأنا أحاول استكافها. جاء
عديب وقال إنه سيفعل ذلك عني وأحاط عطفها بيديه وشد عليه طويلاً
فستكتت، ولا أري لماذا أخفاها في التواء داخل طنجرة الطعام التي أعددتها أمي
في الميار لهذا الآن في الليل.

حين شاهدتها أمي صرخت ملهورة وكان دور عمي أبو رائق للتدوم
عندنا فأممي أمام أمي بأني قتلت القطعة وكذت أقول لها إن عديب فعل ذلك
لكنني لم أجد صوتي، وخطبت عني ودافعت عني صارخة: قتلت في العاشرة
ونكتهم بقتل قطعة؟

قلت لها وأنا أبني إنه يداهمني في غيابة فصاروت مرة واستشاطت غضباً
وطردته. كذبت أبني لرحاً لطرده لكنها ذهبت بي غروب الأسبوع التالي إلى
مدرسة داخلية وجهة في الجبل وقالت لي إنني هناك في أمان من الحرب وأنت
السوء التي تروني الأكاذيب عنها، وإنما لا تفعل شراً بل تزجر فرقة والذي
ملرونا لجميع المال ولتطمني في أفضل الجامعات بعدما كانت تركة الوالد
بعض المليون.

كانت لحدثي في الناكسي حاسة كعادتها وحين اختفت الشمس وخطبت
رأسها تحت الماء ودفعتها بيدي أكثر تحت الماء أكثر وأكثر، وسكون حامة لمرق
للبي.

صرت أبني. عجلت لأني أبني. كرهت ذلي أمام سائق الناكسي وأمام

الغروب والبحر البعيد والغيم والسيارات وقطط الشوارع . وكلها ازمنت
مجدلاً من بكائي بكيت أكثر .

فهمت أن أكون وحيداً مع أمي في جزيرة لتخفي في صدرها اللطيف
الحنون الذي تفرح منه رائحة المطر والعمى من نسوة الناس ولكنني لمعتها
عني حين حاولت ضمتي إليها وقلت بلا صوت : أمي أن توتي . وحين ودعتها
بقلوبتي من يدي وهي ترجع في الظلام إلى بيروت وشاهدتها تجلس قرب سائق
الفاكسي تروت : أمي أن توتي .

صرت كلها لذكرها وكنت أنتحب شوقاً لحناها أمي أن توتي وأنتحل
نفسني وأنا أمدتها عارية في سفرة وأعمل عليها التراب حتى أطمسها ثم أبكي
طويلاً وأنا أسن إلى ضوء القمر الذي كان يعقل من عينيها حتى لأمع وروحي .

حين جاءت النافذة وقالت لي وهي تضعني إلى صدرها على غير عادتها
إن أمي ماتت برصاصة فاضى لمعتها وانطلقت عارية وأنا أبكي : لقد قتلتها . أنا
الذي قتلها حين فهمت بإخلاص مرميها ولم أسبق بالطبع ما زعموه من قتل أحد
عشاقها لها . لم يكن لها عشاق وأنا قاتلها .

يسبح بدمع الدموع عن حبه . يدخل إلى الحانة . يجلس إلى مائدة منزلة
لي شبه قلعة منسكة من مصابيح بخلة .

يطلب كأسين من (الكونياك) . يتعجب النادل لأن الرجل وحيد وطلب
(الكونياك) لشخصين في كورين هتافين .

ينضم بما معناه أنه شاهد الألوان كلها في هذه الحانة .

بعد وصول (الكونياك) ينضم عيلى إلى بدمع .

« إنك تبكي يا بدمع . كان جرحك بأهلك تالياً وجماعت الزيايث اللعينة
وأينظله .

« لعلك تتحامل عليها يا عيلى . لقد أسيبتُها بلهاها وبرادها واحتسيت
بضوء شفرتها من لحظات الغروب الوحشة . كالقراشة المشعة كانت تنقل في
الكتب وتنقل إلى الأوامر والاستفسارات كأية سكرتيرة إدارة جادة .

« منذ البداية كانت تتأمر عليك . لم تتسامح لذا اصطفتك وحده من بين

للموظفين الواسعين كلهم وعشمتك يا عذابيها؟

- استبّت ملاهي العربية ولقتها أنني لم أعرش يوماً بها عكس الشائع في لندن عن الرجال العرب. فلما ما قلته في حل الأكل.

- ولكنك تعرف جيداً أنها صارت لتجسس عليك بعدما وثقت بها. تنصّت إلى مكالماتك الهاتفية بمونة صديقتها عاتلة الخائف، وتحصل حل عنوان بيتك بعينها سكرتيرة للدير، بل ودّتي إلى منزلك دولما سلق إنداز ليلاً لتكشف أسرارك.

- صحيح. تلك الزيارة أثّرت شكوكي.

- كانت حياتك يا بديع قبلها تكاد تبدو عادية. عمل عمل ثم عدوى في بيت متعزل وعلاقات مع عاهرات جيلات في أرفقت متباعدة وفي ظل صمت متناهي لا يتهاد أسرارك، وصلات أخرى مع ذكور الحانات الخاصة بذلك دون أن تلغى بأحد مرتين كي لا تترك للمخضم فرصة التسلل إلى أسرارك.

حتى تفتافتك وياح الزبايث حين تورطت في لحظة وجد، وقلت لما إنك لا تريد أن تملكها إلا بعد الزواج وتريدنا أن تبغي عدواء... فافهمتك أنها ليست عدواء وأنها سيدة محترمة بمقاييس مجتمعها وليست صاهرة لكنها أيضاً ليست عدواء.

- أجل. ضحككت من سفاهتي يا عيذب وأفهمتي أنه ليس من السهل أن أجد في لندن شابة في سنها وعدواء إلا إذا كانت مريضة أو بحاجة للعلاج عند طبيب نفسي. وأردفت بضغ أنها ليست كذلك وإلا لتعالجت عند ابن عمها إدوارد الطبيب النفسي!

- وحين رفضت يا بديع أن تملكها صارت تنصرف وكأنها لملكك وروحك وأصغي عليك أنفاسك والحوار اكتشاف أسرارك. أثار فضولها وفضك لجسدها رغم معرفتها بأنك تريد حل بالتمت اللقنة. أنت تعرف أنها صارت تخاطرك وتراقبك.

- فلما صحيح وقد أثار ذلك عذابي. كانت الحوّل سبر أسرار أعصابي، وتتجسس حتى على أسرارك يا عيذب بعدما جدست حضورك في حياتي أو هكذا

حبل إلى... صارت للنس وجهها في منطقات ووحى وتحاول فتح الغرف
للحصة المفقدة في محالها قلبى. وكنت أريد أن نطلق حيلى سراً في زواج بطوم كل
من فيه بمهمة: هي تنجب الأولاد وتفرغ لهم والطبخ والجلوات والتفاصيل
النسائية وأنا أمشى حوائى الرجولية بلا قلب.

- كان بوسحك ذلك لو تزوجت شرقية ثم تزويدها من أسرار محافظة تحسن
تربيتها. الخطأ بدأ حين حاولت أن تعاملى الزاويث كما لو كانت قفطومة بنت
الجبران البيروتية الصغيرة الحجول.

- بدت في بوجهها البريء السانج شبيهاً بقفطومة، ولعلني كنت سعيداً
ببهي العلوي الكبير لما ورفضت أن أنهم شيئاً آخر.

- إنها اليوم تشكل خطراً على سلامتك يا بنيح ولا بد من التخلص منها.
صارت تعرف عاداتك الصغيرة كلها ولن ينقضي وقت طويل إلا وتصير تلك
العلومات مثل نثر في الكتب. وقد تفقد عملك بسببها وتضطر للعومة إلى بيروت
بل وإلى الصبح وسفر منك أصدقاء الطفولة من جديد بسبب أمك. الناس في
بيروت لا تسي، بل تستعمل الذاكرة أداة كأي حين ويكون الأمر متشابهاً
لصالحها...

- ولكن ما الذي تستطيع الزاويث أن تفعله عني؟

- حسناً إنها لا تعرف الحق التفاصيل. لا تعرف مثلاً أن مؤامرة كبيرة
تهددك وتضطر منها للحد. وأنتك لا تأكل اللعابات خوفاً من اسمها
عصياً أفتلك. وتشترى عصرتك بنفسك وتعلمها مرات ثم تغسلها جيداً.
وأنتك لا تأكل في المطعم ذاته مرتين ولا تشرب في الحانة نفسها أكثر من مرة في
الشهر، كي لا يرضوا أعدائك الكثر التابل ويسمعتك. فانت عظيم وهم يتألمون
عليك لأنك كذلك ويظلمونك. حتى نياك الجديدة تغسلها قبل ارتدائها
خوفاً من أن تكون مسمة بيد الأعداء.

.....

- لعلها تعرف مثلاً أنك تخاف النمل والصراصير وتحرس على إيدنها في
بيتك وتحزن الطعام والله كذلك عاصم ويكره أن يلتقط لك أحد صورة أو يحفظ
أحد بصورتك وتحفل كلها وأن الحافظ في بيتك. تعرف أيضاً أنك حريص على

التخافة. تحمل يدك عشرات المرات في اليوم واحتفظ بزجاجة الكحول الطبي في مكتبك لتعطيها كلها تحت القصرحة أو صابونك الملوّط. تسمح لبار طاولتك عشرات المرات في اليوم وغبار مكتبها أيضاً يوماً اتبهه وأنت أتعدها. تعرف أنك بلا أصدقاء إلا التلفزيون ولعلها تجدك زوجاً مثالياً بسبب ذلك.

ولكنها لا تعرف أنك تخلصت من سيارتك لا لأنها تعطلت وتكاليف تصليحها تكاد تقرب منها كما ادعت أمانها بل لأن الأعداء قاموا بتفريغها خرقاً من عظمك.

.....

- إيم يسطهدونك لأنك أفضل منهم، ويعرفون أن المجد ينتظرك. وحسناً تفعل حين تجمع في بيتك كل ورقة بخط يدك، أو وصلتك، فكلها متصير ذات يوم في متحف.

.....

- الزاوية لا تعرف ذلك كله، لكنها أهدمت كل أشيائك في البيت وأنت تعدّ لها القهوة، وشاعدت الحقيبة الصغيرة التي تحتفظ بها دائماً إلى جانب سريرك وفيها جواز سفرك ونقودك وبطاقات الائتمان وبعض الثياب للهرب سريعاً إذا صاحك الأعداء وحاولوا إحراق بيتك، أو حصدت أنهم قادمون لأغتيالك.

.....

- سواقحة متعاطية فتحت الحقيبة وسألتك هل أنت مسافر واضطرت للأعداء بأنك ذاهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في برايتون، وعرضت مرافقتك وزادت من حصارها عليك مدعية حيك فضاق صدرك وكنت تحتق وشعرت بالصداع، الذي لم تشعر به منذ أيام المصح في لبنان، يشطر رأسك من جديد إلى نصفين.

لكنك لم تقل لها شيئاً وثابتت هي الزلزال وسألتك عن سر الضربح في الغرفة المرممة وشعرت برغبة في خنقها كي تصمت ولم تجرؤ وكان عليّ أن أقول لـ جانك لأسألك حل الخلاص منها، واعترف أنني كنت حائراً ليلتها لا أعري ما سأله في ملزقك هذا. لم أكنها إذ خفت أن يكون أحد حل علم

يزيلونها لك .

.....

- كان من الخطأ أن تصطحبها إلى قلعتك يا بديع لو فتحت لها الباب حين داهمك وجاءت بلا موعد .

- لم يكن يوسعي أن أقول لها إنني مرغبت ، قبل حضوري إلى لندن ، بالأرجاع ذاتها وكل ذلك لأنني قبلتُ يومها فكرة الزواج من إحدى قريباتي إذاعتاً لرغبة جدي وهي القيمة معي منذ موت أبي وسفرك الطويل . كم توجست شراً من تلك القرينة وعفت من المؤسسة المخبرانية الملقبة بالزواج . وحين ذراني بعد طول غياب وحلوتي من الخطبة لأن جدي لا تعرف أن قريبي هذه تم تهيبدها ضدي ، صرت أحلم كل ليلة أنني أعثرُ تلك الخطيبة كما عثقت أنت القطة .

وحين داهمني الصداع لأزلم ذهبت وشكوت أمري إلى جاراتنا الدكتور الراجك ، وكان حنوناً وطيئاً وقال لي إنني مريض وبحاجة إلى الراحة في المستشفى ونصحتني جدي بأن لا أقول لأحد إنني ذاهب إلى المصح لأرتاح قليلاً . فالتاس في حينما البيروني قسمة وسيفولون إنني مهتون ويشعرون الأقبول عني . هنك في المصح تركني أشارك في زراعة الأزهار والرسم . كنت أغفي مع جلسات علاجية لطيفة بعد أن يخفني بإبرة خاصة ، وقال لي مرة : أنت مخطوط يا أبي لأنك صارحتني بأرجاعك . أنت مكسور الروح وبهذه ترجمة عبارة «شيزوفرانيا» . لست مهتوما ولكن بوصحك أن تكون حقيقاً . لا أتصحك بالزواج الآن ، ربما يكتفي علاجك .

فلوطني أوجاعي وكنت على وشك العودة إلى عملي كما وعظني الدكتور الراجك حين مات الرجل فجأة بالسكتة وأنا اعتقدت أن أهدائي قنلوه لأنه صديقي وجعلوا الأمر يبدو مؤثماً طبعياً . وسامت معاملة المعربين لنا وحاصرت الحرب المصح فتركنا نهرب لأن أرملة كانت تريد بيع الجني والسفر ، فلم أتايع علاجي بعدها وهربت من المصح .

- لم تكن تريد الهرب يا بديع . أنا ساعدتك على الهرب وجررتك مرغماً من سربك . هل تذكر؟ جئت فوجدتك تبكي حزناً على الدكتور وتجهل أنه جزء

من المؤامرة على عظمتك حيث قام بترويضك بالحبة والحيث كما فعلت الزواييث بك. أمعنوك فقلوا الدكتور الراجك فيها بعد كي لا يبرح لأحد بسر المؤامرة عليك.

.....

.. لم تكن يا بديع بحاجة إلى علاج ..

.....

.. كنت بحاجة إلى السفر والحرية وتبديل مناح لبنان إلى حديقة لا يرانب الناس فيها بعضهم بعضاً ويقومون بعمليات الحقن تحت منظر الحبة ، وهو ما تفعله الزواييث بك الآن.

.. لقد استجوئتي عن سر الضريح يا حبيب .. وارزيتك ثم قلت لها إن فناناً كان يقطن البيت قبل هو الذي شيد في غرفة أمه بعد موياها لكي يُخرج الضريح من قلبه .. وكانت هذه الغرفة مرسجه .. ولم أخل لها شيئاً من مهتس الدكتور الذي تعجب من وطني في النوم على سرير مشيد بيضاء لبر.

.. وأدعيت أن الصورة المعلقة على الجدار لأنها هي لأم ذلك الفنان، وأنتك تأثرت بوقته وأحييت أن تترك كل شيء على حاله في الغرفة وتتخلعا مرسجا حين تجد الوقت لذلك وتستوي بعض الرسوم من ذلك الوفاء النادر.

.. لم أحر خافاً أقول لها. لكن إسكانها بخطها وإحضارها في الجراح كما اقترحت لم يكن ممكناً، كما فعلت أنت مرة بقطعة أمي.

يشهنتان للذكرى ويتابع حبيب : لم تصدك الزواييث تماماً. لقد تركتها تلك حائرة، ولم تعد تصافيك بأستكها. تركتك تنطس وأدعت يا بديع . وقد عذبك إصراسها للهدب هناك . تعترف لها بالحقيقة وبأنك جئت إلى لندن ونصف الشباب في حقيقك ينص أمك.

يقفه بديع بصوت عال ويقول: ليك كنت معي يومنا لقرى وجه تصابط الجهارك الذي نضى حترتي فوجد نصفها مليئاً بالثياب النسائية . ظن للباس لي ولم يعرف أنها لأنها لكنت لم يقل شيئاً فهو يرى الكثير من الحشائيب وليس في الثفان البريطاني ما ينج ويلا من على صورة قلعة لامرأة جميلة وملابس نسائية

حقيقة مع ثيابها أريته عند العمل وبقيّة الأوراق الرسمية فتركها لأمي.
- ولكنه لم يكن خطفًا في حذسه فأتت ترغدي هذه الملابس بين حين
 وآخر...

- ما تزال واضحة أمتا فيها.

- وتشعري المزبد مدبا.

- أشتريا أمتا وليس لي.

ينادي ببيع النادل.. يطلب منه كأسين جديدين من الكونياك.

- .. وكماذلك كلبا الشبهت الزوايت ولم تقربها، ذهبت في اليوم التالي
إلى حاضرة. خرجت، مررت للخطر لو لم أتعطّل في الوقت المناسب وأنتقل..

- يخلعن ثيابهن عادة بصمت، وعلى يرحمن في الانتهاء من الأمر بأسرع
وقت. لا أدري لماذا كانت تلك الوعلة تريد الحمار. سأنتهي عن حياتي العاطفية
وعلّ أنا متزوج لم لا. ثم وحيث أنها جاسوسة من أصدائي تريد هلاكتي. وحين
سأنتهي عن أمي أودت فقط إسكتها وحشوت، فيها بمنجلي وغربتها. لم أكن
أريد أن تتحدث امرأة كهذه عن أمتا. . أودت لارتداء ثيابي بسرعة ولكنها
انتزعت المنديل ورقعت سباحة الخائف لتكلم البوليس واشكوى...

- لو لم أتعطّل يا ببيع لوجّلت نفسك في ورطة. لكنني حرمًا أحضر في
الوقت المناسب. تركتك لدخل إلى الحمام لتغسل تحت الدوش ولغلت هذه المرة
ربطة عنقك حول عنقها ولم أتركها إلا حين لم يعد يوسعها أن تقول كلمة ثانية
عن أمتا. . . لو أسرفنا..

- لقد ذهبت حين خلوت الحمام ووجدتها خنوقة. والغريب أنني كنت
أحلم وأنا أستحم بأن شخصاً يلتقيها كذا لو كنت معها وشاهدت ألق
التفاصيل. ونضجكت طويلاً في اليوم التالي وأنا أقرأ في المصنف بعضه المعلق
لأن القائل اغسل بعدما قال العاهرة كذا استك من أكثر الحوادث!.. لم ينظر
بها أنا أشاء!..

بصمت ببيع حين يضع النادل كأسيّ الكونياك، وبراء وهو يجثو فيه
بسهولة ثم يطي كذا لو لم يعد أمتا ما يدعته.

يشعر بالخطر ويأمنه بحاجة إلى جسم القلب ومفارقة الحالة ويقول: ماذا تريد مني الآن يا عديم؟

.. أعتقد أنه لا يد من إسكات الزايت؟

يفكر بدمع طويلاً ويقول: بل اللهم أولاً إسكات الطبيب ادوارد، ابن عمها الذي استقامت توريطي معه.

.. لا يد من إسكانها معاً يا بدمع. وسنبدأ بالزايت قبل أن يتصل بها ادوارد عذراً لإعانا منك بسبب طلب معلومات هناك.

.. أجل. سمعت بأخي أنه سيفعل ذلك. ولكن الطبيب ليس ذنب الزايت. لقد بدأ الخطأ حين خيفت أنت يا عديم تلك العاهرة في اليوم التالي لغارة الزايت حل يبي. لقد أصبحت بعد قتلها بسجيع يشطر رأسي إلى نصفين، وصرت أسمع أصواتاً تتشاجر داخله وتكاد تترقي كسلي إلى التين. غيبوبة. دوار. قيء. انهالك. وبكاء مفاجيء في فطور الانتقال رغم أنني أقيم قرب المكتب خوفاً من وسائل المواصلات ومن الأخطال...

لحال الطبيب الأول أن لا مرضي خصوصاً عندي وأحالني إلى الثاني للأعصاب الذي أحالني إلى ثالث تلسي.

اعترفت بذلك لالزايت في لحظة حانة ضاحكة وكنت قد دعوتها لتناول المشاء معاً في مطعم (تورنر). وبعد أن دفعت هي ثمن ما أكلته ونقاسمتنا القاتورة بعث لها بولوجاني مرةً ثورنا السابق وعلاقتنا المتراجحة بين مد وجزر وافترحت عليّ الذهاب إلى ابن عمها الطبيب النفسي الذي سيعطي بي وأن يجعلني أقتن الكثير ما كنت نرسلاً من قبلها.

أخبرني ذلك وأنت تعرف مدى حرصي على مالي حتى إنني لا أصافق أحداً كي لا أفلت جنبها هل سوالي ونعت.

بعد امتحانات الجامعة طرقة عجيبة غريبة لم أمر بها عند الدكتور الراجاك ورسوم عليّ القول بملأ نوسي لي دوماً أية أسئلة مباشرة، وحسن علاجة تسجل جلسات عديدة كنت ألتحدث خلالها عن نفسي بسرور حتى دون أن يطرح عليّ الأسئلة، ومعني الطبيب فاقلاً إنه سيحصل بي ثانية ورفض أن يتفاهني أجزاً

وفرحت حتى إني نسيت متديلي حل طارئة وكنت أسمع عنها الخبر من وقت إلى آخر ونحن نتحدث .

في المصعد تذكرت ذلك . عدت إليه لأحضار متديلي وبأ لحوال ما سمعت . . .

يقطع يدع حديثه ويتادي النادل طالباً كورسين آخرين من الكوكايك للزودج . ثم يتابع بصوت ارتفع قليلاً : حين عدت وجدت الرغد يتحدث عني مع زميل له .

- اغضض صوتك قليلاً يا يدع . . .

- يا عديب . . . لم يكن الرغد يتوقع عودتي وبغياي سكوتيته - وبأ في الحرام - فسمعته يقول لزميله عني : هذا مريض بالقصام الشخصية يوسعه أن يكون صديقاً جداً . أولاً السر المهني لا اتصلت الآن بأبنة عمي الزايت أحضرها منه فهي في خطر . الخمسة قالت إنها ستوصل لي عطيبي للمستقبل . ولكنه قد يكون قاتل المستقبل . إنه بحاجة إلى علاج .

أجابته زميله : وليس بمقدورك أن تفعل أي شيء . القانون لا يسمح لك تدخل شخص في المصع دون إرادته ولا إنشاء السر المهني حتى لأبنة عمك .

يضع النادل كأس الكوكايك . يطلب من يدع تسديد الفاتورة . يفصل دوماً تردد ويترك بحثيها كثيراً حل غير عافته . يريد التخلص من النادل ليتابع حوارهم الملمع مع عديب . . . يريد أن يجتبه بكل ما قاله الطيب (اللعون) انهوارد عنه حين كان يسترق السمع .

يخاطبه عديب : أعرف ما حدث . كنتُ إلى جانبك ومنعتك من البكاء حل السلم . هل تذكر؟ أنت ليكي كثيراً . ليكي أمام النساء وهن يتوهمن ذلك لبعثاً ليشدن من قيسن حل قلبك ويغرسن فيه الظفر من الحناجر . هيا بنا تخرج من هنا . فالنادل يهرم أكثر مما ينبغي حولنا وقد يكون جاسوساً آخر . . . يجب أن نأخذ حلونا . . .

- ولكنني متعب . لم يعد بمقدوري الوقوف . رأسي يتمزق إلى نصفين . وثمة من حل قاساً وهو يشريني به ليشطري بلا رحمة . . .

- لا تخلق يا بديع . متصليح معاً العالم وتخلصه من شرور النساء ...
ولكن لا تدع ضعفك بعد اليوم يوتي بنا ... علينا أن نصير واحداً
متناسكاً ... لا تتصل مني بعد الآن ولا تهرب ، فلو أننا أن نكون واحداً ...
- سأحاول ... لكنني متراجع ضعيف ومتعب ...

- كل شيء يكون المرء حتى جسده . . . ها جرّه عطفك ودعنا نقامر هذا
المكان .

يخرج بديع من الحانة . يقول القائل لزميله : إله هنا منذ ساعة يتلمح
التكليفك ويترار مع نفسه ...

يبيه الآخر : أهذه أول مرة تروى فيها رجلاً يتحدث مع نفسه يا رجل ؟ ألا
تفعل فلك بنفسك مرات ؟

ثمضي بديع صوب بيت الزاويث . . . يلهو على القعد العمومي للقابل
لناظريها في ساحة تتوسط الشارع .

- يجب أن تصعد إليها يا بديع وتساكنها تماماً مرة واحدة .

- لا أستطيع . إني متعب ومرضى والعالم يقامر عليّ ويذلي ويصغي منذ
كنت محسوراً في جسد طفل .

- حسناً . دعني أقول الأمر . أنت تكت بي ، أليس كذلك ؟

- بالتأكيد .

- إذن ثم هل القعد هنا . دعني ألتصها بالصمت بالنيابة عنك .

يتلمح بديع على القعد العمومي في الساحة التي تتوسط الشارع والغروب
يسقط فوق صدره بلا رحمة . يتذكر أمه والناكسي في الطريق إلى المدرسة
الداعية ... يتذكر أشياء كثيرة غامضة مشوشة مرسومة ثم يغمض عينيه
وينام .

يعلم بأن عيذب ينهض من القعد ويقول له إنه سيقتل ما عليه أن يفعل ،
وتمضي صوب غرفة الحائط العمومي في الشارع . وتتصل هاتفياً بالزاويث التي
تقول له بصوتها العذب : أهلاً بك . سأفتح الباب . ولكن ابن عمي الطيب

الدوارد مبهضراً أيضاً بعد قليل . قال إنه يريد أن يتحدث معي هناك . يريد أن يسألني عن أشياء تخصك . لماذا لا تحبيه بنفسك ؟

- سأفعل يا حبيبي . سأطلب يدك منه . عندما لا بد من طلب الإذن من ذكور الأسرة قبل مضاجعة أنثوية واستلامها .

تكرر ضاحكة : ستضاجعني وأن تطلبني الأمور هنا تجري على نحو آخر . هنا اصعد . سأفتح لك الباب .

يستيقظ بلذع في سريره في بيته ، فغمزه السعادة . يقول : إذن كان ذلك كله حليماً مزعجاً ؟

بحبيبه عديم بل كان كله حقيقياً .

فتحت لي الزاويث الباب - طنتني أنت ولم يدعشني ذلك إذ أنني شفيقتك الثوام وصورتني نسخة منك في المرأة كما تعرف .

ليكنها طويلاً طويلاً بعض وشدة لا يرقى كما تفعل أنت حين تضطرك لذلك .

التهبت شهوةً وحلت لي ربطة عنقي وبدأت ترغمني على خلج قميصي وقفازي ووظفت استلامها . كنتا تملرك وهي تضحك حين سمعت الجرس يرن وصوت ابن عمها الطيب يكلمها عبر الاسترلونه .

تركها تحبب بأنها ستفتح له الباب ثم فعلت ما يجب أن أفعله بسرعة وقمت بإسكانها جيداً كما فعلت مرة بالقطعة . وعندما احتفلها استمدت من عنقها ربطة عنقي وجردتها إلى الطبخ ولم تسج الوقت لي لأضعها في البراد إذ فرغ الباب ابن عمها الدوارد .

تركها مكانها . فتحت له الباب . دخل . فوجيء بمضجوري وغشائها . خاف . حاول إغاثي بحوار مصطنع وهو يقترب من الباب مضجراً الغروب .

صرت أقترب منه وهو يركبني لكنه يمدني بصوت هادئ لئلا إنه يريد أن يساعطني وإن يومعي الخلاص من عديم الذي يضايقي . ويدون أنك قلت له ما لا أعنيه تحت تأثير حفته حين كان يسرق أسرار روحك ثم يقولك ما لم تفعله .

قلت له إني لا أريد الخلاص من عيذب لأني عيذب، فأعطيني ملأاً كان
يحملة يده وقال إنه ملقي الطي وبوسمي أن أعله وأسي كل شيء عن الأمر.
غضبت من انضمامه إلى أعدائنا وفوجئت بمسكن في يده وبحركة سريعة
حوّله عني والصفت لموته برأسه وانطلقت رصاصه. سقط على الأرض ميتاً.
بسرعة حللت ربيعة عنقه قبل أن تطلق يده وأخذتها وأحطت بها عنق
اليزابيث كما لو عثقت بها، وضحكت طويلاً وأنا أظفر المكان وأخيل ما يمكن
للبوليس أن يستتجه!.. سيطرته قلبها واتسحر. احتفها ربيعة عنقه ثم أطلق
الرصاص على رأسه. ولم لا؟

لم أترك بصيات حقلي فقد كنت أردي قساراً أشكرك لأنك اشتدته
عصبياً لي. اللهم، إني عبطت بسرعة على سلم الفريخ الداعلي في البني كي
لا التقي بأحد في المصعد وقاترت البني الكثير وعدت بك وبذلك الطي إلى
البيت. وعليك الآن أن تذهب إلى الكتب وتلقى التعازي في عطيشتك
اليزابيث.

لم تكن تدعي أنام الجميع أنك عطيها كوسيلة للسيطرة عليك وإبعاد
النساء اللطيفات عنك؟ كن هادئاً. وبعد فترة متعبة يُدَلّ المدينة..

بدع لا يجب ولا يسمح جيداً ما يقوله عيذب إذ يتابع ركضه داخل
معاليز وملينة كالغروب تغرب منها رائحة كولونيا غابرة.

يرتدي عيذب الزَّيَّة السوداء المفضلة للحداد لدى بدع، ثم ويدلها إلى
أخرى وملينة. من المهم له أن يلعب دور من فوجيء بالثأب المُرْسَف.

في طريقه إلى الكتب يشتري صحيفة الصباح ولا يرى صورة اليزابيث في
صفحة الجرائد. يفيقه ذلك!

ثاني زيمة ولقدّم إليه التعازي ونداهه باسم بدع. يكافه يقول لها إنه
عيذب وأبس بدع ولكنه لن يتخل عن شقيقه التوام الذي يرتحف في فراشه
حزناً وذعراً. يسمع محسات عن صلة اليزابيث بأبن عمها الطبيب وكيف وجد
البوليس جثتها معاً. يحزبه آخرون. وحتى ابنة المدبرة الوحيدة التي لم ينسب إليها
من قبل تعزیه بكل جهلها وعوائلها الماسية. يحس عيذب نفسه: كم هي فائتة!

ها هم الأعداء يحاولون من عملية جديدة في حياة يدعي، لكنني لن أدعها تولع به ولن نتجح في التسلل تحت جلته وتعليلته حتى ولو قيل الزواج منها للسيطرة على الشركة بعد موت والدتها. يكيد الأعداء ليدعي ولكنني يوماً أكيد علم أيضاً مستصراً بحظتي على اضطهادهم.

حين يتقدم عديب المكتب بمر ياتج الأزملة ويرسل أكليلاً لتكم الزايت باسم يدعي. ثم بمر ياتج آخر ويرسل أكليلاً ثانياً لتكم باسم عديب. يرسم بحيث لهذا الحاضر: ولن يلحق أحد. حتى اليوليس المحقق - أن اسم عديب بالعربية هو اسم يدعي مقلوباً، لأنه يكتب بالانكليزية على نحو آخر. ينفرد سرور هائل لأن المحقق سيكون عاجزاً من حل اللغز، فهو أكثر ذكاء منهم جميعاً، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم...

١٩٩١/٨/٢٨

الساعة ٢١، ٢٠ ليلاً

سؤال: أنا است عربية

الذي اجد شاعراً في نظري كعبية
الاعباد، كل ما في الأمر انه ليس
يوسنا القاهوم بلبلد. يوسهم ان
ياثرا الياء ولكن - ريثا موت - ليس
يوسنا القاهوم اليهم.
ان يكون المرء ميتاً يعني صبره
من استعجاب معنى ان يكون المرء
حيّاً.

صموئيل باتلر - ١٩١٢

كل ما ينسب للمرء يصرخ في
نوبه: القطة!

الميلس كاتيني

الميلس من ذوي واثقوك وداصاً
الميلس الذين ان كاتيهوم ثانياً.

بيتر برونر

سؤال: أنا لست عربية!

يوقظني الرنين للمحاج يجرس الباب.

أصبيء النور. أجد الساعة تشير إلى الثالثة وثلاث فجراً.

لا أحد يزورني عادةً في هذا الوقت المتأخر من الليل. أبهى نصف مدهورة، أنا أمشي وحيدة. أحلق صبراً بنظر الباب. أرى غلوريا. تبدو خائفة. تفرح بيدها على حديد باب المصنح دون أن ترفع أصبع يدها الثانية عن زر الجرس.

أفتح الباب قفلاً بعد آخر. تدخل مدهورة. ترغمي على أقرب مقعد إلى الباب وهي تسألني: هل تؤمنين يا سيدتي بوجود الأشباح؟ كانت مفاجأة حقيقية.

إن يوقظني عملي المتزلة التي تزورني مرتين في الأسبوع لتنظيف البيت لسألكي في الثالثة والثلاث فجراً إن كنت لؤمناً بالأشباح أم لا. لم أفر ماذا أقول لها بعدما استقرت هكذا على أحد المقاعد متبكة دون أن تنتظر أن يلقن لها أحد بذلك في مدينة لا تعتبر وقع الكلفة عادةً مألومة!

أغضب وجهي وأقول أن أخبر بصمتي عن أتعس حالات الاستنكار. يبدو أنها لا تراه إذ تكرر سؤالها بنبرة صموية وصوت تلك تتدفق من عينها وتلطي وجهها: أرجوك أن تقول لي يا سيدتي. هل تؤمنين بوجود الأشباح؟

. هل أيقظني في هذا الوقت لتحدث عن الأشباح؟

. ساعلمي يا سيدتي. أنا خائفة. .

ترجف. . ترجف. .

أفترج عليها أن نبحث في الأمر صباح اليوم التالي على أن نمرد إلى شقتها (الاستاذين) في الدور الخامس بالمعاملين في ناطحة السحاب التي أقيم فيها وتنام. لكي متوسطة كي أضعها نظفي هذه الليلة فقط على الأرض الخشبية للمصنح

(البارك) لأنها مذهوبة ولا تخرج من العادة إلى شقتها المسكونة بشبح .

لدي دعشتها من وجود شبح في (الاستديو) ويقول إنها كانت تظن الأشباح لا تسكن إلا القصور الأثرية ولا تأتي إلا للناس المهين . لم تقل لها إن الأصـب والسـنيا الأمريكـية والتلفزيون تروج هذه الأكاذيب عن أشباح مصرية طيبة . وكان للأثرياء والأميرات والبلاء وحدهم أشياء أما البسطاء فلا . إذ قلرت أن الوقت غير ملائم لمناقشة عن الأشباح التي تقيم شيئاً إلى الخيام أيضاً .

اسألها نصف ساعة: هل تتحدثون عن شبح يخرج من صندوق خفي مثلاً ولا يأتي إلا في الظلام ويرتدي اللامعات البيض أو أغطية السرير ويمكن لك تحتها أو يخرج في المظلم ويحاول قتلك شيئاً كاشفاً عن هيكل عظمي كروجه بجيئة تاطفه عبقها بصوت كالرعد ، ويهرب مع صياح الديك متدبة غريب: التحدث عن شبح أسمع صوته دائماً . شبح كان القيلة هائجاً وأخافني . . . أنصت إليها وقد استيقظت أعينها بشبحها مرة واحدة . . لو قالت إنه من القبط الذي يرتدي اللامعات البيض لسخرت منها ، ولكنها فيها يبدو تتحدث عن شبح حقيقي أليف تعرفه ما دامت تسمع صوته داخلها .

ها أنا أوقع ضريبة أن تكون كاتبة . إني أستخرج الناس عادة ليمتدحوا عن أنفسهم وأنصت إليهم باهتمام على أمل سرقة روحهم في قصة أو رواية . ولكنهم يعتبرون أن اهتمامي بمكشباتهم يعطهم حقوقي مكتبة على حياتي فيعاملوني مثل ساحر القرية أو الطبيب النفسي . وعلىّ فيما بعد أن أنصت إلى صومهم حين يخفون حتى ولو كان ذلك في الثالثة والتلت فجراً وعلىّ أن أبعد لها حلولاً حتى ولو كانت تتعلق بالأشباح .

صحيح أنني لم أنشر في حياتي كلها سطرأ واحدة في الصحف أو الكتب ولا أسد غيري يعرف أنني كاتبة . لكن اتصالي الشخصي إلى سكانها غلوريا على طول أعمام يمنحها حقاً مكتسباً في نظرها (قال في الحارس الفرنسي لسطحة السحاب التي استأجرت وزوجي شقة للإقامة فيها : سأرسل لك غلوريا لتظف لك البيت . إنها تعمل في المني على تنظيف السلام والمصاحد وتقيم في الدور الرابع المخصص لنا عملاً وحيلاند .

جاءت غلوريا، صبية جميلة في الثامنة عشرة من عمرها، يتفجر بانفاس بشرها بجمالاً وحيوية وترويض الشمس في شعرها الأشقر. ودية. وثيقة. متعلقة بالأنس الردي. لم تكن متعلقة كمعظم الفرنسيات في اللغة الأول بل متعلقة بحرارة القلب.. وكلمت تذكرني بديف قلب بيتي. في البداية أحببت كثيراً عيني الخاوي من الأثاث، وشهدت دعواً أمام الشطر البديع لباريس من عل كما لو كانت نراها للمرة الأولى، ببرج ايفل الذي يتوسط نواظلي المشعة كأن جدرانها كلها من الزجاج، وحين تقطر باريس يتحول المكان إلى غواصة جوية شغالة تنوم في الفضاء اللاتقي وتبدو تحتها المدينة ودية وهي تستحم بالفضوء الشتوي الخافت.

صاحقت غلوريا فيما بعد أثاث بيتي، واحتقت بكل قطعة جديدة تصل منه، وكلمت تخاطب الأثاث الذي يعجبها برهافة كما لو كان حياً يسمع ويفرح ويحزن كالحيوانات التي تدللها كثيراً. كسرت وحشة الأثاث وأبهجت حباته الداخلية السرية التي قد تكون موجودة كما تظن غلوريا، كما كسرت بعضاً من وحشي في الرفقة، وصارت خلال عملها تضحك من أعطائي وأنا لوطن بالفرنسية حين تولت الذكر وأقول لها مثلاً: اسحي هذه المرأة. فتصحح لي: قولي دعاء المرأة فالمرأة في اللغة الفرنسية مذكر. وأسألتها: لماذا؟ فتبدو على وجهها الدهشة والخيبر. وهكذا توالت صلتنا عاماً بعد آخر من الصداقة، وأهديتها الكثير من ثياب الرفقة، وألصقت إليها كثيراً وصمت كثيراً كلما حاولت استدراحي للحديث عن نفسي.

صوتها ما يزال يتوح: أوجوك يا سيدتي. دعيني أبقى هنا الليلة. (حسناً. ليس يوسعي طويلاً، لا أقوى على ذلك).

أجيب: سأعطيك شطاة. نامي على القعد في غرفة الاستقبال وغداً نتحدث عن ذلك كله. (إنها لا تعرف بعد أننا نحمل معنا الشباعت أيتنا نهدنا، وأنها ليست حقاً أمة أيتنا نعت وأباً كان من نصي بـ).
التحلى للزبد من الحوار معها. أعطيتها شطاة دافئة.
أمره إلى غرفتي، ألتقيء النور وغداً أعود إلى النوم.

أكتد أهله في الظلام . هذه للسكنية الحارة من شبح ، ألم تجد غير بيت
الأسباح؟ هذا الذي نطقه للجنود إليه؟ (ون جريس الحائض ليلة رأس السنة
الأولى لوصولك إلى باريس من بيروت، ولم تكن أسباح قد انقضت حل ذلك .
جواني صوت صديقي الحميمية الطوقايت: ماذا فعلان أنت وزوجك في
البيت؟ تعالاً للسهر عتدا .

كنا قد هجرنا بيروت معاً، ولكن صوبها بدأ لي سعيماً ومستظراً، ولذا
شعرت بالغربة عنها وبالسرور من أجلها في آن .

كنت وزوجي حزيين حتى الموت، لا لأننا في باريس أجل منى في
العالم، بل لأنه كان ما كان في لبنان... . قصتنا طويلة مع الحرب قطعا زوجي
بين سجن وآخر من سجون أصدقاء ألقى عليهم جزءاً من ثروته فقد ظل مؤمناً
بحرية الفكر حتى في الحرب الأهلية، ولم نغادر بيروت إلا حين انتهت الحرب
وانتهينا معها . كان زوجي محظوظاً لأن أحداً لم يقتله مكثفون بعمليه، ولكن
قُتلت وحيدتنا برصاصة ابتهاج أطلقها أحدهم بمناسبة انتهاء الحرب!

لم أفل لأنطوائيت أنني وزوجي سسهر مع شبح ابتنا ولأسباح الماضي
الذي لا نعرف بعد كيف نخلع أشجاره من حداث قلبية .

دعيت أننا مدعوون للسهر في أحد الفنادق الفخمة . وهكذا تقضي
الأصول البورجوازية التي تربيت عليها: أن لا أشكو إلى خلوق ولا أتعمر ولا
أعمر! . . .)

أسمع غلوريا تتأوه في نومها . يكتفي صوبها عبر الباب تثن بصوت منقطع
كمن يرى كابوساً بلا نهاية . إنها ما تزال في بداية الدرب إلى التعارف والأسباح .

في الأيام الأولى لاكتشاف وجودهم حوائنا، نرفضهم، نطيشنا النظرة
المثورة، الكارثة لهم وبالتالي الحائشة والرافية في إنكار هذا الحضور . نظرة قد
لا تتخلص منها أبداً . وهكذا نتمرد على لحظة التعارف الأولى وترجمنا فكرة
العلة المؤدية بيتنا وبينهم .

مع الزمن نرضى بالاعتراف بعقائ كثيرة تبعد للوهلة الأولى غير عقلانية
وغير مرتجة منها مشاؤكهم لنا حياتنا .

صلتنا بهم تشبه تلك التي قد نطعمها مع سكان الكواكب الأخرى: مليحة
بمشاعر متضاربة كالخشية والعدوانية والفضول، والخيرة لأننا لسنا وحدنا في
ملعب الكون، وربما الرغبة في التعرف والصدقة.

إنها الصلة مع المجهول ولكل أسلوبيه في ممارستها إذا شاء الاعتراف
بالأخر...

تأجيل غاروبا إليها في الغرفة المجاورة. مستلحب طويلاً ريشاً تصالح
أشباحها أو ترغضهم.

أخبرني أن أنقل إليها عيني الطويلة في هذا المجال لكنني أعرف أن زرع
أعضاء الخيبرات ونقلها غير ممكن.

قد يمر وقت طويل قبل أن نكتشف مثل أن الأشياء تملأ حياتنا عاماً بعد
آخر حتى ياتي وقت يصير فيه عند الأشياء الذين تعاشهم أكثر من عند الأحياء
حولنا.

يوم ثوري زويجي قبل أشهر لم أحزن كثيراً، فقد كنت أعرف أنه سيضي
معي بعد أن يصير شعباً، ولن يندك الشيء الكثير فقد كنا قد بدأنا نحول
يبدو إلى شعبين منذ خلعونا بيروت. وربما قيل ذلك. قيموت ابني يرصاص
الابتهاج قتلوا بيبي وضي شعبها فيه. توهمنا أن السفر سيحرقنا ويصورها..
ولكن باريس كانت مكاناً مثالياً للشعبين (الخطيين) مثلاً لا يرحمان في ابتداء أحد
ويريدان العيش بسلام مع شبح ابتهاج وبقية الأشياء الأخرى.

فوجئنا بباريس الجديدة مسكونة بأشباح آخرين تعلبوا مثلاً قبل مرهم
وبعضهم قاتلوا الوطن لأنه عاشق كبير من عشاق الحرية وجاء ينشد العزاء في
باريس - الحرية.

وهكذا كنا كثيراً ما نزور البيوت التي سبق وسكنها القاتلون المضيون إلى
باريس أو الذين تقوا أنفسهم إليها ثم أصبحوا كذا أو كانت وطنهم الأصلي. كنا
نزود قلوبهم لتؤنسهم.

صبرنا نسمع عزف الكفّ شريان كذا لو كان موسيقى الحزان الغربية في
اللحظة...

منذ وصولنا إلى باريس لكنا إتينا في إجازة للراحة ولم تكن نكتب. وبقينا سنوات وظالت الإجازة ولم نشعر بالراحة! ولكننا ظللنا نرود البيوت التي سبق وأنقم فيها المدهون الراحلون على اختلاف مشاربهم ولحب الجلوس في المقاهي التي ظللنا جلسوا فيها والأحياء التي تحركوا بين جنودنا.

لشبابهم ما تزال هناك تقطن تقوش الأحياء والجسور والنهائيل. صادقناهم، ومع الزمن اتسعت قلوبنا كشبيح على المحبة، فصرنا نرود دوراً بيوت أولئك المدهون كلهم الذين تعذبوا بالثأريد وعذبوا من حورهم وصارت لأشباحهم كثافة حضور روعي ثائرة... كحضور ابتنا!

ولكن مكان نزلنا المفضل هو في حديقة بيرلاشير (أعني مقبرة بيرلاشير) الجميلة بأشجارها وقنايلها البديعة وسكانها من أشباح المدهون حيث كنا نجلس طويلاً على قبر شويان ونحن نصمت إلى عزفه على البيانو اللامرئي مخصباً لنا وبعدما يروي لنا حكاياه مع جورج صائد وشيف من السباح الفضوليين.

وعيت أن الحفلة الثانية الخمسة لزويي لسهل لنا مهمة التحول إلى شبيح بسرعة.

خفت من ذلك والحروت العمل ولم يكن ذلك صعباً، فلما تزويي عريجة إحدى جامعات بيروت، حيث التقينا وعشنا أنصر أسلامنا التي تكسرت كلها مع حرب كل منا يتصل منها رغباً لتلاوة فعل الندامة وعقد صلح مع ذاته، ومع رفاق مات معظمهم ونشرد الآخرون.

ثم إنه ليس من الصعب أن يجد المرء عملاً إذا رغبى بعدم تقاضي أي راتب وتلك حالي.

وصرت أعوذ من عملي كمفترسة مطروحة لتعليم الحرية لأبناء المفتزين في إحدى المقاهي لأجد زويي يتابع لهو له إلى شيخ بكسر معي. وهكذا تقل ذات يوم عن جسده المادي ودفقة له في حديقة «البرلاشير» بعدما دفعت ثروة صغيرة (كشغل) قبر.

لم أشعر كثيراً بالروحشة بعد موته فقد ظل كابتنا معي، حتى إنني ما زالت أفرج باب غرفة مكتبته قبل الدخول إليها كما كنت أفعل خلال حياته، وما زال

يرافقي في زعمائنا للألوكة ولابنتنا وعشيتي وأسدته، بل ويداعيني أحياناً حين يقاطعني بموسيقى شويكان وهي تصدح من تلقاء نفسها من آلة التسجيل؛ أو يخال في شلثة التلفزيون مكان اللبج ويداعيني بتكاته الذكية فأضجك طويلاً ثم أخبر القنابل، أو يستقبلني بعد عودتي من العمل برائحة عطره «أراميس» التي نفوح في غرفة نومي من تلقاء نفسها، أو ينطق لي زهرة ووزاله صفراء صغيرة رقيقة ويتركها لي على طاولة الكتابة حيث أجدعنا وأكد أنهم الروح بأنها حللها ولكنني أعرف أنها منه، فقد كان يشجعني كثيراً على الكتابة والشرعياً لأنه يعرف حيائي الداخلية ويعرف أن كتابة القصص هي في جوهرها حياة مع الأشباح الذين نستدعهم أو نخترعهم أو نعرفهم.

وفي نظري، الفارق ليس كبيراً حقاً بين كتابة القصص والتحضير الأرواح. لكنني لم أشعر يوماً بالرغبة في النشر وظللت أكتب قصصي بصمت داخل رأسي كالأشباح، وصرت أول كتابة أشباح عربية. فلقد كنت أكتب لهم بطالعوني حتى ولو لم تنشر كتبتي: إنهم ببساطة يفلتون بالتخاطر كل ما لا يكتبه على ورق!

وكنيت قبل دعائي إلى العمل أترك له ولابنتنا شبحي في البيت يسامرهما. ليس لي أنا أيضاً شبح لعله في هذه اللحظة بالذات يطارد شخصاً ما في قاعة أخرى ويمنعه ويؤله في أن کیا تعذبني وتفرحن أشباح كثيرين أحببتهم أو كرهتهم (لو أحببتهم وكرهتهم في آن) ولم أجد أنني على ماأثروا في متابعهم أم ما زالوا أحياء؟

إن كوني حياً لا يبرمي من حالي في أن يكون لي شبح. أليست للأحياء أشباح؟ أليست حيائي مسكونة أيضاً بشيخي نفسه (الشبي يطعني ويعشيتي وينشاجر مع جسدي) وأشباح بعضها ماتت، وبعضها ما زال حياً ولكن طوله الزمان واحتفظت به للذاكرة؟ أليست أحيائي مشحف أشباح، بهم في مدن توتف فيها الزمان من زمان...

أشباح المدن. أشباح الشوارع. أشباح المحطات الحارة. عمر أفضيه مع الأشباح، (قال لي نواف: ما وأهلك بالمشاء معي الليلة. كذاك حداثاً وحزنناً على ابتلاك لزويك، لعل لا تفكرين بالحياة من جديد؟

قلت له : لا تريد أن أتناول المشاء معك لأنك لست أصليح وليس لك شبح . لا أستطيع أن أحب رجلاً إلا إذا كان أصليح وله شبح . كنت أعني ما أقول لكنه لم يصدقني . فقلت أنتقل .

كان ثرياً وصديق صبا لم يتج له أن يستولي على جسدي في طائر أيلنا ، ولعله يريد قتل شبحي . في حياته . بالاستيلاء عليّ ، الرغواء لوجع في ألتة .

ولعله يبغي حقاً كذا يدعي فالحب ولد مجنون أرعن ولا منطق له . وفي باريس المزروعة بأهل الصبايا ليس ثمة ما يمنع كهلاً ثرياً مثله من حب أرمينية (ثيفة) مثلي لا تبدو من الخارج شيئاً .

ولأنه يعرف أنني بلا أولاد عرض عليّ مساعدته المالية ما دام لا يبق لي في ثواتين مثلي أن أوت من زوجي الثري إلا بعض ماله ، قطعاًته إلى أن زوجي كان إنساناً رائعاً يمارس فتاحاته عملياً (وقتك سبب مصائبه وتغله من مسجن صديق إلى آخر) . وأنه أعداني كل ما يملك خلال حياته (كي لا يهاجمي غريبان المهاكل بعد موته وتاكل لحمي حية ليجرد أنني امرأة ولم لتجيب صيباً بهتكر ثروة والده بأكتلها ، وبالتالي يذهب معظم ما تعبنا في جمه معا من مال إلى الشقيق الذكر لزوجي) . . . فاحفظ بمالك يا نواف ودعي أحفظ بجسدي ولتظل صديقتي لا أكثر!

قال لي : كيف أستطيع أن أقول إلى «شبح» أصليح لتكون أكثر من صديقتي؟

قلت له : ليس سهلاً أن يصير المرء أصليح إذا لم يكن مخلوقاً بذلك إذ لا علاج حتى الآن لكثافة الشعر وليس ثمة من يحاول اختراع دواء ليصير المرء أصليح رغم جمال ذلك . ولذا لا علاج لك أيها التعزير كنت الشعرأ

أما كيف نصير شيئاً ، فلنا أعمال على كتب عنوانه «كيف نصير شيئاً لطيفاً» .

ضحك طويلاً وقال إنني خفيفة الظل ولم أكن كذلك . كنت أعني ما أقول . حين نقول الصديق للطلق لا أحد يريد أن يصدقنا! . . .

عيناً أعود إلى النوم .

خلوريا تصرخ يلع كمن أرجعه كايوس. أبهى وأعني إليها. أشعل نور الرعدة المجاورة، وألها توهم كائنات جميعاً أن الظلام هو سبب خوفها ولجئها أن دعالزها الداعية للفتنة هي المقر لأشباحها. ألعها تصرف الآن عليها شيئاً شبحاً. إن يكون بوسمها مصافقتها إذا لم تعرفها. أعرف شبحك تعرف نفسك. إنها القاعدة الذهبية في نظري المكتملة لـ «أعرف نفسك».

تتن من جديد دون أن تفتح عينها.

أناملها في النور الخافت. اللعوج تسيل حل وجهها كمن يثني في كوكب الأحرار مغمض العينين لجرى جيداً في الظلام يعني الروح وجسده مرص كالخرقة في كوكبنا الوث: كوكب الظاهر الترابي العابر. . .

ألتهم منها حل رؤوس أصابعي. تفتح عينها وقد أجملت مدهورة. أحتو عليها وأعطيها مدبلاً ورقياً لتسبح به اللعوج عن وجهها وأعتمد بعبارات تطمئنها وتساعدنا حل زيلة ولو نصيرة إلى جزيرة الشبان والسكنية.

أنامل وجهها الذي يكاد يبدو مساً وهي تحاول التوهم من جديد وقد أغمضت عينها. كم تبدل ذلك الوجه ولم يعد مشعاً بالصبا والأمل والفرح وحادث ذلك اليوم من إجازتها في شبال أفريقيا وقد ازدهر جمالها كما لم يزدهر من قبل وقالت لي بالعربية ببساطة: لقد تزوجت من الصافي. . . . فقلت لا لأنها تزوجت فهذا يحدث كل يوم ولكن لأنها تكلم العربية، وأنا التي كنت أظنها فرنسية أباً عن جد.

فوجدت أيضاً بأن شعرها الذي طال يبدو عند منبه فاحم السواد كشعر العربات وكنت أظنها شقراء.

لم تتطرمي استفسراً بل سارحت تشرح الأمر: أنا عربية الجنسية ولدت في فرنسا وأمي فرنسية. اسمي الحقيقي زكية. أمي تانيي خلوريا وأبي يتانيي زكية فهو عامل منجم في شبال فرنسا واسمي كما سيجلوه يوم ولاقي زكية/خلوريا.

أمي تكلمني بالفرنسية وأبي يكلمني أنا وأخوتي بالعربية. تقاعد أبي بعد إخلالي للشجم ولكن أمي رفضت أن ترافقه إلى بلده في شبال أفريقيا كما رفض

هو دائماً التخدم بطلب لتبيل الجنسية الفرنسية.

تذكرت أنني كنت قد شاعنت أمها التي ما زالت جميلة وأنيقة برفقتها في مدخل البئر، ولحمت معها بومضة عجزاً ماكن الملامح نخرته الأيام. لآكته كحطمة من التبع وبصلته نحيلاً ذائلاً ساكلاً كشابة بلرقة في ثياب رثة وهو يدخن ويسجل بركة تصغر كأنها مقبوبة. بدا لي رجلاً مختطاً منذ حضور ولكن بعينين تشعان ضوءاً مظلماً.

فلكل اليوم يدت غلوريا فخوراً بأنما وحين ساكتها عن المعجوز لمجاعت سؤالي وثابتت للقديم أمها لي.

ساكتها: هل كان ذلك الرجل الشعب الذي شاعنته ذات يوم برفقتك وأنتك هو والدك؟

هزت رأسها بالانقياد وقالت: عمله في التجم من صفره أحرق ريشه. إنه مريض جداً وبالحق المتاء ورفيقه لطلب الجنسية الفرنسية جعلني ألتقي وأخوتي السبعة من وطننا كمنهجيين، ولو رضى من زمان بأن يصير فرنسا لوفد علينا الكثير من المشقات. . . وقد تقدمت شخصياً بطلب خاص بي لأنال الجنسية الفرنسية ومن ثمة ليتألف الصافي فهو راجب في ذلك أيضاً. لقد رافقي إلى باريس وقيم معي الآن في شقي. لديه الكثير من الصلات والأصدقاء في فرنسا وسيلتبر عملاً بسهولة وهو ميسور الحال ملياً كما قال لي.

- كيف التقيت به؟

- في الحرم. كان الصافي يلقى على (الطيلة) في الحفل القروي الجميل على شاطئ البحر الدافئ. وحولي وجوه مرسومة بالكحل والحناء والوشم والأبصانات والأقوال والخيالات وحرارة القلب. وقعت في غرامهم مرة واحدة ولم يحدث لي شيء كهذا من قبل. . . يا لها من قرية. . . انظري كيف (حوصت) بشرى. . .

- أية قرية؟ أي بحر؟

- قالت لي أنني رافقي يا غلوريا إلى غلاتك في دوليل القضاة إنجلترا على على الشاطئ. قال لي أي رافقي يا زكية إلى لريتي للقضاة إنجلترا على

الشاطيء الدافئ.

وافقت أي فقد أقراني بالدفء والشمس. أقمنا عند حمي وراقبتها إلى العرس.

لم يحدث من قبل أن اشتعلت بالسعادة هكذا، واستغف بي الطرب فدخلت بي حمي إلى الرقص العربي مع البنات، ولم أكن قد شاهدته من قبل إلا على شاشة التلفزيون في اللام اللب ليلة والبلد...

طلني الجميع وصقلوا لي وشعرت أنني مهمة في قرية أي لا مجرد رقم خلفية إضافية في باريس...

كانت تلوث سعادة وتحدث بسرعة خارقة بلهجة عربية حامية ذات لكمة لا تشبه العامية اللبنانية وكنت أنهم يصعبون ما نقوله...

أضافت: لاحظني الصافي وقد غني في البداية فرنسية. انسحبنا إلى الشاطيء للمحطات بعيداً عن الأعين، وكنت أمتعه نفسي كما أقبل في باريس حين أقع في الحب دوناً لتطيدات، لكن حمي لحظت بنا وكانت بالمرصاد...

وضع أي يده على الحكة وزوجنا على يدي الشيخ! وما أنا عاتقة ومزوجة وسعيدة.. وأي أكثر سعادة مني وهذا يفرحني... يبدو أنني كنت أحب أي أكثر مما أظن...

.. ما الذي تعرفينه عن الصافي؟

.. لا شيء غير أنني أحب.. وأنه يفتش عن عمل. وأنه يفي أيضاً بصوت جميل ويومد باستمرار أغنية وسجل أنا عربي، وقد تعلمتها منه..

وقبل أن أقول لها إن أغنية وسجل أنا عربي، هي قصيدة شعرية جميلة لشاعر عظيم في باريس، فاطعتني وهي تفيض سعادة كجدول وحوارت تنشد: سجل أنا عربية.. سجل أنا عربية... واسمي ليس غلوريا بل زكية... أرجو أن تنادي من الآن فصاعداً باسم زكية...

.. حاضر يا زكية يا عربية!...

سبح وعام الحيام وهي تنشد: سجل أنا عربية..

أينهي العودة إلى التيم . تعود زكية/خلوديا إلى أيتها . ما ألتني يوجعها؟
أي شيخ تحولت عنها أوضاده أو التخليص منه؟ أعرش شيخ الصافي بعدما انكسرت
حكاية الحب سريعاً كسقوط شهاب غابر... رجعت ذلك المساء القسافي
للعمل وهدت منارة . قلت لها : ماذا بك يا زكية . أجهلت بالفرنسية : واسمي
خلوديا .

أدركت أن كثرة ما حلت عندها .

قلت لها إن البيت نظيف ودعوتها لشرب القهوة . جلست شبه عدوانية
كما لو كان كل عربي حليفاً غير مبالي للصافي تماماً مثلاً زاد حبها لي دولاً مبرور
منطقي أيام الشباب طرامها به .

استخرجتها يده غير مصطع ولكنها رفضت أن تحيي بالعربية على سؤالي
عما فعلها وقالت لي بالفرنسية : إني حامل . الصافي يضرني . كنت الجنسية
الفرنسية . الصافي رفضوا اعطائه إقتا بالإقامة لأكثر من عام لأن الكثيرين من
العرب يتزوجون من فرنسيات بهدف الإقامة لا أكثر . ما زال بلا عمل يقضي
وقته في إلتحاق رائتي على الخمرة وتدخين الحشيشة في شقي كاثور المالح . يلعب
باريس ويملك كل ما يوسعه للبقاء فيها . لا أصدق له هنا وليس ميسور الحال
كما ادعى . إنه هارب من القفر ولكنه لا يرحني ولا يرحم نفسه . يضرني . ثم
يشعل ويهي : سَجَل لنا عربي . إني لدمعة على الزواج الذي فرضه الوالد
والقيلا وأريد الطلاق . إني لم أخلف إرادة أبي .

- ولكنك أحييه .

- أجل ! لكنني لم أكن مضطرة لهذا الزواج لولا رغبة الوالد... .

كانت تتكلم وتتعب وقد انتشرت في وجهها اليبيل يقع زرق دافئة كما
على نراصها . ومع ما يجب يقلل لسمعة ألقها . ولذا لم أجز على أن أقول لها إن
بعض الرجال ما زالوا يضررون لسانهم في كل مكان وإن ذلك لا يقتصر على
الرجال العرب .

تركتها تفرغ جعبة ألها : إنه يستولي على رائتي لكنه يتقدمي بخطوة حين
تشي معاً يشمني لأنني فرنسية ويقل نفسه للبقاء هنا . بعدما ضربي طردته

من البيت... إنه متالف، متسلط معي وقليل مع من لا يحبه! وغرق ذلك رطحي مفادرة بيتي حين طردته، وقال إن أمري لم يعد في يدي والرجل في يلامنا بفرور وحده متى يطلق المرأة ومتى يجبرها. لقد تحول هذا الزواج إلى إهانات واقتال وخرب يومي في وارغام على العمل في بيوت أكبر عدد من الناس لأعود إليه بالمال وهو يمشي وبذلي وينشد: سَجَل أنا عربي... ثم صرت أعتق هذه الأخيرة... أنا فرنسية ولا أريد أن أكون امرأة عربية ولا أريد الزواج عند الشيخ، وكلنا أعالي غيت لأخبطه: سَجَل أنا لست عربية.

تأملت يديا. كانت آثار الحنة قد تلاشت... كم كانت المسكينة سعيدة بالحنة يوم عودتها من هناك وروت لي بفخر أن صلبها القوية زين بها قدميها ويديها ثلاثة لحظت كمن يرسم لوحة ورشحتها بماء الورود ويطبخها بالخرير وزقتها بدفء القلب والأعالي والفرح، وكمن يرقص في جنازة على حد تعبيرها!!

تابع: بريني الآن أن أضج (التولار)^(٩) الإسلامي حل رأسي وأنا أريد الطلاق والحلاص منه. (ذهبت حناء الفرح وأحلام الصافي بالجنسية الفرنسية والمال والمجد تساقطت كشرة الفدان اللطيف وظهرت مستنقعات التناقضات والاحتقار الضمني للمرأة، وانقضت صيف الأمان وجاء حريف الحقائق والوحشة.) هكذا قلت لنفسي صامتة كي لا أزيد في أيلامها.

أخرجت من حقيتها فاثورة هاتفي وأرتني إياها وأنا يوم يطالبونها بمبلغ بوازي والتيها لثلاثة أشهر عليها أن تدفعه أجرة مكالمات هاتفي أجراها الصافي مع أمه لأنه يشعر بالوحشة!

سألتها: ورائدك؟

قالت: والذي المسكين مريض جداً... وعندي كعاهته ويريد هذا الزواج اليائس أن يستمر. طلب مني الصبي. مهمة المرأة في نظره أن تتحمل من زوجها كل شيء. إنه زواج حتى القبرا

ثم سألتني منهمة كما لو كنت مثلة للأمة العربية: لماذا تعاملون المرأة

(٩) التولار: نسبة لفظ التراس (الإسلامي) في فرنسا.

هكذا؟

كنت أعرف أنها تحب والدها وتحبيل به لي آن، ولكن ارتباطها به حقيقي وإن كان متخفياً. تركتها لتزور وحدها وكانت في جلستها تلك تتحدث بالفرنسية وتقرأ إذا طرحت سؤالاً بالعربية وتظهر بعدم الفهم وترغمني على تكرار السؤال بالفرنسية. بدت مثقلة ومعبدة.

بعد زواجها كان صلياً أن أنظف البيت بقضي بمساعدة شقيقي الطيف زوجي الذي لم يكن بعد قد هجر قسوته الطبية لكن لم يسألني أن يلومني لأنني فعلت ما أجبرها وهي التي لم تعمل شيئاً بدلاً من إعطائها ثاقورة بأنني كمشرقة على حياة غسبية!.

الغدوة يتهم على بيتي. غلوريا الزكية قد غرقت في نوم عميق.

الساعة تشير إلى الرابعة والنصف. أحاول أن أفرق في النوم مثلاً وبينما يأتي الصباح والتحدثني عن شبعها. أمر الصافي أم والدها أم شخص لجهل؟ هل تحب ألباحها الموسيقى الكلاسيكية أم أن الفرع على الطيلة يستدعيها؟

بالرغم من حياتي مع الألباح أجدهم أعرف القليل عنها. بقضي البعض أنها تحب ظلام الليل والضياب والذهاب. وهذا ليس مؤكداً. ربما تعرف هذه الأشياء مشاعرنا، ولعلنا لا نلاحظ وجودها إلا ليلاً لأننا نفرده بأنفسنا ونجسمها فتصير أكثر قدرة على ملاحظة حضورها.

أنا أقضي أن بعض الألباح تحب الموسيقى. حينما أتحدث إلى شويان مثلاً أعرف أن شبعه حاضر في الغرفة يرقب أثر موسيقاه على وجهي وعشرات الألباح الأخرى التي جذبتها ألسنة.

أزعم أيضاً أن الألباح تحب الاطفال ولكننا نختونهم منها. أظن أن للألباح أمزجة كالشعر ولكن شبح ما يبه ويجهل.

زوجي الطيب مثلاً تحبه كهزب حزبي، وأحسب الآن حضوره في غرفة لومي وهيب رائحة عطره «أراميس». وإذا أصابت النور في هذه اللحظة بالذات سأجد على الوسادة الخاصة به زهرة «ورالده» أو بنفسجة أو «هافسيه» أو ليد وردة

صغيرة جداً ولطيفة مثله، عاتقة ومتواضعة في آن... .

لعل الخط الفاصل بين المولى والأحياء في قلوبنا ليس مائياً إلى المولى الذي يحب البعض أن يتوجه.

ثمة أحياء في قلوبنا ماتوا من زمان وأموات وأهلنا ما زالوا يتحركون حولنا مثل ذكرى حزينة لما كانوا عليه ذات يوم قبل موتهم غير المعلن في أحيائنا... .

بعد مفارقة زوجي لغرشاته الطينية (ولا أتكول موته) وعيت أن الخط الفاصل بين المولى والأحياء وهي كككل ما يحب أن نذبحه حساساً وقاطعاً في حياتنا... .

صرت حين أذهب إلى التدريس وأغادر مترو (جورج سانس) وأمشي في الشاترليزييه أَسْأَلُ: كيف أميز الناس من الأشباح بعد اليوم؟

هل لولئك الذين تراهم في الشوارع ويخطف نواخذ البيوت وفي الطائرات والتفازات هم كلهم من الأشباح أم من البشر؟

هذه السيدة المسنة بزيئة من سنوات الخمسينات، الجالسة في المقهى، هل هي حية أم ميتة؟

أعرب إلى التدريس وأعمل طوال النهار وحين أخلص من نواف وأعود إلى وكري أُنصت إلى الموسيقى وأكتب داخل رأسي رواية جديدة إلى أنشباحي عن أنشباحي.

وَأَسْأَلُ: ألا تحوّلني الكتابة إلى حفرة لأرواح حيث يستولي الأشباح على حنجرتي ويقولون كلمتهم؟ أليس الأديب هذا القمعي مجرد وسيط ووسيطي بين بطل القصة والقارئ؟... .

يا إلهي كيف أنام الليلة؟ وهل كان على زكية أن تختارني من بين الناس جميعاً لتنجأ إلى بيت أنشباحي، بشبحها، موقفة على بابي مرة واحدة؟

عبثاً أنام... . بينا غرقت غلوريا الزكية في النوم فيما يبدو، ها هي تدخل الآن إلى مستشفيات متحركة أشد غموضاً اسمها الأحلام والكوابيس مسكونة بالأنشباح الذين تعرفهم أو لمعرفهم. لعلها لا تدري بعد أن كل لولئك الذين تراهم في أحلامها ولا تعرفهم هم أنشباح لشخص حقيقيين.

ها هي تنن كأن كهارب ورحية سرية تلقها كضبابة وهي تشاجر داخلها مع نفسها وألباحها في أن .

الآن لغة تكفيها للمحاور وليست بحاجة إلى الكلام لأنك لتقول ما تريد للأرواح التي تحيط بها وتعديها شيئاً فشيئاً تفرق في الصحة مثل قطعة خبز تضي حتى قاع البحر . أحياناً أكلم شيخ زوجي الأصغر الرقيق الملب لا يسمني بل لأصبح أنا صوتي الذي وحده يرحلي بملأ الأحياء أو الذين يترحمون أنفسهم كذلك .

ها أنا أترقئ تدريجاً إلى قاع البحر . أرى جرداًناً يحجم البشر في الشوارع تعرض المائي الحقيقة والجديدة معاً .

أرى قطعة بلد غراً وثراً وسجاجة وأخس ونطاً من بطن واحد . .

استيقظ مذهورة : كيف مستعابش معاً ؟ ولكن لماذا تعابش ؟ لماذا أي شيء ؟ ما جدوى أي شيء ؟ ما جدوى شرح الحلم الذي ؟ ما أصعب محاولة شرح أي شيء حتى لنفي .

صوت غلوريا / زكية الذي يش بصوت عال هو الذي أيقظني بالتأكيد . لا نوم الليلة غيا يبدو (جاءت غلوريا ياكية : لقد نمت وأجهضت طفلي . لا أريد أن أرافقه إلى هناك كما يأمرني لطيف الآله في . كلها طردوه من إحدى الدوائر الرسمية هنا عاد إلى البيت ليهرقي بوحشية . صار إنذالي منته وأعطى إن أنجبت طفلاً أن يحفظته ويحده به إلى الوطن حيث كل شيء يحبه ليجرد أنه فكر . حين تزوجت كنت عاتية القلح من ذلك كله أحلم ببلدي في حكايا أبي ووقعت في غرام الشفاء والبحر والناس الطيبين والقولكطور ولم أكن أعرف أن واجباتي كأمه أكثر من حقولي .

إذا رافقه إلى هناك وحملت جنسية بلد والذي سياتي سيصبح قانوناً على منعي من السفر ومعاشرتي مرغبة في بيت الطاعة والزواج من حديدات إلى جاني . أمي شرحت لي وضعي القانوني وللمهمتي أن مصلحتي كأمه تحتم علي أن ألتصق بفرنسيي وأهرب من كل الرضا بأن أصبح عربية بملأ الصال . .

تحدثت من عملية الأجهاض فوجدته مرق في الثياب الجميلة الملونة كلها

التي سبق وأسلمتني إليها أنت وبقية السيدات في الليلين اللذين أحصل في خدمتهن. حطمت في الخلف والتذكارات التي سبق أن حملتها معا من بلدنا وعزق في بطاقي الشخصية الفرنسية وصوري وكسر التلفزيون والأثاث وحلقت الألبس كله الذي يستطيع إحداثه في شقي، عقاباً في لأنني شكوت إلى البوليس ضربه في وجهات إلى القانون الفرنسي وطلبت إخراجته منها، فإيجارها باسمي وأنا هنا مواظبة في حقوق كلتي ذكر مثله.

تقدم علمي بدعوى للطلاق.. وجاءه الأمر بإعلاء شقي فحسبكم كل شيء قيل فاعبأ!

قلت لها في محاولة لتذكيرها بوجهه الآخر: لكنه لطيف وبعث عذبة. لم أطلب منه مرة خدمة إلا وجبّ لتفديتها من ثقل للأثاث أو تكليف بشراء الأغراض.

تجيب بحرق: إنه حكيماً مع الغرباء.. لقد حطم الثالث بيتي عقاباً في لأنني طلبت الطلاق وجمأت إلى البوليس لطرده. لو شاعدت وجهه حين علم أنني أجهضت قبل ساعات وورقة التجارة المسية قطعاً تم إحراقها. لقد جن جنونه حين فهمت أن كل شيء قد انتهى بيتاً، ولم يعد يرميه أن يلقي يده الآن ليجرد أنني عربية مثله.. هل أستطيع البقاء هنا قليلاً ريثما يعاثر ليلي؟

تركض حكيماً داخل رأسي.. أتعجب.. كزلق تدريجياً إلى بحر ما..

توقظني زكية/خلوديا: قهقهة يا سيدتي.

(لعل طرقت في النوم. كم أنا مظلمة هذا الصباح. يا أفي. ما تزال الساعة الخامسة والتعصف. ماذا تريد الآن مني؟).

تقول وهي ترتجف: الشيخ موجود في بيتي الآن (إن لم يكن فهو يحس بكهلوب حضوره ويسالاته النفسية المتدفقة كالشلالات حتى هنا). تتابع: كنت أراه وأنا نائمة يدور في البيت غاضباً.

- شيخ من؟

- لا أدري. إنه شيخ غاضب هذا كل ما أمره.

- دعينا نشرب قهوتنا بهذه أولاً . وأعدك بمرافقتك إلى شفتي لأنت لك أن لا أحد هناك .

استأسل : أعر شبح الصافي؟ هل هو أول أشباح حياتها وما الحب إلا للشبح الأول؟

تلع حل أن أرافقها إلى غرفتها لأرى ما يدور . الحفقاء تريد شهوتاً على شبحها لتصدق أنها لم تحن . إنها لا تدري أن لقاء الأشباح هو بداية النحس .

إنها مذهورة من أجل ما يحدث لها وإنما تألف أشباحها كآلة مبتدلة . على هذا النحو تقع الأشباح لنا جيماً فيما يدور

تسبح قهوتنا معاً وأنا أكاد لا أقوى على فتح عيني .

انظر غلوريا/الزكية إلى وجهها في المرآة بلعمر وتقول : يا لقي! سبراج سبرج هكذا الليلة . إنني أبدو كجثة .

- ومن هو سبرج؟

- إنه حبي الجديد ولكنني لن أتزوج منه . لن أتزوج من عربي بعد اليوم . ما زلت أرفع حتى اليوم أتعاب المحامي أفسطأ شهيرة من رائي وتكاليف دعوى الطلاق من الصافي . تأميتك من فواتير المكاتب وشمع الأثاث الذي حطمه لي . إنه لم يرض بطليلي إلا بعدما دفعت له كل ما سبل والتصديت من مال . هذا ليس عدلاً وقد ندمت لأنني سمعت رأي والذي بالزواج منه بدلاً من صلة حرة أنصرف خلالها عليه .

- وهل سبرج عربي؟

- أجل ! اسمه الأصلي صلاح الدين لكنه يتركه إلى سبرج حين حصل على الجنسية الفرنسية منذ أسابيع . والله من قوة والذي يؤمله في التجم وفي رفض الجنسية الفرنسية . شقيق متزوج من ابنتي الكبيرة منذ عشرة أعوام وأسرت به ما نزال نقيم في الشك في القرية فلما حيث ولما هو وأنا وظلت نقيم فيها أسرنا حتى بعد إغراق النجم . هو يصغري ستاً بعلين .

- إذن أحبيته عربياً للمرة الثانية؟

- لم يحضر بيالي أني سأحب عربياً مرة ثانية لكننا لا نخاطر من نحب .

أليس كذلك؟ لست أنرى ما الذي يجذبني إليه ، والمهم أنني تعلمت الدروس ولن أتزوج .

سأنتحب أطفالاً بلا زواج وبذلك أحفظ بحق حفايتهم في حال الفراق .
ولا أريد التدخل في شؤونك لكنني لا أرتاح لفكرة إنجاب الأطفال دونما زواج . للأطفال مسؤولية واضحة أيضاً . لا مفر لنا من حل نحن النساء ضد اضطهاد بعض الذكور غير إنجاب الأطفال بلا زواج . أشعر بالحاجة لقول ذلك لها وأقرر إرجاء بحث الأمر إل مناسبة أخرى .

بالرغم من أنني لست عنصرية ، لكن كونها عربية معقدة وحائرة يقرّبها مني . لقد قلنا حضرات مشتركة بمعنى ما . .

تتابع قائلة : كان من المفترض أن يأتي سيرج الليلة لتقيم معاً في شقتي . لم تجرؤ على ذلك أبداً كان والدي سياً لأنه حين علم بما يدور غضب من صلي به . شتمني ولمعني قبل موته منذ شهرين لأنني أعانثر سيرج (بالحرمان) . وحين علم أننا نتوي الألفة معاً حل الطريقة القريبة والانجذاب دونما زواج حاج وواج واضطربنا للاحتفاظ بعلاقتنا سرّاً ، لكنه كان يعرف ما يدور بيننا . .

.. وماذا قالت أمك؟

.. حاولت اقناع أبي بأن من حفي أن أعيش كأية فرنسية أخرى من جبلي . حلقة عن الزواج ، وأني لست أفضل من أميرة مولايكو ستيغاني التي أنجبت طفلين من (عشيرة) كما مئات الآلاف من بنات جبلي . لم يقتنع بأن الزواج اختراع رجائي يفترض في فرنسا . .

.. وأنت ، ألم يخطر لك أن يوسعك الزواج من صلاح الدين على أن تطلي
إن تكون (المصحة) بيذك سلفاً؟

.. ما معنى ذلك؟

.. معناه أن يوسعك تطليقه حين نشأين مثله تماماً .

.. لم يقل لي أحد ذلك .. لا لي .. ولا الشيخ .

.. إني أقوله لك .

.. لا أريد التفكير بالزواج من عربي . لم أكن بعد ما قاسيته مع الصلياني .

لقد جاء ذات يوم بغاية إلى شفتي وقال إنه يريد الزواج منها وسيرفضي حل الإقامة معها وهذا حق، وإنني سأكون واحدة من أربع نساء. اتصلت ليلاً بالبوليس فجاء وطردهما. بوليس بلده لن يفعل شيء، فاته لو كنا هناك وأنا لا أستطيع أن أقبل ذلك الإذلال ولست مضطرة علي عملي وثمة ثراوين عصرية هنا تحبني ولن أدخل متاعلات ثراوين ظالمة لا أفهم فيها ولن أوح أحداً بدمر حياتي بعد الآن .. سيجلي: أنا لست عربية!

.. ولذا لم تلبي وسرج ممأ ليل الآن بعد وفاة والدك؟

.. لا أعرفي ..

.. هل الشبح في بيتك هو السبب؟

ربما. لم أجري على أن أكلم سرج عنه. ظننت أن يترحم أنني مجنونة .. ثمة من يعت يا شيتاني .. يكتب لي بأصبع الشفاه عبارة وسامعراء على المائدة بالقرصية. يفتح غطاء زجاجة العطر التي أهداني لها سرج ويدلفها. يفرج معجون أسناني من أنبوبة ويوشح به للكان .. يرمي بالنيل الآخر على جدران البيض فيلطمها بما يشبه الدم .. ونحن ننام سرج عندي في عطلة نهاية الأسبوع تحدث أشياء صغيرة غير سارة لأحيانها، كأن يقطع أكثر من ذواي معطلة، وتسمو التقرب في جوهره الجفيدة، وتضيق مفاتيحه ويخرج نفسه أثناء الحلاقة أكثر من المعتاد ويسخن ماء الحمام بصورة مفاجئة فيحرقه وإذا (الندوش) .. وغير ذلك من الطوائع ..

أنصت إليها بحدري (أرى هل علي أن أنصعها بالذهب إلى عبادة طيب نفسي؟ تراها مريضة وتقدم بنفسها حل تلك الأمور كلها في نوبات غاضبة ولا تذكر ما أتحدث عليه حين تصحو؟ .. لعلها مصابة بالشحور بالذهب .. لعلها تسرق لسبب أجهل ووحده الطيب يستطيع اكتشافه)

تقول لي: أقسم لك أنني لست كاذبة. أرجوك أن تصدقني: ذلك كله يحدث في شفتي وأكثر منه. قميص النوم الجديد الذي اشتريته للاحتفال الليلة بحضور سرج للإقامة معي وجدته البارحة مساء ممزقا.

كان حضور الشبح كثيفاً في الغرفة، أما لوح الزجاج الذي يفترض أن

يعني من أنوية مصباح والفالوجين^(١٠) المضيء فقد انفجر فجأة قطعة واحدة وتطير في جو الشقة زجاجاً مطبوعاً خالياً كأن قوة خاضعة سقطت . .

- هذه الأمور تحدث مع ذلك النمط من المصباح . ألم تسمي بالتحطير من ذلك؟ هذه ظاهرة علمية لا غرائبية .

- أجل ولكننا حدثت دون أن يكون المصباح مضطرباً حدثت في لحظة شعرت خلالها أن في شئتي حضوراً غائباً مطلقاً عالياً . . لا أعرف كيف أصيب لك ذلك . . إني أعرف أنه هناك وكفى . أرجوك أن تصدلي ما أقوله لك . ثمة شبح في شئتي وهو يعتمد القيام بذلك كله ولا أعرف لماذا .

- هل شاعدت وجهه؟

- لا . إني أضيء حضوره ولا أعرف من هو أو من هي . إنه حضور لا جس له كالروح . . أو هكذا أزعج نفسي . ثمة لحظات يجيل إليّ فيها أنه الصافي ، لكنني لست واثقة من شيء . .

- ما تثيره هياجه الكبير ليلة البارحة حين تحدثت إلى البيت في نظرك؟

- لا أعرف .

- هل تعرفين أنه لن يفارق البيت إلا حين تكون سبب حضوره وتحاولين قهرهم لإرادته؟

- إذن تصدقين أنه موجود؟ أرجوك أن تصدليتي .

- لا أصدق شيئاً ولا أنفي شيئاً . ولا أفسر شيئاً لذي لأي شيء . أعرف أن أصدأ لا تدري لماذا وكيف تقع هذه الأمور . ثمة حراس كثيرة أصدقها الله علينا لجهلها ولا تدري لماذا تنشط أحياناً وتصير أكثر وهالة والحدة هل رؤية ما لا نرى أو استشعار حضور لا نعرف .

أعرف أن التخاطر حقيقة . وتحريك الأشياء عن بعد بفعل قوة داخلية يتقن البعض استعمالها حقيقة أيضاً . وأعرف أن العلم أثبت وجود العديد من الظواهر الطبيعية المخارقة وما زال يقتش عن تفسير (حقلاتي) لها ، فمعين طاقتنا

(١٠) الفالوجين: قط من مصابيح صينية تشبه الانصباب في باريس .

العقيلة المحدودة على فهم هذا الكون الشاسع المليء بالأسرار... التناسخ
والانتمسك من الظواهر للقلقة إلا أبت العلم وجود حالات لا يمكن تفسيرها
بالمعنى... وكذلك...

تقاطعتي تصف مذهورة: منذ بدأت علاقتي مع سيرج بدأ هذا التسبح
بتسلسل إلى حياتي. أظن أنه شبح الصافي، ولكن هل للأحياء تسبح؟ تراه مات
دون أن أعرف؟ كل ما أعرفه أن سيرج مثلي غير متحمس لمحاكاة الزواج كمعظم
أبناء جيلنا، وإن القتل عن موقفنا هذا موقفاً من شبح، ولا أريد الزواج منه. إن
العلاقة الحرة والتكويرينج^(*) تمنحني حقوقاً أكثر بكثير من تلك الشرعية التي
يريدونها لي. فلم أقتل عنها من أجل شبح؟

قلت لها: ولهذا لا نطلقين أن يكون حتى العصمة في بلدك وتزوجينه مثلاً؟
.. ما فائدة التكتوب على الورقة إذا عجزنا عن تنفيذها؟ أنت لم تقامي ما
قاسمته وشيأ حصلت على الطلاق في باريس، وأنت وحده تعلم كم كنت ساقطتي
لو كنت في بلدك ولي طفل منه. لم يقل في ذلك أحد في أي يوم. حلقهم هائل
شعدي. وحتى لو سجلت كل ما أرتب فيه في الورقة فلن يأتني بها أحد هناك. لا
يا سيدتي. سجل أنا لست حرة..

فلورينزا روكيا ترجو أن أرافقها إلى شقتها لأرى بعيني أنها ليست كاذبة.
بضمري خاطر غير موهج: ماذا لو كانت مريضة بالهوس، ولم أجد في شقتها شيء
كما تحدثت عنه، وهددت ليقي مع صبة تسخر مني دون أن تدري؟
في المصعد تقول لي: ليس بوسعك انهامي بأنني أقفل في شقتي ذلك الأني
ككله، فالشبح يوشح الأشياء أحياناً بأشياء غير موجودة في غرفتي كهدايا المعجم
الأسود على باب التبراد الأبيض.

تفتح باب (الاستديو). لدخل. تردد أمام الحية وتقول: إنه هنا...
أشارتها الشعور ذاته. أحس بحضور غامض يجتلبني إلى الداخل.
أعشي كالنومة. أدرس الزجاج المعظم لمصباح المثلوجين على الأرض.

(*) التكويرينج: على الطريقة الأوربية المعاصرة.

أسمع صوت انسحاقه تحت ثعلبي ولا ألبس. (الغرفة) تجذبني إلى الداخل، إلى الشرق الصغيرة. لا أذهب إلى الحمام في المبنى الضيق قرب الباب لأتحقق من التفاصيل الصغيرة التي رويتها. القوة تدفعني إلى الشرق بالذات، إلى الضوء وليس إلى ظلمة الممر الذي لا تائلة له.

عل الشرق يميل إلى أنني أرى رجلاً جالساً فوق أرضها معلقاً بين عيوب الضوء والظلمة الفجرية، وأمر فيه العجز المتخوف الذي سبق أن شاعته في مدخل المبنى: والد زكية!

أحس في وجهي برغبتين متضادتتين ضوئاً مطلقاً ولا تخفوان من التوصل الأمر.

أسمع صوت زكية يقول من الغرفة: لا أعرف لماذا لا أذهب في حضور سيرة الليلة للإقامة معي... ربما كان عليّ تأجيل ذلك قليلاً...

الرجل ما يزال يحدّق في وجهي بعينين متعبتين مليئتين بالتمسك، ويبدو بنحوه داخل ثيابه الفضفاضة ضاملاً تحت عباءة حربية عسكارية حلقوا فوقها جمجمة بعينين للخصب الأسبان... أحس سائلة: هل أنت الذي بعثت بها إليّ؟ لماذا اخترتني؟

شقة شفرتان حداثتان مطبقتان تلتصقان في كثير الفجر البارد.

تصل ظنوني/أزكية إلى جانبي وتقول وهي تعلق صوته ولا تراه فيما يبدو: أشر أن الشيخ موجود في الشقة ولكنني لا أراه...

يلعني أنها تحسني فيه ولا تراه...

أقول لها دونما صوت: أما أنا فأراه...

نعود إلى الداخل لنهتف إلى سيرة وهي تقول لي: إنه حامل بناء ويلهب بالمرأ إلى عمله. أمل أن لا يكون قد غامر غرفة... سأقول له ما احترمت عليه.

أحس الشيخ: أمك بأن أحاول... مساعدتها... عل أن تراك!

١٩٩١/٨/١٨

الساعة ١,٤٥ ليلاً

زائحات الاختصار

تري ما الذي يحدث لنا خلال
هجرة الاختصار؟ إن أحداً لم يرجع
ليقول لنا...

آزميتك ابيض

بينما كنت أظن أنني أعلم كيف
أحياء كنت في حيلة الأمر أعلم
كيف تموت.

ليوناردو دافنتشي - ١٥٠٨

لماذا لا يتعب المختصرون؟

ماكس فريش - ١٩٦٦

يوسع المرء أن يملك شخص نفسه
نفس الأم والعزيزي والأحداث
المشاهدة. أما حين يتعلق الأمر
بالموت، فليس يومنا تموت إلا مرة
واحدة. كلما تأملنا زبلا شجرة حين
يتعلق الأمر بموتها.

مونتكين - ١٨٨٠

زائحات الاختصاص

سيارة الرولرروس تتوقف برزيف أمام شارة المرور في جادة الشانزليزيه الباريسية . يتعلمه القارة بكثير من الحسد لكنه للمرة الأولى لا يمثل به فخرأ وشاورأ بل سطة طلة حلم يا من زمان في بلة الثانية في قارة أخرى حين لم يكن يملك أجرة (البايس) إلى العاصمة .

يسوي جالسا في المقعد الخلفي الوثير ليجيب عل وئين هاتف السيارة . يحمل بيده الأخرى كلسأ من الكرسيال في قعره كثير من الويسكي المعتق . ساقفه بتعلمه بالقبعة الرسمية والقفازات البيض .

تأمل وليف سائحة حسناء بعينين ليهيا نداء ، فينزوي في ركن السيرة مثل بحارة حية عصروا عليها قطرات من الحانقش . (فلك الصياح الحارة قالت في أسي يوجهها المنك التظيل الزئر بمشيل أبيض ناصع يغطي ظهرها حتى في البيت : لم يبق لدي من حل غير هذه الأسورة الذهبية . ساقصب خذا ليهيا ، وسأحصل لك عل القسط الجامعي .

كان أبي القدير قد مات مبكراً . قصصته حتى إثر ليلة قبل أنه قضاه في الحفل يحمل لأنه لا يملك أجرة من مساعده . قيل ألهأ أن مرضه يدهس القم . وباعت أسي ما فوقها وما تحتها وحطها الرثة ولم يبق لديها غير تلك الأسورة الأخيرة .

قلت لها : أعطني الأسورة . سارحها ولن أبيعها . وسأندبر الأمر منذ الآن فصاعداً .

قلت مدهورة : لا تتورط في الناحب مع رلفة السوء . لا تخالف القوانين . .

قلت لها : لا تخافي لن أخالفه ولكن سيأتي يوم أشن فيه القوانين تصاخي .

لم تفهم وسألني : ماذا تقول ؟

لا شيء . . . وكل شيء . .

سيارة البرولزوروس تقطع ساحة (الايوال) متجهة صوب (أنتو فوش) أكثر شوارع باريس ثراء وفخامة حيث يقم أصحاب الملايين في قصور حصينة.
(هنا ما أبدأ هذه التحفة... شملت كارولين، مطلقتي الأخيرة يوم شاهدت لصري الباريسي للمرة الأولى قبل زواجنا.

كانت شابة تتحدر من أسرة فرنسية عريقة وتعرف كيف للدم لوجاني وتحمي وأثني العريق ربما أكثر مما ينبغي، ولذا اشترطت في عقد زواجنا أن لا تنال شيئاً منها في حال الطلاق فاعيك عن ثقافة هزيلة. ورغم ذلك كله هجرني بدلاً من التمسع معي بذلك كله. أه النساء. لقد عشقتهن دائماً ولمحبن كل شيء حتى أسواره لني، ولكنني لم أفهم يوماً أسرار التعامل معهن.

في لثقتنا الأخير كصديقين في (الكوت دازور) حاولت عبثاً إقناعها بإعادة أسواره لني في مقابل أي مبلغ تطلبه ورغبت وبغيت غاضبة وتدمعورت بها السيارة المكشوفة في البحر ولم يجد أحد جثتها ولا الأسواره).

وتوقف هناك بأمر وثيف سائقه. فسألتني قليلاً صوب البيت).

يصبح الأمر متعلماً يضع كليات حول «الاحداثيات الأمنية» في جملة غير واضحة وهو يفتح له باب السيارة ويرفع قبعة. (الذين لا يربطون قبلي يشبهون احتطائي للحصول على قذيفة. ليس من السهل أن يصعد المرء من «زقاق الشوارع» في بلدة «الملحمة» المجد بالطين والقدم الخطة والجناب إلى «أنتو فوش» دون أن يجمع كمية كبيرة من الأعداء، ومن أصدقائه الأمن الحساء الذين يرون لشظهم داخل مرآة تجاسي. ولكن أحياناً لا يتوقع من العودة إلى البيت شيئاً كعبد الله كلهم، ولذا فإزعجي عمودة حل القصيد الأمني، والبيت حل بعد خطوات).

تشي فوق أوراق الحريف التي غطت الرصيف (علما حريف آخر أندوس أوراقه وسباني حريف يدوس أوراقه... لو كان في أين... فقط لو كان في أين) متتهلاً بظفر صوب أكوام نعب الأوراق متلفذا بصوت عيشها تحت حذائه الماسر. (لقد اضطرت للمشي هكذا فوق حيوات أشخاص كرعهم وآخرين أعينهم، عرفتهم ولم أعرفهم ونساء لملي كنت أعين واحترمن وأغاف عين في أن... نساء جيلات باكيات يدعوى سوداء بالكمحل... كنت

حائياً مقتولاً وقتلاً في آن... وربما كنت قاتلاً معظم الأحيان. لم تكن ثمة وسيلة أخرى كي لا أبيع أسوداء أبي وكبي لأدفع عن نفسي... فقيراً وعضاً كنت والكل مناسب لإيدائي أو استمالي. وكل ما فعلته هو أنني تبادللت الأنوار معهم. لقد انجذبت أبي طويلاً راقية على ركبتيها لتطيف بلباس الأثرياء ولم أتمكن بدوري ولم أكن ذلك يوماً).

الساء يقول ألباً، عادلاً، وهو به رجل في ثياب حضراء ينطلق الرصيف بنشاط بكثرة حضراء (أعز قاتل عثرف مثلك ومكنته وشائى متطور لقتل؟ لكثرة ما هنت من الأسلحة والمطبخات المشكورة في هيئة هي و ترايدوهات وسواها صرت أتوهم كل عابر سبيل قاتلاً وكل مكنته وشائى... صرت مع التقدم في السن أراجع ماضي وتناهي أحياناً نريتك تأليب صغير تشبه التدم، لكنني لم أعلم يوماً علم اليقين متى كنت مقتولاً ومتى قاتلاً).

يلفت وراءه ويشمل القوس النصر الذي يتوسط ساحة الأيتوال ومن زمان كنت أرى هذا القوس مشيداً من أجل حتى قبل أن تولد. أما القليلة فاشعر أنني أكثر قرباً إلى أوداق الخريف مني إلى الأنصب. من المرجح أن أحداً لا يستطيع قراءة أفكاري وإلا سخر مني. لا أحد يعرف تيجني الحقيقية غيري أنا، أو أبي، ولكنني في هذه الأهمية أشعر أنني طيار).

تربى قاعة من الساحات، بين حستوات (ها أنا على أمانهن من الرولزروس ولن يتوقن طويلاً أمام كروشي الذي بدأ يترحل ورأسي نصف الأصم، وأخي الكبير الذي ورثه عن أبي ووحده يزفد مع الأيام نورا. ولطالما أحببت أن أصفق أكشايب النساء عن وسامي البالغة المصيرة، وصلعتي الاستثنائية الجلابة كما يؤكدن في دائماً. اللغة عليهن على أية حال - باستثناء أبي - التي أعرف أنها تهدني حفا أهل الرجال ووحدها من دون النساء ستضع ورده على قبري إذا مت).

يشبه من الكتابة العلية يتأمل الأشجار. لقد صمم الخريف ميكراً (لم أجد أحب ليدك القبول كما كنت أعطي بها في شالي. إنها تذكرني اليوم بالزمن الحاروب والعصر الذي لم يعد يكفي لاستمتع بكل ما مرولت طويلاً بجمعه ولم أتوقف لحظة للاستمتاع به. لقد هزمت وصرت أفكر بالوقت... عاجبي التكرار

من خط: متى وكيف معلومت؟ ما الذي يحدث للمرأة حين يحتضر؟ هل يسمع أوصافاً أو يرى أشياء لا يراها الأخرى؟) يتبع ذلك اللوحة الألفية لذلك النساء الباريسي الجروح الخلاء. لوحة هارية تتوسطها سيدة مرفوعة الظهر جميلة. يجري للرائد من ملابسها بعينه (إنها علة لم تفكرتي منذ مراعتي في بلدي، وما لذلك أكثره واقصت التصري في اللاهبي الباريسية الراقية وأحب امتلاك نسائي وعن لي تباين الآخرين بعد ذلك بيدي وأعيد الكرة) يلحظ أن السيدة المرفوعة تمسك بيد طفلها. تتعلق نظراته بالصبي الصغير اللئال وفيليس لامرية تحمل في قلبه (لم يكن لدينا من المال ما يكفي لعلاجي من سرخس وأبو تعبته الذي أصابني مراعتاً، وحين استطعت أخيراً أن أسبل إلى الطبيب الكفى بالقول: فحسبك لن تتأخر لكذلك لن تقدر على الانتعاش)...).

باعتزاز مبلغ فيه يدفع ثمناً له ورواتب باعقة، يستقبله حراس التفتيش وسائقه الذي انضم إليهم. (ادفع لهم الرواتب مقابل هذا الاحتفاء المسرحي بمروري. يا لي من أحمق).

يتجه بازدياد حين يجد نفسه أخيراً وحده في قصره الحصين كالتحفة، حيث لا تستطيع ذبابة أن تدخل دون المرور بحراسه والطلاق أبجاس التتبع، وقد تخلص من عاصفه وطباعه الكهل بأن منحها إجازة أيام يخلو خلالها إلى نفسه ولحمه. (منذ خلعتي وكارولين تخلصت من عاصفاتها واحدة تلو الأخرى. من زمان كنت أتيها بخدعي وأجمعهم حولي في مؤخرة الصورة حين تلتقط الصحفيات الصور لي أمام بركة السباحة في قصري في ماريا. منذ فترة وأنا أشتكي أن أكون وحيداً وهذه الليالي الأولى في متحلي الخاص بلا خادم أو رقيب. سأعطي بكنوزي وأثلثه بخصسها وعشاقها وسفاسجتها بالعين حتى أنام. سأعطي طويلاً كما يخلو لي دونا رقابة زوجة أو عشيقة أو خادم. لقد بدأت أتعب من زخامي. غداً عيد ميلادي الخامس والخمسين وقد حيرزت مطعم والاسير الشهير بأكملة لضيواني لاستمتع بمشاهدة الحسد في عيولهم. تسالطت دول من حولي واستطعت ببعض الانعطافات المهيولة التكيف مع أزمنة صعبة. وكلها تفل الزمن عن أحد أولياء نعمتي تخليت عنه بدوري فاضحاً التحفاته فلكننا أعطاه. والنضج ليس صعباً، التواكلت هو اللهم. وقد اعتقد

المزيد من الصفقات غداً أيضاً وأخوي بعض الجميلات فلما ضعيف أمام الجمال النسائي، أشفقه بضعف وأعجز عن الإخلاص لأمرك زماناً طويلاً وألجأ إلى الأكاذيب معهم. في الفترة الأخيرة فقدت اهتمامي بهم - نسبياً - لكنني أعتني أن أهم بالمرء إذا تولفت عن مفارقتهم والظهور معهم. أما القليلة فسأرتاح منهن ومن عطفيري ومن كل شيء - ولا يكون طاقه. اسمع كثيراً هذا التعبير من أبناء السهرات ولا أدري بالضبط ما يعنيه ولا أعرف من هي ذاتي. كل ما أعرفه شهرتي الجارية القليلة إلى مداعبة تحفي السجينة داخل الغرف المصفحة بالجلود والظلام. شهوة تتزايد كلما قتر لعتامي بالنساء).

يتطلع رفيف ثيابه ويتجول في البيت عارياً. يستمتع بحميم التفاحات لذلك الشاعرة التي تصور بطنها داخل الحوض الرمزي (إن أبلاتي يتصالح طبعي. لن يجرمي أحد منعه الماء الحار بعدما استحممت بالماء البارد معظم طفولتي)...

عشاء دسم يقضيه بارداً في المطبخ قرب الثبرد واقفاً معظم الوقت، دولما شوكة أو سكين أو ملعقة كما يملو له: كافيار يأكله بأصابعه كاليرغل وعشرات القطع من سمك السلمون المدخن بلا عيز وعلى زجاجة من الشمبانيا النادرة، مُصدراً الأصوات الخروانية التي تمتعه وهو يقضم الدجاج أيضاً ويمنعه عن الطعام وغير ذلك مما يجرّبه (الأنثيكية) من ممارسات ويروق له منذ كان طفلاً وحيناً ويضحك جيدة. لكنم يستمتع بالطعام الدسم دولما عدم براقبونه وزوجة تنوب عن طبيبه.

يدور رفيف يفتاحه على غرف كنوزه دون أن يفسل يديه، ويفتح الأقفال كلها خزنة بعد أخرى.

حتى التوجه الشفافة لذلك عرض مجهراته النادرة المغلفة بزجاج لا ينفذه الرصاص فتحها كمن يجرع بحبيبه الجميلة المخطوفة إلى الهواء قليلاً. يتحول بين لمحده على اختلاف أنواعها بسملة بالغة ويده كأس مليئة بالكوبناك. (لقد حرم على طبيبي أن أنهم الدعنات الشهية، أو الشرب أكثر من كأس واحدة، واضطلع أكثر من مرة في الأسبوع، لكن أولئك الأطباء الحمقى لا يفهمون شيئاً عن الرجال المقام من أنثالي. إنني شخص مختلف).

يترك كل من الكونيات بين آن وآخر لينحس مجموعة الثائرة من التباين
الأثيرة وبعضها مسروق من الماحف ثلثة لشهوات المدفوعة الثمن. يتماثل
جدرانها المزرة بلوحات ناعمة لكبار الفنانين يحتاج طفل يدخل إلى غزل للألعاب
للمرة الأولى. يداعب عزف والسيره الثمين وأثمة العجايب العازية وهو يرتاح
كمن ينحس جسد امرأة حلم بها منذ مراهقته وما زالت جميلة كاستورتها.
يسكن بيكي. كانت لديه موهبة البكاء الكذب أمام نسائه في حالات
الطوارئ، لكنه بيكي فراحاً عليه المرأة وهو يعود للاطفاة مجموعته الخاصة من
المجوهرات والتيجان. يضع تاجاً على رأسه مثلاً نفسه بشطة في مرآة معتقة
لكن فرحته تنسبها خصة (أنتي) لو توسعت جوهري اسورة أفي الشعبية التي لا
يزيد ثمنها عن الإكرامية (البخيش) الذي أتركه مكافأة لموظف الاستقبال في
فندق (اللاين) ووكه في (كاف مانتيه). لقد أصرت كارولين على الاحتفاظ بها
بعدما أحديتها إياها، وغرقت اللعنة في البحر مع سيارتها مصطبة معها
الأسورة إلى الأبد. ولم يجد يورسي مغاضتها لاستعادتها. آه النساء. يعرفن
دائماً كيف يوجعن. أحبهن وامتنعن أقل ما لدي: أسورة أفي. لكن الحب
يمضي دائماً ويهني الندم والفصام. دوماً كان علي أن أحاول إثبات نفسي من
اللواتي أحيتهن. ثمة سوء تفاهم مزمن بيني وبينهن. الحبرك ملحوراً من
فخاخهن وكل خطوة معهن تقود إلى خلل. مع أفي وحدها أشر بالطمأنينة.
كيف نسيت القيلة أن أمر بها كماني وأطلقها في (الميلاء المجاورة) ولكنها
مستأجني. إنها تغفر لي كل شيء. وحدها تغفر كل شيء وتظل تغفري
بالحب. وما هي في بينا المجاور، بصحة معتلة جعلني أسأل أسد اجنحت إلى
مستشفى مصفرة خاصة بها. أنيونات أوكسجين وجهاز لقياس ضربات القلب
وغرفة خاصة بالمحيطات وطيّب مقيم لحالات الطوارئ. أجهول بأنني لمثلت
ذلك تشاوراً لا حياً بها وأن تركتها في القرية كان أفضل لها، وهذا ليس صحيحاً
تماماً وحدها لم تكن الصلة بها كمسيرة بين الكليات المتطامعة والأفلام).

يسبح الدموع من عينيه. يشعر بما يشبه التعب المفاجيء. يمضي إلى غرفة
الكتابة بعد أن يسكب المزيد من الكونيات في كأسه. ينزعج عن مقعده الجلدي
الفاخر (الشتريلاند). يحيل عينيه في كتب لحيط به على الرفوف (كنت أحلم

بفراغها ذات يوم ولم تنجح في الفرصة لذلك. ثم روي نزله وعمره يتناقص) ثم
 ثم بدأ يسري في فراقه اليسرى وكشفه، متجاً إلى صدره. يفكر بالاتصال هاتفياً
 بأحد لمرسل له عليها اللقيم (ولكن لا. إنه تعب حابر. لعل أكثر من الطعام.
 الكوتيك يساعد على الغضم).

يحب جرعة كبيرة منه، وبلا تأسه من جديد بالمرط كما لو كان قاساً من
 البيرة (هكذا كنت أشرب أيام المفتر حين أجد من يدعوني... أيام غيرة القمر
 والشعر والأحلام والبلدة النائية والماتية... أيام كنت استحوذ على كل ما
 يوسعي امتلاكه من الزجاجة، المرحه من فروعها بلا قطع للجنة متجذرة داخل
 القالب بشكل قلوب أو بيوت رمز الدولار ولا مقلبات من التكافير المظلم على
 ناحية الجيز المقطع. الليلة الشعر برغبة في العودة إلى البداية، والأكل والشرب
 كأيام زمان).

وجد الألم في صدره، ديب كنسلر لآخرني يركض في عروقه وقد أخذ من
 قلبه عشاً.

جرم الباب يرن. يدعته ذلك لأن أحداً لا يستطيع الوصول إليه دون
 المرور بحراسه وبأبواب المدخل المصنعة للقتلة. ينظر إلى إحدى شاشات
 التلفزيون التي يراقب منها مدخل قصره وغرفه. لا يرى أحداً، ولكن
 الجرس ما يزال يرن وشاشة التلفزيون محاولة لملأ من صورة أي شخص، كان
 أصعباً لأمنية تتابع الضغط على زره الموسيقي الرنن.

يقدر أن خطلاً طارفاً وقع له نصار يرن من تلقاء نفسه، ويهبط بصعوبة
 ليفتح الباب في محاولة لجلب الزر إلى الخارج وإسكته في منتصف الطريق إلى
 الباب بدم لأنه لم يتصل بالجرس ليفعل ذلك عنه (ما زالت شائياً ويوسعي أن
 أفضل فذلك) تلح عنه على وجهه في المرة. للمرة الأولى يراه بوضوح ويحل (من
 هذا المعجز الذي تعكس المرة صورته وأنا ما زلت في مقبل عمري؟ يا الهي
 ماذا حدث في؟).

يلقي نظرة أخيرة على شاشة التلفزيون الخاصة بالراقية، اللينة قرب الباب
 عاكسة عدة صور للسلم والمداخل والرفعة كما باب المصعد المعلق وباب البيت

الذي لا ترسم على الشاشة صورة أحد أمامه.

يفتح الباب ليصبح الخلل البسيط. يدعشه أن يجد امرأة واقفة ترون
الجرس يد مغطاة بغطاء أسود وقد ارتدت ثياباً سوداء وبقعة سوداء وهدت في
حذاء. ترفع عن وجهها نقايا الدخان السوداء والرمية فوق قبعتها إلى الزوايا
وتدفع نحوه بوجه ظهر لشابة في العشرينات من عمرها. يصعق حين يشاهدها.
يجس بصوت ضعيف: تريسي؟ ولكن ذلك غير ممكن. . . يضمده على
مخاضه. يفكر متدافداً حراسه، بطردعاه، وهو يكاد لا يصدق عينه (ما الذي
سأقوله لحراسي؟ هل سأطلب منهم التصعود لطرد زوجتي السابقة إلى الشارع
وإزجرهم لأنهم سمحوا لها بالتصعود ولأن كاميرا المراقبة معطلة) يشله القول
(من غير المعقول أن تكون هذه هي تريسي. ثلاثة عقود انقضت منذ طلاقها،
فكيف ظلت هكذا عجينة من ضوء وصبا وهرمت أنا؟) يشعر بأنه عاجز عن
حل جسده. ساقه تخونان بقية جسده. يعتمد على القدم الرخوة في الدخيل
الشامع للقصير وقد عاينته أوجاع صدره. تجلس تريسي مقابلته في أحد المقاعد.
يحمل إليه والنور قدم من خلفها أن ثوبها الأسود الشفاف لا يمسك أي ارتسام
بلسها كأنه غاي ويعلق في فضاء الغرفة فوق جوربين أسودين وحذاء عالي
الكعب عليه كرمج.

يتأمل وجهها، ومن جديد تدعله تضارعا. من غير المعقول أن تغفل شابة
هكذا بعد أكثر من ثلاثين عاماً من العراق. أعلمه ابتها؟ إنما كذلك بالتأكيد،
ولكن لماذا تريد منه؟ تحبه كأنها تقرأ أفكاره: جئت لوداعك. (كيف عرفت إلي
احتزم السفر بعد يومين إلى نيويورك في رحلة عمل وجب لي أن؟) جئت
أودعك ليس لأنك مصافرة إلى نيويورك بل إلى مكان آخر. وأنت تحبني ذلك ولا
تريد تصديقه. جئت لأقول ما وقعت عرواً أن أقوله لك: أنت وحد صغير
ولست قارصاً شاعراً كما كنت أحب دائماً أن تتج نفسك ومن حولك. عرفتك
قلعاً إلى بيروت من بلدة تالية في «لبنان» بحثاً عن الحرية والرزق، وكنت
زميل في الصحيفة وليس في الثراء. علمتني بالمشرك ورومانسياتك وكنت أتكره
سناً بكثير لبلدك الحب. ورغم رفضي لغيري لهذا الزواج استضفك والتي فيها
بعد بالغوا والزوا ومنحك بيروت كياتاً وأنت الغرب. ولكنك طلقتي بعد

أبلم من حصولك على الجنسية اللبنانية بفضل والدتي بمرسوم خاص مدعياً أنني كنت أحاول إغلائك والسيطرة عليك بمالي.

يفتح رليف فيه لورد عليها. لكنها تتابع: غشيتي مرات وكان حبي لك أكبر من كل شيء. فلو أنك على الكذب كنت مدعلة. فموسحك. شوكك. ندمك. الأكاذيب عن ضرورات عملك. وخيالك عني. الأكاذيب كلها كنت أفرح بتصديقي لها لأنني إذا لم أصدقها فقدت رشدي أنا التي بدلت ملي لأجل الزواج منك! (من غير المعلوم أن تكون هذه تريسي. تريسي، كانت تكبرني بأحواض وكانت حريجة جامعية تلعب في واحدة من صحف والدها... لا بد من تفسير منطقي لا يدور... الحراس لم يتبهوا لدخولها وكاميرا المراقبة مصطلة وهذه ليست تريسي، العلما ابتها أو حفيدتها).

أقول له وكلنا نقرأ أفكاره: إذن كنت تعرف دائماً أنني قادرة على الانجذاب لا عاقر كذا لوهيتي، مدعياً قلة أنك تتمسك بي رغم عجزتي عن الانجذاب لأنك تحبني، ومهدداً قلة الأخرى بالزواج من امرأة ثانية خيرة لي كي تنجب لك طفلاً، وربما من ثلاث نساء أخريات كما تنبئه لك شريكك.

بعدما طلقني ظلمت ليكيك، وأبكي ضياح أسورة والدك التي أعدتني ليعاها ذات يوم لتدليلاً على مكانتي عندك أنا المرأة التي لا تنجب. ظلمت دائماً أحبك بطريقة ما، وحينما أعمل أجد ميلاتي تقوطني إلى مرأب بيتنا القديم في مبنى والهاميلتون، وظلمت أمارس تلك العادة اللوجمة حتى تحول المرأب إلى وكالة تجارية لبيع المكاس الكهربية... ولم أكنسك من حينها إلا يوم اكتشفت أنني حامل بعد زواجي من بيل الذي أحبني وليل الارتباط بي رغم مصروحي له بأنني عاقر. إذن كنت تكذب حين ادعيت أنك قمت بمفوضات طبية وأبنتك صديقك الدكتور يسام مؤكداً أنك بأفضل حال. لم يعادل فرحتي بالحمل إلا حزني بك. قلت لنفسني: فإن كان حبك الكبير رغداً وكذباً.

.. لم أكن رغباً. كنت أعطى إعلنة رجواني إذا عرف الناس أني لا تنجب. كنت مدعواً من أسرتك التي تراقني وأنا أكل عندكم كأني أبن الطباخة التي استطاع أن يفرج في خلفة من الدهر بينكم والحسب على كل خلطة. كان علي أن

أكون مهذباً مرتين كي يتم قبولي في فائزتك القاسية المخرقة . كان عليّ أن ألعب دور اللهرج في السهرات كي يقال عساً: صحيح أنه من بلدة مختلفة وأصله بومبيج، ولكنه ذكي وعفيف المثل . كان يوسع يار الذي تزوجته أن يكون صابنا السهرة كلها ويقول أشياء فيه دون أن يقال أنه متخلف فهو منكم . كان عليّ أن أتعب مرتين كي أصبح مقبولاً . كنت زنجياً سرّاً كان بشري اليهواه بسيطة بالأسود . . . ولم أهرؤ عليّ أن أهرج بسري .

- لكن قهرك لم يجعلك تتعاطف مع مفهورة مثلي بشفقة من حولها وربما استظاها لها لأنها عاجزة عن الانجاب .

- ولكنك عملت ونجحت وحملت فعلاماً للمومني؟

- حملت ولم تكتمل فرحتي . ترفت طويلاً ببطء ممددة في سريري وكافحت لاحضظ بحملي لكن تقلمي لي السن جعلني الجهنم . قال لي الطبيب بعد محاولات عديدة فاشلة أنه لم يعد يوصي الاحتفاظ بحملي . استسلمت بي زوجة وريثا وريت أسورك التالية ثم خلقتني . وريثا لمعت كان الألوان قد مات بالنسبة لي وحرمتني من الأمومة . أنت لم تهني حقاً في أي يوم . كنت خشية عيلامس فسكنت بها جيداً وريثا عبرت إلى أول جزيرة . . .

- بل لحيبتك . لكنك كنت تبتلين . تترهلين . تسملين . تتلعبن . تتكلمين بلامه ولا عمل لك غير الشجس عليّ ومراقبتي .

- وأنت أيضاً سجنيتي بغيرتك . وهي غيرة كانت تزود غيرة بعد كل حياة لي من حياتك . هل تظن أنني لم أكن أعرف شيئاً عن ميرتا التي سرقت مني أسواراً أنك لتهديها إياها وظللت تترمني شهوياً لأنني أنسنتها؟

- لقد نحايها ذات يوم وتعاركتا وافترقتا ، ونظالين دائماً زوجتي الأولى الحسية التي علمتني كيف أكل الأكركتد بالشركة والسكين وبقية الأدوات الجبرامية المعتقد ، وكيف أميز بين العدس والكافيز وبين السرمين والقصورون لوميه وفي أي درجة حرارة أشرب نيلدي وكيف أرغدي ثيابي بالذقة وكيف أميز بين الجيرة والسيفر والجاليه وكيف أتلوق الفن والتحف وأنا مدين لك بذلك كما أنت مدينة لي بلحظتات حب خارجة عن المألوف جعلتك خلالها كلهم وركضت بك فوق

شواطئه القلعة وتوغلت بك في كتبات الرعشات الضوئية اللامتناهية. . . ألا تذكرين؟

إننا نلتقي، نبتلث، الحب والمصالح - أجل المصالح إذ لا حب مفطراً - ونحبها أياً ما لا نخلو من المر والإساءات ثم نفترق. واعترف أنني انهلوت المقيول حين أدعيت لك أنك حافر ولم أتر بقصبي، لكنني كنت مضطراً للدفاع عن نفسي في وجه حائك الذي يتلاعب ليدوسني. . . وننقلون دائماً زوجتي الأولى الحبيبة.

يجل إليه أن علامات التآكل تبدو على وجه تريسي.

جرس الباب يرن.

يخلق في شاشة التراقية التلفزيونية. لا أحد.

يحاول أن يمد يده ليضبط على أحد أزرار لوحة موضوعية فوق الشفيدة القريبة لاستبعاد حارس يصلح الجرس أو شاشة التلفزيون، وأيضاً لأن الناس يقرعون بابه دوناً رقابة. لا يقدر. تظل يده تشد على صدره الذي يجتاحه شيق كالأم.

تدعه تريسي صوب الباب وتفتححه. تدعخل سيده جميلة بلباب الحديد السود وشعرها الطويل يغطي كتفها والمسايق السمبكية تكاد تحقن ملاحها البليدة الجميلة. يحاول أن يتذكر أين شاهدها وشعر في الوقت نفسه أنه لا يريد أن يتذكر.

تحتي صوته كالثليفة وهي تردد: أيتها السخنة. . . أنا زوجتك الأولى وليست هي فكف عن الكذب. هل سميت ونحيت؟

تقولها وهي تمز تحصرها بأسلوبها الخاص بها الذي عرفه وأحبه مرة.

يدعخل وليف. ونحيت أيضاً ما تزال نصف شابة في الأربعين كما كانت يوم تزوج منها. والشاعدا في المظهر لرائع. لقدت توارثي. تبدو شبيهة حينما تتحرك على إيقاع الطبول. طنتها لمواج المرأة الجلدة المستحيلة العصبية على الامتلاك بغير الزواج. هكذا أومعني وكنت طالباً جامعيلاً لا يملك ما يسد رمقه ويغي بالأساطير. تزوجت منها وكنت صغيراً في التاسعة عشرة من عمري وطلقتها بعد ذلك بأشهر. ألم يعد ثمة من يغفر طيش الشباب؟

تجلس لمحات إلى جانب ترمسي في مناج ونام كأن كراميتها المشتركة نحوه
جميعها أكثر من أي حب

ما تكاد ولحباته تستوي جالسة حتى تقول له وكأنها تقرأ أفكاره: لم يكن
طيش الشباب بل حكمة الكهول. كنت تستولي على كل ما أربعه، لتفجع
أفلاكك وفلك ومن أسورة أمك وتزودها ببعض المال وأنا أقبل كل شيء لأن
أن صرت لغيري، تغل عليّ وتريد مالي في آن... .

ما كاد يفتح فمه مدافعاً عن نفسه حتى رنّ جرس الباب مجدداً لا يرى
أحدًا على الشاشة الخاصة بالراقية، تخشعه ترمسي. تدخل ميرنا. يراها كمن
يرى الأشياء في حلم. (لأنني بالتأكيد فعل، ولعلني نائم أرى كابوساً واستيقظ
منه بعد قليل، ولولا الألم الحاد الذي بدأ يمزق صديري للفرحت من فرائشي بقوة
الارادة كما أفعل حين أرى كابوساً وأقرر مناصره والتجعب).

تقترب ميرنا منه فيرى بوضوح ملامحها الشفراء الذهبية وتتأرجح حيناً من
صل كما فعلنا دائماً.

تقول: صدقتُ أنني حبك الكبير رغم أنني متزوجة يوم أعددتُ أسورة
ذهبية عادية وقلت في إنها أسورة أمك المتوفاة ولم يخطر لي بها أنك أغريتني
وزوجي للتعريف مع صديقه في الجامعة، ابن الحاكم العربي. ويوم سمعت من
الصحف بزيارتك له واستعدادك لإصدار مجلة ناطقة باسمه ووالده تعجبت
كثيراً حتى قلت لزوجي: كان الرجل (تأصرياً) لماذا حدث؟ أجب: مات الملك
عاشي الملك. ومن يدلع يترج على عرش أجدية أمثاله.

نسألها ترمسي بلا حقد: إذن أنت السيدة التي سهر معها ليلة رأس السنة
وكنا ما نزال متزوجين وأدعى أنه كان يؤسس مجلته؟

تجيب ميرنا: لا. لقد زلني بعد الظهور مدعياً أنه مضطر للسهر معك،
ويدعو أنه سهر ليثها مع امرأة ثالثة... واختفت يومها الاسورة وحررت هل
سرقها مني المرأة أم الطباخة لم نراه ندم وقرر استعادتها... .

يرن جرس الباب. ينظر رايك إلى الشاشة، فيرى المدخل ممتلئاً. يفتح
الظفرة الأخيرة من كأس الكونيك ويتركه يسقط على الأرض. الباب يفتح من

تلقاه نفسه. تدخل سيدة متوسطة الجاهل والأثقة. ولا يذكر وجهها. تقترب فترأى بوضوح (لا ليس بوسع أحد أن ينسى تلك الشعر الأسود المندرج بعينين زرقاوين. إنها بالتأكيد هناك وأنا بالتأكيد لعل). دون أن تلقي التحية، تقول له هناك كتابا تقرأ أفكاره: كتاباتك صحي وخطأ في آن. نعم أنا هناك ولا، أنت لست لعلاً فحسب بل حالك أمر وأدنى. إذا كانت ميرزا ومحبات وترسي حرفن وجهك الشاعر والصحابي الثقف فقد التقت معي حياكة وجه الماغل وروحت الكثير منة وولفت علاقاتك التجارية غيره وأنا لا لأوري. كنت أركض ليل نهار مغامرة بحياتي تحت القصف لأكتب لحظتك والحرياته أفضل التحقيقات. وحين لا تدفع لي رائي أشكرك لأنك (مناضل) بقي هناك ولأن المجلة ظلت تصدر حتى خلال الحرب. كنت كل ليلة أحضر من بيت أمي المعلقة إلى مقر المجلة، لأجابه بالفداف، متخمة بالكلمات الكبيرة والمثل العليا. ولم أكن أوري أنك بدأت مسيرة الضمة مع المال.

أهلاً من المال من هنا وهناك، وكنت مشكلتك الوحيدة أن توازن أي الغراء يدفع أكثر لتعوي عنه، وكانت مشكلتي أنني لم أكتشف يوماً استقلالتي فكسري عن جسدي وكان جسدي عبداً لك، حتى اكتشفت في قبر ميني والحرياته عشرات الذين رفضوا الانصياع لصالحك وسجنهم. صبحت يوماً: مجلة والحرياته تحولت إلى سجن ولبنان القوة إلى كابوس، وأنت الذي يدعي الدفاع عن الحريات يدافع عن يدفع أكثر وأهمت للمرة الأولى كيف تحدث التحولات المبالغية عن الثواب والمعنى العملي لعيارات غائمة مثل الانتهازية والوصولية والانحطاط البلشيووي والعفن المافيووي. لن أنسى ليلة اكتشيتي لحقيقتك. ليئتها استطعت التسلل إلى مبنى المجلة، وكنت أتفكك جالساً في مكتبك تحت القصف ولم أكن لأوري أن مشارعتك كبيرة في لحظة مني ومن أمثالي وانتقلت بها إلى لندن، أما مبنى المجلة فقد هجره حتى الحارس ذعراً من القصف، وثمة حكايا رعب تنتظرن من شفاء مساجيك المسجون في القبر، بعد تلف الحراس من المجيء عروفاً من التعذيب. أطلقت سراح السجناء جميعاً بعدما صُحفت للمفارقة: ميني والحرياته صار سجناً!

شاب واحد لم يقدر على الحرب ولقط أنفاسه على مساحدي وكان في

العشرين من عصره. تذكره بالتأكيد. كان سالفك أنيس. قال لي وهو يحضر إنه عرف عنك أكثر مما ينبغي. شاهدك تحالف سفارة الكلاشنكوف وأعداءها في أن وتقبض منها معاً، وحين رفض أن يقبض وسكت سجتة ونسيته ونسيت قبل سفرك أن تقول لجنائك إنه بريء فمذبوه حتى اعترف بكل ما طلبوا منه الاعتراف به. وحين حدثت من رحلتك بأسواق جديدة وتوجهات ومواقف جديدة (خدمة للفتية) تطلبها (ضرورات الرحلة)، كان أنيس المسكين قد مات بين يدي.

لقط انقاسه الأخيرة أنامي، بعدما احتضر طويلاً قبل ذلك تحت التعذيب في قبر المجرمات.

لم أقل شيئاً حين شاهدت صورته في أحد ملصقاتك على أنه خطوف مفقود يرجع أنه شهيد. فقد أدركت أنكم تخلصتم من الجثة وصيرت انعطاف لتكن لك نية مؤلة تملب طويلاً ليها ولم تنج في الفرصة لأنك لم تعد من لندن متغلاً منها إلى باريس متغلاً دكاكين الأجنحة ومعلماً عن حقيقتك الأولى كرجل أعمال في الساحة بين بيع السلاح والعقارات والمخدرات والتمساء.

يتحامل رليف على الألم في صدره ويهيب بصوت واهن: هذا خير صحيح. أنا لم أخل عن القضية. هي التي تخلصت عن نفسها. أنا لم أعرب إلا حين وميت أنني لست أكثر من حجر شطرنج على رقعة اللاعبين الكبار الذين يأمرون بعض اللاعبين الصغار بتحركاتهم ويقضون بالوزير والقيل واللكة تلعكك عن الحصان والفرس. كنت دائماً أحاول أن أنجو بقضي واستمر. كان فني الوحيد أنني أكثر ذكاء من الذين ماتوا ضحايا وهم يترجمون أنفسهم أبطالاً وأنني وميت الآن قبل سواي. أما موت أنيس، فلما قبل أنيس لذلك، ولكن في الحرب ليس بوسع أحد أن يضمن وصول كل دساسة إلى هدفها. الثورة تعني أيضاً الضحايا، وحين تضلل طريقها يصير الكل ضحايا. . . وأنت ضحية نفسك. . .

تفتح فيها نرد عليه لكنه يقاطعه متاباً: كنت تعشقني جسدي وتعطين تلك الصلة المنزلية في تفردك بقشرة (عقلانية) حيث تبتين فكري، ثم تصنعين لنفسك انعطاف لتبرير مجررك في فكراً بعدما مجررك أنا وأعترف لك بأنني

أفضل عاهرة حقيقة على مفكرة (مفاتيحها) هيولة الخلط بين فرونها الجسدية وفرونها الفكرية .

يسمع جرس الباب بون . براء يفتح من تلقاء نفسه . تدخل شابة ترتدي السواد كزواراته كلهن . لا يتذكر أين شاعدها . قبل إلى السمنة ولها وجه جميل يتهازلين . تجلسي دونما استئذان إلى جانب الباقيات . يراهن جالسات حوله كذا لور كان في عاتمة كابوسية عجيبة وهو التهم . ولكن من هذه القائمة الجديدة وحلام ثياب الحداد؟ تقول : أنا ناعد . مسكريرلك . لم أخلط يوماً بين فروني الجنسية وفروني الفكرية لأن أسوأ الفكر لا يحمي وهو ما أعجبت به بشدة لكلك فحدث بي أيضاً . بين الترهيب والترهيب والحقيقة والأخرى استطعت على الأرض للقدرة للمكتب .

يسمع صوته شيئاً بالخرجة وهو يدافع عن نفسه : ما فني إذا كنت تريد ذلك ؟ فلك يقول لا وجسدك يصرخ نعم . حين تنس امرلك جسدها داخل منطقي لا أعرف كيف أقول لها : معلرة يا سيدتي . فأننا لن أتزوج منك ، فلتعني ببيكرتلك إلى مكان آخر .
- لم هيجرتي ولم تبال بتوسلاتي . . .

- لقد تمايشنا وتبادلنا اللذات والباهج والأنانيات . . . فالحياة هكذا ونحن هكذا . . .

جرس الباب يكد لا يترقب عن الزاين . يشعر أنه عاجز عن الضغط على حل الزر الأحمر لاستدعاء حراسه . الألم في صدره يمزقه . حشرات السد يدخلن بثياب الحداد السود . وجوههن تقترب من وجهه وتبتعد متلاحقة كما في الكوايس . يصرخن وهن يفرين متلاحقن القاضية من عينه دون أن يفوى حل الحركة لأوجاع صدره . . .

- أنا التي انتحرتُ بسبك وتظاهرتُ بالأسف لكلك كنت لظوراً بذلك .
- لم انتحري بسبي . كنت منهاراً عصياً تقتشون عن مشجب تحملينه مسؤولية موتك .
- أنا التي صدمتها بسيارتك وما زالت متعلقة .

- كان الضوء أخضر ولم أرك، ولم تنبهني حين حلزتك والفرار...
 - أنا التي طاردتني أعواماً وحين حصلت عليّ صرت أحوال إنثائي...
 - مع الحب لا ضيقات... وأنا وجل بظن في أعماقي صباه... أحب
 الدرب لا الوصول.
 - وأنا التي أعدتها قلادة ماسية ثم سرقها وعالبتني لأنني أضعتها.
 - رغم ثرائي كنت أعاني من نوبات يخل تعقب نوبات كرمي. أنا بشر يا
 سيدتي وليست عاشقاً فودجياً.
 - وأنا التي اشتبهتها حتى الجنون ولم تستطع الحصول عليها فعمدنت
 تلويث سمعتها.

- لست فخوراً بذلك. كنت أتمنى أن يدفئك ذلك للاستسلام لي!
 - أنا التي قضيت معها وقتاً طويلاً ذات أسية حرب وبينما كنت تعيدني إلى
 بيتي رن جرس الحاف في سيارتك. فأنزلتني في الشارع المرعب لأن اجتياها معها
 ينديك وثقت لي كاذباً إليّ ساجد التاكسي الذي يرجعني إلى بيتي. واغتصبي
 بعض (مقاتليتك)!

- أعترف أنني لست فلوياً بفتح الشهاة. لم يكن يرسمي أن أضر
 الصفة وكنت سأعصرها إذا تخلفت... مؤسف أن يحدث ذلك لك ولكن في
 زمن الحرب حين تغامر بيوتنا تغامر أبنائنا فعبنا... هذا ليس ذنبي.

- أنا الواقعة التي أحببتك وارتكتها لأحد زملائك... أعدته ليعا.
 - لقد أوجعني ذلك ليلتها. لكنني كنت أعرف أنك مستغلين هي حل أبة
 حال.

- أما أنا فقد هجرته إلى رجل آخر قبل أن تهجرني إلى امرأة أخرى.
 فالتقيت مني بطردي من عملي!

- أنا ككل الرجال أحب أن أكون زير نساء. وقد عز عليّ أن تسلمني
 دوري وتكوني زيرة رجاله. كان لا بد من عقابك!
 ما أكثرهن حوله. متوجعاً يذكرك: إن عوازل أهلك كلها مفتوحة ويخشى

عليها من السرقة.

يجادل أن ينبغي لأخلائها وإسكلم إلفاك لها ولكنه يعجز عن الحركة
ويسأل: هل جبن لسرقته؟

يخلق نيهن، جالسات حوله في حلقة السواد. (أجل، اني في هاتكة
كأني تقوم عا الساحرات لن يتوهمه جلاذهن في حركة ما. كيف أشرح لمن أن
المرء قاتل وقيل في كل لحظة للهر به الفداء، وأني لست بالأبيض ولا بالأسود
لكنتي بجره رجل وملاي آخر؟ كيف أشرح لملك القبيلة من نساء حمري أظفن
علّي في مائة مغلفة لمحاسني، وستنظم إليهن بالأكيد نساء ونساء فقد عرفت
الكثيرات. أكاد أكون سعيداً بحضورهن هكذا مرة واحدة والمحوار بلا
تقلبات. ما يفتقي هو تلك الخنجر اللامعني الذي يهوى يبطه في صدري
ويؤلفي ولولا الفصحك من هذا الكابوس).

وثمن جرس الباب يكاد لا يتوقف في أذنيه. يرى كارولين تسجل. تلتصع
في عينه أسورة أحد الذهبية الملتفة حول معصمها ويضمه للزيد من الذهب:
ولكن كارولين مئة فكيف حضرت؟ وهل بعض الحاضرات ميتات أيضاً؟

يشعر بالدهر وبأنه صوت كارولين: نعم أنا مئة. ولكنني أحببت ذات
يوم قبل حوالي. كنت تكبرني بعشرات السنين لكنني أحببتك حقاً. كانت لديك
قدرة مذهلة على أن تصرف كمراهن في تلك العداق وتزكك العفوي. وعندما
امتلكتي ذهبت بي وتحوّلت إلى مصباح منطفئ في سريري وهجرني إلى نصر
آخر لم يعد لمة ما يشعلك غير الخيانة ولم تعد لحلول اختلاقي بحرارة إلا بعد أن
لحقوني حيث ترجع إليّ حاشقاً حياً. كنت أصغر سناً من أن أفهم إلاحيك لكنني
بعد طلاقاً تعلمت الكثير. ولولا شجارنا، وقيادتي لسيارتي ثمة وتندبروها بي
ومولي وبقيتي في قاع البحر دون أن يراني الغواصون الباحثون عن جثتي لقت
بأنك ذلك لك!

وثمن جرس الباب مستمر. يجادل ويلف أن يصدق في الشاشة التلفزيونية
أولاً أن يكون الخاتم أحد حراسه الذين تنبهوا أخيراً إلى جلبة النساء عند ومن
يتكلمن جرباً مرة واحدة، كيا في هاتكة هذيانة.

تدخل سيدة مهترجة الجسد واللباس وتصبت الجلسات كلهن لحضورها، يحاول أن يخلق فيها ورحب كبير يكاد يصره. ترتدي السوداء كأنها لم تعرف سواء عمرها كله. شبيبة الجسم، عجوز يستطيع أن يقسم أنه لم يعرفها في حياته كلها، عندها همزتان يجلون متأكلة من يكاد مزمن كجدران مقارة أصرقها الملح على مر العصور. وبالرغم من ذلك ينوله وجهها مكررة. تقول له بهادة جملة الجلسات يزلن سيدتهن المعروفة سابقاً على سابق ويعلنن كما الطالبات في مدرسة الحزن: أنا أم أنيس. إسم لا يعني لك شيئاً بالتأكيد. أنيس ابني كان سائقك الذي غلب حتى الموت. وأنا مت متشرة حزناً عليه. هل لديك ما تقوله لي قبل موتك؟

يشعر بألم حقيقي (هل سأسقط من كليومي قبل أن يصلون الحكم؟ هل سأبقي قبل أن أموت؟... التجدد... أين صولي لأصرخ النجدة؟) تكرر الأم الحزينة سؤالها: هل لديك ما تقوله لي قبل أن تموت؟ يستولي عليه شعور باتس ورم، لمرارة صوت كلاتين.

لم يكن لديه ما يقوله لها لم إنها بدت له وكأنها تشبه أمه. يتساءل: هل هي والدته أم والدة الآخر؟ في تلك اللحظة بالذات يراها تسفل خضراً نحيل التصل يتبع أمام عينه. لا يتحرك. لا يصرخ. لا يلدي لها يستسلم. يشرق التصل قلبه ويصلبه في لحظة ثم بالغة. ويرأها تستعيد وده يطر منه وترمي به على الأرض.

فراعه المختلفة صوت الجرس لطلب النجدة ولاستدعاء حرامه تسقط حل الزر الآخر فوق اللوحة وترن الأجراس.

يبدو أنهض زوجته الأولى الرافضة لحيات ويخيل إليه وهو يكاد يثاقن أنها تطيح على شفتيه قبلة وداع ونفي. تنسني عليه وجوه الباليات ويصلين حطوها. يراهن بصحوة وهو يشق متوجعاً عاجزاً عن التنفس.

يتلون البيت واحدة تلو الأخرى وكارولين تحلق أسواراً أنه وتركها على صدره. يهزبن كلهن أما العجوز أم أنيس لنيدوله وكأنها تنبه أنه أكثر وأكثر وهي تدنو منه كما في الأحلام مقربة وجهها من وجهه ويخيل إليه أنها أنه بالذات

ويتلخها مستجلاً (يا أمي) لكنها تهتق في حينه فيعضها وهو يبوي في بئر،
ويتلخى... يتلخى... .

يدخل الحراس والسائق وهم يركضون مرتادين لورين الجرمس الخاص
بالاستغالة. يدعشهم أن يهدوا الباب الخارجي مفتوحاً ورليف سوماً على مفعد
المدخل ويهدو ميتاً وعلى صدره أسورة ذهبية عتيقة وعلى الأرض شجر كانه
أثري... .

البوليس يخلق ألقاص الضيف. الحراس يؤكدون أنهم لم يروا أي إنسان
يدخل إلى القصر المحروس جيداً بعشرات المنيهات الإلكترونية... . ولم يسموا
وتين جرمس الباب ولا تفسر لديهم الظاهرة الباب المقروح.
الحقق يؤكد: يبدو أن شيئاً لم يسرق. لعلة ماتت بالسكتة القلبية.
الطبيب يؤكد ذلك.

الحقق يحار في أمر ذلك الشجر القديم الذي وجدوه إلى جانب جثة
اليت.

والدة وثيف تؤكد أنها لم ترو من قبل، لكنها ترجح أن يكون من المجموعة
الأثرية لأبها.

تزاد حيرة المحقق حين يقول له الموظف الخاص برفع البصيات إن
الشجر نحال من البصيات، حتى من بصيات وثيف... .

والدة وثيف انتعج بضيف، ورغم فجيعتها بالوفاة المفاجئة لأبها
بالهجرة القلبية لا تملك إلا التساؤل: من أين جاءت أسوارتي؟ قال لي وثيف إن
كلولين كانت تركتها حين ركبت ميوتها وتنهوت بها السيارة في البحر أمام
حينه، ولم يعثروا بعدها على جثتها... . فمن أين جاءت أسوارتي؟ وذلك
الشجر... .

١٩٩٤/٨/٢١

الساعة ١٢،٣٩ ليلاً

جَنِيَّةُ الْبَحْرِ

لا تتحسن الحال حتى إذا حدثت
الأمور للبشر على النحو الذي قد
يشتهرونه!

هيراكليس

في أممنا عالم حي ومعدن تكتلي
نعبأ به، ولكن ليس بوسعة أن
للمعبود السباح في أممنا!
جوان ١٩٦٥ ميلادي

كسي كسوف مفسدة كوكب التي
لكنك، تلتصق للأعناق للشبهات في
المرح.

كثير الأساندة والتي

جَنَّةُ الْبَحْرِ

صباح . حبيبي يرتدي اليوم عباءة الصباغ والرطوبة تسيل من قدميه .
أحلق فيه عبر نافذتي كعادتي كل صباح وأنا المجرع قهوج قبل ذهابي إلى
عمل ، كمن يشرق النطر إلى عشيقه .

زوجي يطار منه . يقول لي : لو عشتك وجلاً لبارزته في خليفة بولسويا
كأفرسان ، ولكن ما حيلتي مع زوجي الموتي مع نهر اسمه السين ؟

أتلعل النهر وهو يندل وجوهه وألوانه في كل لحظة . . . يرتكس أمني مزناً
بالخضرة بجمال مستحيل الاحتواء يدفع بقفلي حتى حباله البيضاء . . . وقد
سكب فيه فتان مجنون أصابعاً فضية ومادية ما كانت جنة «جزيرة البحر»^(١)
لقد بريحتها حتى استحك إلى نهر من دابق .

المجرع قهوجي واحتفي بذلك البهاء كله ، وجزيرة البحر كما أحب تسمية
هذه الجزيرة المني . . .

خلف نهر السين يتصعب برج ايفل بدائيله المعدني الطريف كلعبة ميكانيكي
لعفري مجنون . مبنى الرايبر العصري إلى بحيرة . وإلى يساري مبنى قصر شايفر
اليديع بحديقته التي ترقص فائليها في الليل سراً وتغرق بشرتها صيفاً .

ثوب الخلدائق يهوج غفيرة حتى مبنى «الايكول ميليفر» فيرج «المونيلانسي»
فيهوت تزدهي بخصوصيتها وعراقتها حتى كاتدرائية القلب الأندلس
«الساكروكوره» التي يكاد صباغ مونيلانز يلقها تحت وقاسمه .

لم أعد أشعر بالغربة في باريس . استجمل من نفسي أحياناً لأنني لم أعد
أشعر بالغربة في باريس كمن خال حياً قديماً اسمه بيروت .

لا أحد يصب الاعتراف بحبيبي في أن وأنا تربيت على ألحنية «أنت ومن
اللي حبيبي» ولا تعلدية في أي شيء . ولكنني أحبها مدام وأتهد وأحبة وحرية كلها

(١) Aïme des cypres . جزيرة شبيهة بنهر من الخضرة لتوسط نهر السين قرب برج ايفل .

عبطت في مطار لوزي الباريسي واجعةً من زيارة إلى بيروت! أغضض عيني تحت
وخط شعور خافت بالقلب نحو مدائني الأم بيروت. عليّ اليوم أن اختار وأنا
عاجزة عن الاختيار... حين أكون بعيدة أشعر أنني غنت بيروت، وحين
أعقب إلى هناك أشعر أن بيروت غانتني!

ثم إن الأمور أكثر تعقيداً من ذلك... (قال لي زوجي في الليلة الماضية
قبل أن ننام: عليك أن تهزمي أمرك وتتخذي قراراً: البقاء وحده في باريس أو
العودة معي إلى بيروت).

باللغة اللبنانية، هذا الكلام يعني: الطلاق. من غير القبول أن تعيش
امرأة في باريس وحيدة، وزوجها في بيروت ودونها رضا.

ظللت صامتة.

سألني: هل ثمة رجل آخر؟

ظللت صامتة.

كيف أشرح له أنه ثمة مدينة أخرى وحيدة أخرى لم أجد راحة في
مفارقتها؟

قال: ليس بوسعي أن أفهم كيف تفضلون حياة العمل والشفاء والفقر
النسبي هنا، وحيدة في باريس على حياة الزنا هناك في بيروت.

ظللت صامتة لأنني أنا أيضاً لم أكن أفهم ذلك. ثمة رقعة سوداء داخل
يلفها الضباب. أحيائي ضباب. «النعم» ضباب و «اللا» ضباب والندوب
البديلة ضباب والفراش الزوجي يغوص في الضباب.

ثم إننا قلنا كل ما يمكن أن يقال في الشهرين الآخرين بعدما تزوجت
ابتنت من زميلها الجامعي الذي تصادف أن كان لبنانياً مثلاً وعاشت معه في
بيروت، ولحقت ابتنت الثانية بشقيقتها لحاجة لمصليها العالي في إحدى جامعات
الولايات المتحدة.

بعد ربع قرن من الحياة المشتركة مع الزوج ذاته نصير قديرين على سباح
ما لا يقولوه ولكنه يصره: أريد زوجة مرتاحة مرفهة أثقة بالكعب العالي
والعدسات البصرية اللاصقة تنتظري في البيت وتشرف على الطباخ وبوسعها

مراقبتي إلى السهرات ورد الدعوات بأحسن منها. أريد بيتاً مقصوداً للنفس.
أريدك في البيت كما كنا قبل الحرب. . . باختصار أريد أن تعود شهادتك
الجماعية إلى المكان المناسب لها: معلقة على جدار المطبخ في (الليلام الزوجية)
أعرف أن المهارات آخر الليل مع رجل أحبه (بالرغم من أنه منكها وأنه
زوجي)، أمر موجه قد يدوم حتى مطلع الفجر خلافاً للشبه بالهوى. . .
يحدث أحياناً أن نحب الشخص الخطأ، ولعلنا لا نحب حقاً إلا
والنفس الخطأ.

لم يكن يومسي متناقض ذلك كله من جديد معه ولا غارسة طرف الشجار
كي أكون في عملي في الوقت الفكري المعتاد.

كرر: لم يعد يومسيك الخلاء عناية الأولاد في باريس حجة لبقاء هنا كما
لم يعد يومسي البقاء هنا والانتظار. يجب أن نحسم أمرك وتتخذني قراراً دائماً
مبسطاً للعودة إلى مكنتي في بيروت وإدارة أملاكتي وشخصياتي كما قبل الحرب.

كنت أجيء: أنت استطعت تغيير حياتك منذ بدأت الحرب وشريد
اليوم متاهتها من العظمة الغائرة التي توقفت فيها، كنتال عاد إلى الحياة، أما أنا
فقد بدأت حين الحليفة بالحرب التي أطلقت سراحي. . . كنت حبة أصل
طوال تلك الأعوام وتبدلت. . .

ولكنني ظلت صامدة إذ سميت أن قلت له ذلك مراراً. . .

أشرب ما تبقى من قهوي على صيف. ارتدي ثيابي. أصلح من لبتني.
مررتي تقول لي بشوة إني في الخامسة والأربعين وأبدو أكبر سنّاً من ذلك بعينين لم
يقلع ماكنها في إنضاه عالي السواد للثورنتين. وثمة نهاميد حول فمي
وفي جيبني فشلت للعاجين القليلة في مسح شهادتي على شعبي وشمي. وركضني
طوال السنوات التسع الماضية لثنتين ثوبت أسرى. ولكن حين حل السلام في
لبنان منذ أشهر تبث الحرب في حياتي. . .

أعزل صوب الميز. وألقت الزحام الحائق اليومي. راحة العرق للثنتين
لا يملكون لمن العطر ويمدون أنفسهم مساء أكثر نوماً من الاستمتاع بهيام.
المركة الصليبية اليومية لاحتلال مقعد في القرو يلمني الوقوف في مناطق العربة

وعرايا معرضة للتدافع بلثاكب، حين أصبح جزءاً من كتلة بشرية لمسلمي
موجابا وتلطمني بالجفون المعدنية وتروح بي ونحي، « تايضة بالارحاق والحيرة
والزخم، والقيام تدوس أخرى تعثر أو لا تعثر، وهم يكاد يحرقني وهو
يتدفق نازلاً عبر الأبواب المعدنية الآلية التي تنفتح بضغطة خفيفة دائرية حل
المقبض كآخر ما يميز الصلة بين الميكانيكي والبشري ولعلها آخر (تواصل)
بينها.

ويوم لا أخوذ بمقد، يكاد النهر البشري النازل من المرق في المحطات
بحرقني بفاتي المحيلة وجسدي الواهن المعتد، فأنتسك بأحد الأصعدة المعدنية
ربما يصعد (الرائد) الذي كان يتظر على رصيف المحطة ومن جديد تلهفي
موجاته بعيداً عن عمود «التجلاء» الذي يتوسط الحرية حتى الباب الآخر للمرق
المزهر الرافض في دعاليز العنمة وذعر صغير يستولي عليّ: ماذا لو انفتح الباب
تحت لعل النهر الحاضر؟

كل صباح أجد دودي في المرق لأنني لست محاطة بكتلة بشرية زحامية في
مدينة مكبوتة ولا تتمرغضت كأمراء لإدلال اندساس الأجساد المحسومة
والأصابع المشتعلة.

صحيح أنه لم يحدث أن نخل في رجل عن مقعده هنا، بالقابل لم يحدث أن
أعاني أحدهم مندساً في معطني في زحام الركض وراء اللقمة، فكل امرأة
خارج بيتها ليست هنا ومشروع هواية أو عاهرة حتى تبت العكس كما في
بلدي.

سألت مرة صديقي التي تعجبت: لماذا؟ فأجاب: الأرتاح من الضائقات
وأصبح حرة!

أشياء صغيرة تشدني إلى هذه المدينة كأمراء أريد أن أحدث عنها زوجي
لكنني أعرف أنه لن يفهمها، منها أنني لست هنا بحاجة إلى إذن منه لأحصل حل
جواز سفر إلى شخص مستقل هنا، مرتبط بأمراء، لكنه شخص له كيان.
إنسان مقبول لذاته كأي رجل في بلادي. أشياء كثيرة تشدني إلى باريس لن
يفهمها. .. بل سيفهمها فهو ينفوني فكاه لكنه يقول لي إنني أولها من

الاهتمام أكثر مما تستحق، وإني لم أجد منظرًا للاستحسان يحل محلها اليومية الفلسفية).

التجسس وأخيه عني اليوم. لقد وجدت مقعداً في القلوة. استراني قليلاً. أخرج كتابي ونظرة القراءة. هذه الجلسة أيضاً سألتفتها حين أعود إلى بيروت (يفتح لي سألنا الطهم السلب، فتركب سيارة المصطفى في الطريق لأنه الأعمال الخيرية الاستمرارية ككفارة عن ربح العيش، وأنا أثرثر مع صديقاتي المديجات بالأنوار الطعية والأساور والزينة والتهاب القضاة في معركة مستمرة للفوز بلقب الأكثر تعبيراً عن ثراء الزوج الحي أو الميت... ككثيرة إعلانات متحركة عن البط).

ها أنا ارتدي الآن بيط الثياب. أعود بحذائي في الكعب للمنظف في الشوارع ولزقة القلوة. أطلع الكعب في قطرات الطبقة القفعية التي كنت جزياً منها قبل زواجي وأحب حيوية ذلك.

في البداية بدت لي المطالعة في وسائل التواصلات العامة عادة غريبة. كنت أطلع وجوه الذين حولي من الناس.

يوماً بعد آخر اكتشفت أنني أحسن مطالعتها بشكل أفضل بعد مطالعتي لكل كتاب. وصرت مثلهم. أضع نظراتي البيضاء في القلوة خوفاً من قصر بصري فالأمور هنا مختلفة (زجرني أمي: كئي عن القراة. ستخسرين جمال عينيك، وافرعي هذه النظرات الفرية عن وجهك. ماذا يقول الناس إذا شاهدوك هكذا وأني عريس سيرضى بالاقتراب منك؟

كان يوسع الشفالي المذكور الأربعة ارتداء نظاراتهم بسلام أما أنا فكانت حلق أمي وخلاقي ومكان يمحلي الشعر بالحجل من نظاري وضبط بصري، فأعلمها في الشارع ولا أشعر على بعض الاصداقاء المعاصرين واستمع إلى لومهم في ليا بعد لأنني تجاهلهم وأخذت صلبة لا أجد على المرح بالحقيقة المخزية لشعبي الجسدي.

أما في السبيل فكان على مند صفري أن أضح النظارة على عيني سراً بعد أن نطنا الأتوار وبدأ التليم ولا زجرني أمي، وأزجها ليا بعد قبل أن تضاه

التيالة . وبقيت أعمل ذلك حتى عندما كبرت ولم أجد أرافق أُمي إلى السجيا .
قلت لها : ولكن غداً الامتحان . فكيف ترين أن (أناكس) وأندرس بلا
نقارة ؟ أريد أن أكون بشهادة هندسة الميكور .

قلت بلا مواربة : لماذا ؟ لتعليقها في مطبخ زوجك ؟
قال لي : أحدى ريكأليا هي التي اختارت الدراسة التي لا قيمة لها لا
شقيقها طالب الطب أو الآخر طالب المحاماة أو اليقون . تصوري كارتنا لو أن
الصبيين لم يدرسا الطب والمحاماة وسيلحق بها شقيقهما . اجتمع العوالي يزعم
فالتقاء بينهم عليهم باستمرار لجرء أهم دكتور ويدرسون فوق ذلك الطب أو
المحاماة أو الهندسة المعمارية . وكل ما عدا ذلك من دراسات عصرية مراد في
نظر أُمي وأبي .

ولكن يوسمي أن أندرس أي مراد يتأسي ريكأيا بالي العريس فدراسي
تقليد جاء من الغرب وسيضع العريس حداً لهزله في الوقت المناسب .

وجدت العريس . كان قريباً في الثالثة والثلاثين من عمره ومن أسرة عريقة
بيرونية ووسياً فوق كل شيء . وكنت في التاسعة عشرة من عمري ، متوسطة
الجمال ومشاكسة أتوق للتخلص من انضباطها القوي لي وتدخلهم في تفاصيل
لياسي ومواعيد عروجي كأنهم من جنس بشري لوقي نوعاً . لم يكن ثمة حوار
يشا بل قمع !

وقال لي نعم للعريس . وقلت لا ريكأيا لنجوز عراسي .

وتحمل الجميع ما اعتبروه وهنجأه من طرفي ، فقد كنا أقرب إلى القفر ،
واعتبرني الأسرة عتيقة وأنشقت على العريس من خطبة طويلة دامت ساعتين
لم أنتج خلالها في كمره كلها كنت المشهي .

كنت أتمنى أن أترد على هذا التخطيط المستمر لحياتي من قبل القفر
وتقبلهم معاً . ولكن وفق لم يزود عروكي بوقود الكراعية . وهكذا تزوجت
والنجبت صبياً وبنتين وأنا لا أعرف هل أحب زوجي أم لا .

وبوسط الزخاريد علفت أُمي شهادتي في المطبخ وتم ترويضني بثلاثة أطفال
وكثير من الرعاية . . . وسقطت في شبكة تنكبونية عيوبها من ذهب

وغيره).

يتوقف القزو في إحدى المحطات. أكتس ملء صدرى. إنه أقل زحاماً من الكورف، ومريح نسبياً في شهر آب حيث أنقاضي ضغط رانتي لأنني لم أنهب في إنجلترا كبنية أهل باريس.

حولى سواح يمشكون ويترزون بصوت مرتفع محتاج لأنهم في باريس. لكنهم لا يعرفونها حقاً، فيبارس الخفي في علبها مدينة أخرى مسحورة مربة هي التي وقعت أسيرة غرامها، وهو غرام شحذته الأطراف القاطعة ثلثت الكتب التي طالعها في القزو على مدى أعوام، وغلّته زيارات الأسبوعية إلى المعارض الفنية والمجالات الأدبية والفكرية في الندوات وعلى شاشة التلفزيون ومشاعقي المسرح والأوبرا كلها استطعت الاقتصاد من نفقات البيت للعذاب إلى ذواحمي المسخرة، وإلا غائزلة شبه المجانية إلى أحد الشاحف يوم الأحد ترويني. . . إلى جانب عشرات المعارض الترفيحية الثرية يتصف تسافر إلى باريس من كل مكان ولتقي فيها.

أضاع القزو في محطة «الايوال» وأبدله بمشرو آخر يقفني حتى محطة «لرانكلين» - روزفلت» في الشاترايزيد. هكذا كل صباح ومساء. (شبهت تانية بشالة مستشارة عام ١٩٨٦ حسن عرفت أنني تخلفت مراراً عن حضور حلقتنا التسمية لشرب الشاي في الرعدة الطولانية لتتلق «البلازا» أتيد، لأنني أحصل في دار الأزياء الكبيرة كجامعة ومسؤولة عن ترتيب التوجيه.

وقلت وإشفاق شامت: إذن صرت بالمة في المكان الذي كنت تشتري من ثيابك؟ وتذهين بواسطة «القزو» كل يوم؟ يا للهول، كم أنا أسفة من أجهلك!

كنت أعرف وقع النبأ في حلقتنا، نحن الذين ظلمنا نزلنا معاً في الاجازات الشتوية في شتاء وسان موريز سويسرا وسبينا صيفاً في «سواني كارلو» وتناولنا العشاء في «ليز» و «الكيب» ونجونا في بحوث الأصحاب بين «سان ترويه» و «كان» و «ليس بين صديقاتي من جربت وكوب «القزو» مرة واحدة، ويفضلن عليه «الرولز» أو «الريسيس» (الكوييه) الخاصة بين، أو «الجاكوار».

شيء ما في باريس جعلني مع الزمن لا أحتج من كون طيرة وأمارس أية مهنة شريفة، شيء في كبرياء عامل جمع القيامة وندالات المطاعم وكل العمليات هنا جعلني أعود إلى حقيقي كهيئة بيت فقير وأختر بها بعدما كنت أنستر عليها وأقرر: الإنسان إنسان ولهنة متشابهة أيًا كانت، وإذًا كان ذلك الانحسار الذي ثبته باريس وثقلته هو وحده ما نهى من قطاعات الثورة الفرنسية فهو يكفي.

لذا قلت لثانية يساظة وبلا مرارة: أنت تعرفين الحرب. زوجي لم يحط للأمر ولم يهرب شيئاً من أمواله إلى بنوك سويسرا، وثروته كلها عطلات في بيروت وأطيان وأراضير... والبيع الآن متوقف بسبب الحرب.

حسابنا في البنك هنا كان لحقات سياسة الصيف، وقد اشترينا بالبلغ بيتنا وانتهى الأمر ولم تعد ثقتك شيئاً.

كنت أشعر بغصة لم أجدتها هنا. بل بغصات، منها أن زوجي عجل من فقرنا وانطوى على نفسه ولما طلع الأصحاب، ومنها أيضاً أنه اكتشف فقرنا فجأة إذ لم يبق لدينا مال لشري به شيئاً بعد شرائنا للميت النجم في الدائرة الباريسية السادسة عشرة الأكثر وجاهة حيث يقيم الأثرياء اللبنانيون متابعين طقوسهم القبولية التشويقية، وبدلاً من إلقاء ما تبقى لنا بحكمة، اتخذ قراراته وتخذها دون أن يستشيرني أو يولي بتصالح تبرعت بها ولم تلق عدى غير الغضب مني.

لقد كسرت الضربة قاعدار بلا كلمات في قعر زجاجة عرق في انتحار بعدي فولكلوري، وكان عليّ أن أفتش عن عمل، بداهة بائنة صغيرة في «جالييري براتانه» في الفرع الصغير الخاص بدار الأزياء الكبيرة، ثم توقفت يوماً بعد آخر. زاد رائي وتغلطني المديرة إلى الفرع الرئيسي للبيع في أفنتو مونتيز حيث يتسوق الأثرياء من الجلسيات كلها.

في اليوم التالي للقضاء الشاي النسائي فوجئت بصديقات الأوس من زوجات الأثرياء اللبنانيين في باريس والغرب من معارفنا يحضرون للفرجة على فكري وقهري والاحتفاء بأن ذلك لم يحدث لمن يلى لي، وذلك بحجة شراء الأزياء من المخزون.

لم يضايقني ذلك كثيراً بعدما نجحت في بيعهن العشرات منها مرة واحدة وطلبت منهن العودة وإحضار الصديقات، وريحت من زيارتهن الفهري حمولة تكفي أساساً لمراسلة الأولاد وبالأخص للاجازة المتواضعة لعمومنا.

تدفقت الزبائنات العرييات. كنت أختار لمن ما يتسبهن وأقوم في الوقت ذاته بترتيب ديكور واجهات المخزن في ساعات عمل إضافية.

صرت أفتق على البيت.

توَجَّع زوجي بصمت وهو يراني «رجل البيت»، لكنه كان عاجزاً عن القول بأي عمل عند أحد وفاق سهرات وأيام العز والقرام.

كان يتطلب عاجزاً عن القيام بأي شيء غير ملاحظة أخبار الوطن والمجمل من حالي. وصار أولادي أكثر احتراماً لي، وصار لرامي أحمته عندهم وتكلمني مسومة في البيت لأنني أنا التي تنفق.

صهرت أن ذلك يضايق زوجي رغم حبه لي. يساغة: كنت قد تميت من تعليق شهادتي في مطبخ زوجي والقيام بمهمة مدير الاستقبالات والعلاقات العامة الزوجية، والحرب حررتني!...

يا إلهي! لقد نسيت القبوط في عطلة الیومیة (فرانكلين روزفلت) قرب «جادة موتین»، وما هو القبوط يتوقف في محطة الشاتليه!

أفانسه، بعدما شرعت عن عدة محطات!! (لن أنال بالقول على نفسي كعادل مع أنني خطأ ارتكبه. من حظي أن أشرد مرة فالقرار الذي عليّ اتخاذه صبر، وربما كان من الأفضل أن لا أذهب اليوم إلى عملي كالمثومة).

أعبط حتى شاطئ النهر. ألتقي على الرصيف المشيع بالضباب.

السباه ألتحق بنجوم صيفية حارة مسودة، كما ودعات روجي...

أصعد ثانية إلى رصيف الشارع. ألتقي بين البسطات التي أحياها وأجدها جزءاً من باريس السرية كالثبائل والعصافير والمغاهي العتيقة وأزقة الزمن المنسي وبيوت البدهين والمنازين.

أحياها، بسطاط باحة اللوحات والكتب النادرة والمفاتيح والتذكارات على

شاعريه السين. معظمها اليوم مقلد ربما خروفاً من الطير أو احتراقاً لضهر
الإجازات آيب.

أوقف طويلاً أمام بسطة تحمل مجلات لندية لغوات الذكريات. أناملها.
هذه مجلة «باري مانش» الصائفة في الأسبوع الأول لوصولي إلى باريس وعمل
خلالها تنصيب رومي شتايدر لمصرع ابها.

أذكر هذا الغلاف جيداً فقد طالعت المجلة يومئذ على متن الطائرة التي
أقلتنا من لاوكا إلى باريس، ولعاطفت كثيراً مع تلك المرأة بعدما عاينت طويلاً
من عذابي على أولادي من الموت في المدرسة أو بالأوتوكار، أو في حريق بيتنا حتى
بدا لي من السخط الكلام عن شياخ الكثير من أسلاكنا ومالكنا بعدما كنت
المستأجرون من دفع بدلات الأيجار وانبهارت قيمة الليرة اللبنانية. . . وكان
زوجي ما يزال يفتق صلب ١٩٨٤ كعادتنا مما لدينا في بتوك سويسرا وباريس،
يل إننا سالرنا من باريس للاستعياض في لوسرن فلندن فكورسيكا فالزيفيرا
ونحن نقيم في فيلا مفروشة فاخرة قرب «مراج مشوره» الشانزليزيه.

وإن الخائف. جمانا صوت صاحبه القليل نرجونا انحللها لأنها سرمد
الاقلمة فيها.

أجانيا زوجي على الطريقة اللبنانية: نحن مرتاحون فيها وسوف اشترينا
منك.

طلبت منه خمسة عشر مليون فرنك لنسأ للقبلا.

انفقد لسانه. لم يعد يوسعه أن يتابع المكالمه. صابر يرتجف والعرق
يتصبب من جبينه.

تناولت سحابة الخائف منه وقلت لها بدوء: مستفكر بالأمر ونرد عليك يا
سيلي.

كالمقل المدهور لوجي. بحقيقة لم نخطر له ببال: لم يبق لديه غير أربعة
ملايين فرنك لا أكثر، وهو مبلغ لا يكفي ولا يصلح لي نظره لأكثر من شراء
بيت باريسي متوسط، ولم يعد يوسعه أن يبيع عقاراً لأن حركة البيع والشراء في
لبنان متوقفة والمستأجر تلصص عاجز عن الدفع لاهيك عن الشراء.

لم يواجه هذه الحديقة بصوت عالٍ إلا بعدما عذّات من روعة وأخذت له صحن منبولة وتكلس عرق، وصارت تنظر إليه للمرة الأولى عذراً من ثروته وسطوته. إنه نصف أصنع قصير القامة يكثرش مستدير لطيف كاستدارة وجهه، وله عينان خضتان فوق أنف حريش وفم واسع.

امتلاً قلبي حناً عليه، وحين ضمته إلى صدرتي كقطف خائف في الظلام خُفّ لي أنني للمرة الأولى أخطو في درب حبه...
إنه مدهور كما كنت دائماً في ناعي لجرد التي امرأة. شعرت أن خوفه بقرباً من بعض كما لم يفعل يوماً مثله.

الجميع نال أخففة لطيفات الحقيقة. هذه مجلة الكيفلور (الشمس) لعدد يرجع تاريخه إلى عام ١٩٨٩. التاريخ مكتوب بخط صتي. .. (قلت لزوجي ليلة رأس السنة عام ١٩٨٩ أحيك حقاً).

لم يكن بوسعنا أن نسر خارج البيت طوال الأعياد الحبيسة الماضية كما كنا نفعل في بيروت كل ليلة، لقربنا القفر وأخذت حياتنا الداخلية بأولادنا. قام أبنا ليلها بتزيين القبة الكبيرة الشبيهة بالشجرة بأوراق الكليلكس، فبدت شجرة ميلاد موزة الية. أما ابنتنا الأولى فوسعت على شاشة الكمبيوتر حين وثقتن ووضعنت المثالية فوق سطح الكمبيوتر مكتبة لتقيد الغبار كالشمع الطريف وقتنا إنه ضيف الشرف في السهرة. تعاون الأولاد وزوجي في إعداد العشاء وشرء الحانجات في غياي إذ كان عملي يتضاعف في فترات الميلاد وراس السنة. تكشف طابع زوجي عن ولة مفرطة ولقرة على الحنان والمعلوبة شعوي: يشفق عليّ من تعمي. يستأذي في أعمال الطبخ متابعلاً ويقوم بها وحده في أيام إيهامه. يذوي بصمت لكنه لا يدخل بدعايته عليّ وعلى أولادنا مهناً بشؤونهم بعيداً عن الذبكاتورية الشراية. ولعل حرصه عليهم يجعله يمتنع عن الحرب إلى زجانية العرق.

ليلها نقلت إلى أسري نأ تعيني مشرفة على مكنوسات حار الأزياء القاصرة في المراسم الأوروبية كلها إلى جانب عملي الخفائي بما يعني مضاعفة راضي أربع مرات. صار بمقدورنا اللعب صيناً في إجازة ندم شهرأ كمنلاً

للمرة الأولى بعد حصة أعوام من القفر.

صقن أولادي واستعطي زوجي قليلاً، ولكن حثاننا الشياكل على كهولتنا وأمرنا تغلب على معظم المشاعر السلبية. بل، بقي بعضها: كلها نجحت في جعلنا كان هناك التداخل يتأزم ويتقزم ويصمت مكرها ولا غير له فيها يحدث لأن لا مصدر ثانياً للوزن لدينا.

كان ملياً بالألفة والكثيراء، ولا أفقه جريب الاستدانة أو (الرهن)، ومن يرضى بتدنيه مالا حتى ولو من مقابله قصراً يملكه في الزلازل والغرب والنار؟ كان ثمة لا غير. الأولاد تكيفوا سريعاً مع الانقلاص وصار لهم أصدقاء متظم، أما زوجي فكان يهرب من أن إلى آخر إلى قاع زجاجة العرق. ولين أنسى كم غضب يوم اشتريت لوحة (البيوغرافي) لندالي. كنت أقتل مسيراً لتخليقها حين صرخ: لا ندالي مسيراً على هذا الجسد. لن نبقى هنا في الغربة!...

أهم طويلاً على وجهي. أطلع جسراً. أمتني، أمتني على شاطئ النهر صوب «كبة دورماني».

عابرة اليوم عن الغرب إلى العمل. لا مناص من ثقافة فرار. لم تعد المياطة جديدة.

لقد واجهت البشر بشجاعة أكبر من تلك التي لواجه بها هودنا إلى الزاء (فلك اليوم وصلت الرسالة التي كان زوجي ينتظرها طوال ستة أعوام، وكنت أعرف أنها متصل منذ توقفت الحرب اللبنانية، وهبلى وجه زوجي وبدأ يتحدث بحماس عن العودة إلى بيروت.

منذ ذلك الحين فرحت بلزدهاره وتوجست شراً من فكرة العودة!.

قلت له إننا لا نستطيع العودة قبل أن يخرج الأولاد من الجامعة.

فرجت ابنتي وأرسلت لنا بعددنا بأسبوع يرفقة من بيروت: تزوجت (خطيفة) لتوفير تكاليف الأعراس من ليل الذي أعرف أنكما تحبانه وعدنا إلى بيتنا هذا!

شقيقتها خلعت بابتها الشاب في جامعتها الأميركية. ولكن لم يتبدل الكثير

إلا يوم وصلت تلك الرسالة التي طال انتظارها.

بومبا لم تدر كنت أن شيئاً استثنائياً قد حدث: فارتدت زوجي وقته شبه الألفية التي ترجي منه في أيام الفقر وعاقبه برين عينه القديم، طريق الأثرياء للتصبرين وقال لي: هذه الرسالة لكفك. ففتحها. وجدتها إشعاراً من البنك بدخول مبلغ ربع مليون دولار إلى حسابي الذي لا يتجاوز ثلاثة آلاف فرنك فرنسي (أي أكل من ألف دولار). أعلنت. ربع مليون دولار إلى حسابي؟

قلت له: ثمة بالتأكيد خطأ ما. ثم إنني لا أحب عاتلك في فتح رسائلي حتى ولو كانت من البنك.

الجعل ملاحظي (الأوروبية) وهو الذي طالما سخر من بلزيسي المتأخرة، وقال: ليس ثمة خطأ. هذا مبلغ هدية مني إليك. لقد بعت لروحاً صغيرة في بيروت وأحببت أن أهديك ثمنها. وثمة هدية أخرى لك. ثم سأهدي أوراقي كلها فوجدتها مبهورة عند كاتب العدل الذي باعنا بيتنا وقال: وهذا البيت الباريسي أيضاً هدية مني إليك حل ما قاسمت في الأعوام الماضية وحل ومالك وتميك. لقد جمعتنا كلنا في البيت لسخر بك. والآن حان وقت العودة إلى البيت في بيروت، وإلى حياتنا السابقة. ويهي هذا المنزل الباريسي لإجلازنا.

شعرت أنني مثل محارب أحاطه على التقاعد وجاء وقت تقليبه الأوسمة نهيداً لفته!

تابع: هيا ارتدي ثيابك لتخرج إلى العشاء في مطعم فاخر. تذكرني أننا لم نعد فقراء وهذا أرافقتك إلى مقر عملك لتقديم استقالتك وسأشتري لك من هناك بعض (التليدات) وقساوين السهرة. انتهى الزمان الذي كنت فيه بائعة هناك وستومدين زبونة... ولم نعد بحاجة إلى شراء الثياب من «تاني»^(٢٠) ولم نعد بحاجة إلى عملك...

ارتديت ثيابي المتواضعة وأنا احتش، إذ شعرت أنه لا يرغب حقاً في

(٢٠) تاني: هزن بيع الثياب البالية القديمة في فرنسا.

إعدادي تلك التروة بل يريد استعادة سطوته على وشراتي والتأكد لذاته قبل إنه السيد وقد استعاد حرته .

واقفته للسهر في مطعم دلو ديوايان، وأنا مذهولة من وقع المقابلة. كان على أن أحرف منذ توقفت الحرب أن زوجي عاد غنياً وأن أموراً كثيرة سيبدل. والقصة بقية السهرة عند دريجين، وكان يجني الأصدقاء يزعم وقد عاد السيجار الضخم إلى شغفه وعادت الحرارة إلى مصالحتهم لنا وختابهم ليناينا كما تقضي الأصول .

حين عدنا إلى البيت استلقيت فيحولة نسيها منذ أيام شهر عسلنا، وهو الذي لم يفريني منذ أعوام طويلة، منذ صرنا فقراء، ولم أشك أو أشعر . . .

فقد حلّ الحشان في قلبي نحو حزنه محل الشهوة الجسدية، ونسيت جسدي في غمرة تحصيل الرزق والتعلق على مصير الأولاد .

حين رحل في مجاهلي تلك الليلة موافقاً ضياطين المغاور القائمة المهجورة والتأشيد عرائس البحر كنت أشعر أنه ليس أكثر قرباً مني مما كنا عليه ونحن نطعم الحمام والطيور والتوارس في «جزيرة البجع» في عطشي الأسبوعية كل يوم أحد طوال أعوام الفقر . . .

ظل طوال الليل يركض بي على شواطئه حارة مشية وهو يصهل نشوة ثم يستحيل جواً مسحوراً يطير بي من قمة إلى أخرى، وعند الفجر إنهار نائماً متعباً ولم أتم .

تسللت من السرير وأنا لا أعري لفتا .

عسلت بهايا ماكياج السهرة عن وجهي جيداً .

شربت قهوان أمام النافذة . ارتدبت ثياب العمل البسيطة كعادتي وحملت الرواية التي كنت أظلمها في الخرو خلال الأيام الماضية ونظاري البيضاء للفراسة ولم أنس حل بطاقي الشخصية الفرنسية في حال طلب البوليس من إيرازها، فالمفادات تتركز على التزو وأهل التزو، وكنت قد نلتها وأولادي منذ أشهر ورفض زوجي أن يقدم بطلب الحصول عليها معنا .

تسللت من البيت بهدوء إلى قطار الانطلاق في طريقي إلى العمل كمثل

صباح . وكان قد استيقظ ولال في نصف نائم وأنا ألتفتير السرير : يبدو أنك لا تفهمين ما حدث لنا .

أجبت : سألتهم عن موعد عملي .

هرولت وحين عدت مساء كان زوجي قد أحضر طياراً يُعدّ الطعام بعدما شاركني والأولاد أعمال المطبخ والشؤون المنزلية طوال أعوام من الفقر والعمل الكادح) . . .

لا مفر من التحلة فرار . أعرف أن صديقه نقد ولا شيء بعد اليوم يمكن أن يرفقه حل الإقامة في باريس .

لن أذهب الآن إلى البيت كي لا تتشاور . ثم إنني لم أقرر شيئاً غير أنني متعبة! سأجلس في صالون الشاي هذا ربما بين موعد لقائنا في «جزيرة البيج» تمام الثانية ظهراً . وهو المكان الذي اختاره رفيق لذلك اللقاء الخاسم حيث تتناول النساء الآخرين على مقعد (البليئة) الأزرق المجلد . اختياراً موفقاً، لأن البيج والعصافير والأشجار والنهر ستكون كلها حليقة حبه في قلبي ، وستذكرني بأيام الفتر حين اكتشف رفيق حنان الطبيعة ، أما المجانية ، واكتشفت أنني أحبه ونمة آلاف الأشياء المشتركة التي تربطنا غير المال .

تأتي ثلاثة صالون الشاي . اختار ما أشاء دون أن أقوم بعمليات جمع وطرح للتوفير كما من قبل . الثراء مريح . . . (أشعر بالراحة في هذه المليون التي لا مبرر لها كما كانت في مقهى إشراب الشاي وحدي يهدو . أقرأ على التمثال الأثري (السيراميك) المجميل في الفترية الملائمة لي : «أربعة أشياء يجب أن تتوالى في المرأة : أن تعرف كيف تبدو كليلة . كيف تتصرف كمسيدة . كيف تدفكر كرجل . كيف تعمل ككاهنة . لعل نقّدت التعاليم البالية هذه كلها ، على مدى دهور في بيروت . أما الرجل فليس مطلوباً منه هناك أكثر من أن يولد رجلاً! . . .

لقد نمت ولم أعد قادرة على التكيف من جديد مع مجتمعات تقوم يوماً بفلاني وبالعراقي بصورة مباشرة وغير مباشرة في صغائر الحياة كلها وكبارها . هنا ارتحت من التفاصيل الصغيرة كلها التي كانت محبتي في وطني ولا أعرف

كيف أريد عليها إذ تبدو جزءاً من العذبات المسخدة التي لا تتوقف حين للاحتياج عليها... لم أجد الشعر أنه من العادي والقبول أن أعان ليجرد أنني امرأة ولا يحق لي السفر إلا بإذن ذكر وأنا التي حدثت ذكور أسرى كلهم في القرية والشفاء بأستبي كما تحمل الفتاة صغارها... ولم أجد رغبة في سماع الحكايا أو قراءتها في الصحف عن الرجل الذي نجح بخته لسيرتها الذي لم يعجبه وعن الذي طلب زوجته إلى بيت الطاعة وعن الذي تزوج أكثر من امرأة وعن الذي يرفض تطليق زوجته ولقهرها بتزوج عليها وعن السخيرة من النساء والأقوال المشهورة التي تتنافس الصحف حل تلرها... وإذا أحبوا امتداح امرأة فقلوا إنها «أخت الرجال» ولكن أخت أي شيء منهم؟ الآن، أنا أمثلك بيتي وربع مليون دولار في البنك وصحلاً يكفي ذلك السؤال، وجسدية في حولة ستؤمن لي شيخوختي وتقلات مرضي ولقاعدي واستطيع القول إنني امرأة حرة، وإني بحريتي هذه قد اختار للمرة الأولى، زوجي، فوجم تزوجت منه لم اختار حقاً ولم أكن حرة حقاً لتكون في مشيئة... لا أريد أن تغترق، ولا أريد أن أعود إلى بيروت، وهو لا يمكن أن يفي هذا وأولادي لن يسكنوا عن تركي لوالدعم ويقتاتي هنا. لا أمري كيف أحل هذه المعضلة. لم إنني في جوهر الأمر لا اختاره وحده، اختاره والوطن معاً أو أعصرها معاً... فهذا العمل؟

إنها الراشدة شهراً. زبائن النساء يتفقون حل صالون الشاي وما هم يطردوني بطريقة فرنسية لينة: هل تريدن شيئاً آخر يا سيدتي؟ هل تريدن الغداء؟

- لا شكراً. كم الحساب؟

(أذكر بيروت بيمين. الطاولات عند (مينو) حل شاطئ البحر التي كنا نجلسها ظهراً لشرب قهوجان قهوة و (نفس أرميلة)*) دون أن نطلب الغداء وبدون أن يطردنا أحد.

أذكر مدن الأساطير واللامستقر والطرائق لا القسوة وحدها... .

أذكر أنني كنت طرفاً فيها يدور، لا مغتربة تنتظر أن يصير الوطن مكاناً

(*) أرميلة : تاريخية.

صالحاً للحياة كي يحب.

فلما حدث؟ حدث شيء بسيط وعارٍ في أن: لم أعد أؤمن بالمعجزات ولا حكايا ألف ليلة وليلة).

استوقف التاكسي الأول. اطلب منه أن يذهب بي إلى منتصف جسر دوبراكيوم حيث أجد مدخل «جزيرة البجع». السيد تزفان طلباً. زوجي يريد أن يتحلى. أمام تق من الحفرة مشينا فيه وشهونا الأشجار. أن أقول له حل مرأى من البط والحمام والنوارس والمصافير التي طلكا أطمعناها معاً: سأبقى وحدي هنا ولن أعود معك ولن أترك همل. ولكن كيف أقول له ذلك في «جزيرة البجع»؟ التهب حين له للمرة الأولى في هذه الجزيرة المسحورة بالجمال. يعرف أنني لم أحبه حقاً إلا بعدما عرفته وعاشتته في أيام النظر. واكتشفت أشياء كثيرة نجعتنا منها عشق الأشجار والمصافير. لقد أنجعتنا أولادنا وعشنا معاً سنوات وكل منا لا يعرف عن صاحبه غير مواضع التوبة في جسده ومواعيد الاجلقات في أوروبا وأرقام هواتف الشاليه الخاص بنا في «طبرجا» ينشره وشقة برمانا وشاليه الموج الأزرق. في «جزيرة البجع» تعارفتنا حقاً. كنا نراعي من توافد البيت: مستطيلة كالمشي تتوسط نهر السين لها عرض شلوح لا أكثر وعلى جانبيها أشجار ظلية. (قال في ذلك الصيف الغابر ونحن نعد طعامنا المتواضع في المطبخ للغداء ونطل من النافذة على نهر السين وجزيرة شبيهة بالنهر المنطى بالأشجار تتوسطه وأولادنا في الإجازة مع رفاقهم في «الكولوني» في «لاكورس»: هل تذكرين كيف كنا نناول طعام الغداء كل يوم أحد في غابة بولونيا في استراحة ناهليون «الجراوند كاسكاده» أو عند «برج كاتالان»؟

كنا قد صرنا لسجل كل فركتة تنطقه لتعلم كيف نوفر، ولم نزر مطعماً طوال أعوام. كفتيرة قديمة، لم يكن ذلك صعباً عليّ مثله. لذا قلت له: لا شيء. نمتنا من حل طعامنا كما هو والنزول إلى أحد المقاعد الزرق التي توتر «جزيرة البجع» والأكل هناك قرب الماء والحفرة.

هذه اللبنة ليست معادية للفقره وبوسع المرء أن يتمتع فيها بالياحج كلها وهو متوسط الحال مثلاً باستثناء مياحج الشلوف.

وعكنا رحنا نعد طعامنا لأول «بيكتيك» أو «سيراند» لنا في باريس...

وفوجئنا بكثرة الأشياء التي ينبغي على المرء أن يتذكر حملها معه: الملح، الماء، الجمرة، البندورة، الخبز، الجبن، الفوط، فتاحة زجاجات الجمرة، البهار... إلى آخره. قال بصديق صدر: رحم الله أيام الخدم. هل تذكرين كيف كانت وزينب صعب من سريرها حينما نعود من السهرة في الثالثة ليلاً ومبيت من جناح الخدم لمسكننا ما إذا كنا نريد أن نعد لنا الطعام؟ قلت له: أجل، لكنني أذكر أيضاً أننا صرنا بعدها لنسأل على رأس أصابعنا لتفلق في الحطب من رقابها. ومرة نرحمنا أننا فعلنا، وحين عدنا إلى غرفة النوم وجدت ثيابي التي كنت برميها على الأرض مع المجوهرات وقد تم تعميدها وأعيدت المجوهرات إلى عليها. كم ضحكنا يومها لأننا تحت المراقبة مثلان حتى الاختناق. قال بصصة: سئى الله أيام زينب، و «أيام العزة»... وكل يوم يكننا منه ثم يكننا عليها

أين زينب اليوم يا ترى؟ يوم بدأت الحرب تشر بالافتجار واختفت إلى الانفصالية المصرية وطلبت من صديق ترتب أمر جواز سفرها بعدما قامت بمخالفات قانونية (مسكنة) ودعيتها على الطار وقالت لي: الله لا يربك بذلك القدر، وكيفها وقعت لتسبطني على قدميك.

أعني دعوات زينب التي تسحت الأبواب المغلقة في وجهي؟
من يدري لعل تلك يحدث في هذا التكون المسكون بالأمراء...
يتوقف السابق: وصلنا يا سيدى.

لعبط التدرجات الحجرية العديدة إلى «جزيرة الجميع». ثمة شيء من السحر هنا. فجأة يتفصل المرء عن المدينة المألوفة بمعنى ما ويدخل في باريس السحرية اللامرية. ولعل ذلك ما يجعل أهل المدينة يرفعون خط القرو الحديدي فوق جسر شاهق كي لا يهزج ضجيجهم سكينة الكوراء، وربما كان يوسمهم منه في نفق تحت سطح ماء النهر وهم الذين حفروا نفقاً تحت البحر.

ها كنا أسواق الضخيم زينب والقرو والجسر ونفق المانش وأي شيء هرباً من احتمال قرار بسط معتد: هل سأعود إلى بيروت مع زوجي أم أبقي وأصل هنا وأعرض نفسي لطلاق أكيد عاجل أو آجل، إذ سيقرر التماس عن عصيان وسيضطر زوجي لتطليقي حفاظاً على كرامته وسمعته.

لقد حافظنا على تماسك بيتنا في القفر، فهل سيقربنا الثراء؟

منذ استعاد ثروته فقد ذلك التعبير الأنثوي الخنون في وجهه وسلوكه وعادت إليه فحركته وشهوته للاستلاك و«ديكيتيه» وأعرف أنه الرجلان في آن -

شيء واحد لم يتبدل فيه منذ عودته غنياً: إنه النطق بالفولكلور والفكرات. يحاول أن يستعيد تعابير محلية، ويجمع الحديث عن دكاكين بيروت الأخيرة ومقاعها التي لم تعد موجودة ودمرتها الحرب وعاداتها الشعبية... وإذا حاولت مشاركته منته تعلقاً بزيادة عليّ دائماً... فليلاً ترحمت على منفيهم والأروادة الحق في وسط بيروت المهيمنة، ترسم هو على المبنى الذي كان قائماً قبل «الأروادة»! ولما التفتت منفي «الأكسبريس» سخر مني وتكرمني بما كان هناك قبل تعمير «مين صباغ» حيث يقع منفي «الأكسبريس»!

إنه ما يزال يعيش في بيروت طفولته، بيروت ما قبل نصف قرن.

أعرف وجهه الفولكلوري ووجهه الخنون لديه ووجهه الشهواني ووجهه للكسور ولا أدعي أنني أعرف وجهه كلها. أنوعم أحياناً أنني أعرفه ولكنني أعني كلها مرت السنوات علينا معاً أن ثمة دعاليز تقود إلى دعاليز في أمهات كما هي حال. ولا أحد يعرف حقاً أي شخص آخر حتى ولو ربطت بينها عقود من الزواج.

إنني بالتأكيد أعرف هذه الجزيرة الجميلة الشبيهة ببحر مسحور بالفصل عما أعرف زوجي! أعرفها شجرة شجرة عصفوراً عصفوراً خيمة خيمة صعلوكاً صعلوكاً.

ما أسهل معرفة جزيرة وما أصعب معرفة إنسان حتى ولو عشنا معه سنوات طويلة.

إلى يساري عدة درجات تقود إلى النهر كأنها مرمى لسفني لأميرية تحمل لروحاً هائلة لمجانين مثلي، تاهوا في الزمان والكثان ولم يعودوا يبدون إلى أين يتعمون.

هذا المقعد الأزرق بمنته كل يوم صعلوك برلندي ثياب جنرال ويزين صدره بالتياشون وشرب النبيذ ليل تباركها صباحاً من زمان، أيام كنت سائحة

في باريس كنت اتوهم «الكولوشارات»^(٢٤) مشرفين كسالى لا أكثر. الآن أعرف أن الصعاليك غير المدن وبعضهم استطاع أن يتحرك في باريس السرية اللامرية صراحة احتجاج وهو يسافر التائب والحمام والمصافير والتواريس كذلك شعوب الحرية. هذا المقعد الثاني تحته معلومة عجوز أرثوذي باستمرار ثياب الأطفال. تبدو وكأنها لا تدوي ماذا حدث فجأة، إلا ما زالت طققة لكنها تبدو من الخارج عجوزاً، لا تفهم لماذا اعترا جسدها وروحها ما تزال بتناً صغيرة. وهذا معلوك ثالث لا يرفض الصدقات لكنه يرفض أن يقدم مقابلها أية تنازلات ولن يجلسي عن حيله مقابل الصدقة. وأن يشكرني أيضاً. ويكتفي به شرف قبوله لها.

هذا هو عمل الأقل السياريو الذي وضعته وزوجي لاولئك الصعاليك وسواهم مثل تعلقتا وجزيرة البجع، فصارن المكان الذي نزلته كل يوم أحد. (انظري كم الطيور متعجزة وغريبة الأطوار وسريعة الحرك. هكذا قال لي زوجي في (البيكنيك) التالية لنا حين أطمعت الحمام والمصافير ما زاد عن حاجتنا من طعام.

أدعى أنه يشعر بالرغبة في رفس حملة، لكنه اكتفى برفس صحن طعامها القصديري الذي تركته لها.

في الرمت التالية صار يطعمها بنفسه ولم ينسَ التواريس على صفحة السير وصار يرمي لها بقطع الخبز وتعجبت من القيامها.

كنت أظن التواريس مخلوقات متوحشة مثل - أو هكذا أوحى لي بذلك الكاتب باخ في روايته «جولتان ليفجيسون التوريس» وكنت قد قرأتها في القرو. ولكن لا، إنها كالنسر، جالسة إلى الحب، ومستعدة للاتحاد لالطاف وزلها والمحبوط من عليها تحليتها إلى أية يد مومضة عليها لقيبات غير وحب. . .

الحب. أعيت زوجي انقلس العائل عن العمل المريض عزلي المظب في وجزيرة البجع، كما لم أحبه قط من قبل. إنه لأمر عزلي أن يحب المرء شخصاً

(٢٤) جمع «كولوشار» وهو الاسم الذي يطلقه الفرنسيون على الصعاليك القشرين الذين يتحرك في الحدائق العامة والشوارع.

آخر من أجل حيويه قبل فضائه . لكن تلك حدث لي وأنا أضيق إلى صدري
 فجمعت يوطه وحزنه على ما آل إليه في زمن استقار المصائر الفردية ، وانقضى
 يركله مع صفاته (الأثوية) الخفية من حنان يلقح على تولادنا وطية مطرقة في
 مواجهة مأساته لدرجة حيرة عن فهمها ، وامتنان شفاف منه أمام نحيبي في
 مصارعة قدرتي . . . قدرتنا معاً . . . كان مثل نائه على مركب متوحش الأتواء ،
 وكنت أبتل صلته الجميلة وأحنّ على وجهه الحزين الصغيري ونحن نتجرح
 الجملة على مقعد الزاء الطبيعي الجميل في رحلاتنا الاسبوعية الصغيرة إلى «جزيرة
 البجع» . ولعبارتنا مع غيلوقسابا . نصفها الأول من طسوف
 جسر «ير أكيم» مفروز (للشفتي) القائمة : أي يقطن مقاعدتها الموسعة الزرق
 صعايلك «العمود» . النصف الآخر الناحية مبنى لتراتيدو مكرس لضيوف الأحد
 مثلاً . آخرتنا لأفنتنا مقعداً في منتصف الجزيرة قبل الجسر الذي يعبره نضرو
 الضواحي (R.E.R) . نلرح حين نجد مقعدنا فارغاً لم يحظه أحد باطلاتنا الحلو
 هل القارة الخامسة عشرة الباريسية بناطحات سحب حي «فرونت دوسين» .

قبل أن يجلس وليق يخرج زجاجات البيرة ، وعلى مقعد الطقة الأخرى
 الذي ادار ظهره لنا مطلقاً على القارة السادسة عشرة الباريسية يجلس دائماً
 الصعلوك ذو اللحية الطويلة والقبعة كاليهودي النائم الذي يتحدث بصوت
 مرتفع مع النوارس والطيور ويحيى بعض المارة ويدلل أطفالهم .

هكذا كنا نجلس ظهراً للظهر ، «اليهودي النائم» من جانب و «القبلياني
 النائم» من الطرف الآخر والحمام والنوارس والطيور تركض حيلة وتدعياً ملاحقة
 رؤيتها .

هناك أيام القفر اكتشفت متعة عطلة نهاية الأسبوع بعد اسبوع شاق
 أعيشه إنساناً حائلاً خارج إطار اللعبة الإجتماعية المزدلية البيروقراطية . . . ولم
 بعد وفوق يتحصر على أيام المطاعم الضخمة ظهر الأحد «كالكراوند كاميكاد» .

حين انقضى الصيف وتعمرت الأشجار ظللتنا لزود «جزيرة البجع» في
 البرد القارس فقط لإطعام المصايفر والحمام وكان ذلك بشكل اعترافا بشريعة
 العلاقة بيتا ، وكنا نحار دوماً : لانا تدعى «جزيرة البجع» وليس على شواطئها
 بجعة واحدة ؟ تأتي بالطعام ، في البداية تهجم أسراب الحمام . ثم يأتي ذلك

المصفور التحلي الطريف، الغريب يريش أبيض كالنارج في رأسه يميزه إلى جانب لونه الخارقة على الحرب: يلتقط قطعة الخبز من بين عشرات الخيام ويطير بها عارياً ليأكلها يده في مكان آخر تتجمع عليه عصافير أخرى تلازمه ليلها. كنت لراء مصفورا استثنائيا لا أري نادا يذكروني بظهاهه الطريفة بيروت وأميزه من بين المصافير كلها وزوجي ينوك ساعرا من إته ناديا مصفور آخر. وأنا لا أصفق فلكه.

إننا دوما بحاجة إلى تميز مصفور ما كي نختزع الحب. وهكذا اغترعت له أسيا من حكايا جندى الأسطورية: الشاطر حسن).

إنها الثالثة إلا ربع، والسحب تجمعت في السماء حتى الزهرة الرمادية الغامبية. هذا هو موعدنا المكثوف.

أجلس عليه، وعلى القلا لقرارا وأنا أفكر بكل شيء ولتي شيء، بالمصافير والصعاليك والذكريات ونسمة جزيرة البحر، التي لم أر فيها مرة بجمعة واحدة، باستثناء القلا لقرار. وما هو المصفور برأسه المتوج بالأبيض يقترب مني بشيته الطريفة فقرة إثر أخرى وليلي يلبس تحفه باللحبة وأسأله: كيف عايتك يا شاطر حسن؟.

ينهر الطر فجأة في عاصفة رعدية تتأرجح برقا ويهرب المصفور.

أناده: لا تلعب يا شاطر حسن. سأعفيك من العاصفة فاعل معطفي. يشتعل البرق شجرة ضوئية كثيرة الأغصان شاعقة حتى قبة السماء، ويهبط عن هذه الشجرة العالية بجمعة يضاء طويلة العنق هائلة الحجم وتقول لي كيا لي الأساطير العربية وحكايا جندى: شيبك ليك عيتك بين يديك. . . تفوقها بلا صوت لكنني أسمعها فاعل أني كيا لو كان صوتها الرعد. . . تنسى الطر الذي بدأ يلالي. أراهم خروفا وأنا أأمل جسدها الكبير كطائر الرخ، ورشها الأبيض الذي تمش أطرافه تكون لوس قرح كأنها خارجة للكن من حكايا ألف ليلة وليلة.

تقول لي أنا جنية البحر. اعديك أمزيين احققها لك. أنا مدينة لك بذلك. ماذا تريدان؟

مزيج من القهول والدمع يجفني. حين أجد صوتي أسمعها يقول: إنني

أحلم بالتاكيد...

تقول جنية البجع: ما الفرق بين الحلم والحقيقة؟ أهدئك أميتين. ماذا تريدن؟

- قيل أن أقول لك ما أريد، من أنت وما حكايتك؟ أما زال ذلك يحدث في هذا الزمان؟

- لا شيء بذلك حقاً. ولا أستطيع أن أقول لك حكايتي لأنني أموت إذا بحث بسري.

- قول لي الجزء الباح لك لقوله.

- أصبحت مرة مصفوراً وعاشت تقاليد البجع لعائني ملك الجان بأن رزقت مصفوراً بدلاً من بجمعة هو ذلك المصفور الضال المختل الذي طلقا حنوت عليه ودعوته الشاطر حسن وأطعمته وأفلكت بذلك حياته مرات إذ كان يرغب أن يأكل من متفاري، ربما كجزء من عقابي. لهذا أهدئك أميتين.

أقول لها: ولماذا أميتين لا ثلاثاً كما في الأساطير كلها؟ (أي بالتاكيد أحلم وفي الحلم كل شيء مباح حتى الطمع مع جنية البجع).

أحب البجمعة: أميتان بدلاً من ثلاث أميات لأنكم معشر البشر حقير. لنحكم ثلاث فرص وفي الثالثة دعواً مقتلكم، فكنتم تجهلون ماذا تريدون حقاً وقد قررت منذ ألف عام وعام أن فرصتين تكفيان. والآن لماذا تريدن؟

- أريد ثلاث أميات!

- حسناً. فليكن.

- أريد أن أرى مستقبلي إذا بقيت هنا وحدي! تشير البجمعة بمنقلوها التلمي إلى عيجوز جالسة على أحد المقاعد تحت مظلتها تطعم الخيام بالرغم من انبهار الطير فتتحول المرأة إلى نخل من الخنجر وتقول البجمعة: هذا مستقبلك وسيدة هنا.

يبدو لي التمثال نصيباً للوحشة والكآبة.

أقول لجنية البجع: أريد أن تساعدني في اتخاذ قرار غير شاعبي: هل

أعود مع زوجي إلى الوطن أم أبقي هنا وحدي لأن «الغناء صلب وطني فلا يمكنني
والهناك حيث وطني عواطفني». كيف التفت لقرار غير عاطفي؟. ساعدني. لا أريد
معجزات.

تحيب: كل شيء عاطفي، وروسي أن أحقق لك المستحيل لا يمكن.
التفت للقرار مهمة تقع عليك. أنا الأسهل، أي المستحيل، لنفسي العنيفة.
الحقيق للمعجزات أسهل من اتخاذ قرار غير عاطفي.

قلت: أحب زوجي ولا أريد الافتراق عنه ولكن فبين شروطي: أريد
أن يبقى معاً هنا إلى الأبد... أبيل... هذا ما أريده...

وكان زوجي يقدم مني والساعة الضوئية العملاقة خلقه في قمة مبنى
لرامبو تشير إلى الثانية.

تقول جنية البجع: سأحولكما إلى تفلين يفيان هنا إلى الأبد! وقيل إن
أناش الفكرية تتحقق الأمنية إذ ما كاد وفاق يصل إلى بدمياً تحت الطر وبهم
بالعقل بصفوة متباعدة حتى ترمي جنية البجع بتحويلها السحرية لتتحول إلى
تقال ولا يلحق أحد ما حدث لأن المر يكاد يفلو من الناس في مثل هذا العنق
الطير...
ينهر الطير.

ها أنا تبال تكمل التبال التي طللأ أصيبتها، وها هو وفاق إلى جاني إلى
الأبد ولم يعد بوسعه مفادتي والمودة... صرنا تبالاً واحداً حجرياً أحلق في
وجهه للشجر الذي لم يعد قادراً على أن يجزني أو يرغمني على شيء.

أعرك أصيراً من التبال التي لا يعرف أحد من الذي نحتها: إنها حبة
مثلي أرى هل معظم التبال مجهولة النحتين في الناحف لبشر مثل وفاق، لا
نعرف كيف تفعل لا أو نعلم ولذا لا نقول شيئاً؟

بدأ الطر والبرق. تطلع الشمس. تحضي جنية البجع كأنها لا تستطيع
للجني إلا على شجرة البرق. مرت العاصفة الضيقة العابرة، ونحن متحيران
في لحظة ترحاب يتم بقلق.

أحلق في وجهه. إنه تبال سعيد. لا يدري ماذا حدث ولا يريد أن

يدري. إنه الآن كما كانت حالة طوق الأعوام الغريبة حتى استيقظ من كابوسه
ثوباً. طوق هذا الوقت كنت صاحبة كذا أنا الآن، أمشي وأصطب وأسير
وأركب، ويريد مني أن ألبس مثله كل ككل الأعوام التي عشتها في باريس.
هو لم يفعل خلافاً شيئاً غير الانتظار لما أنا فكتت ألبس وأعمل كماي كائن
حي، غير ناقص.

كانت أحوالاً غنية باكتشالي الذاتي والعاطفي والعقلي للعمل والتحدي.
من غير المطلوب أن يكون مسموحاً لي بالعمل حين يحتاج الآخرون إلى
ذلك، وأحرم أنا من حين أحتاج إليه التحليل إنساني.

تعبت من الأحاسيس باستمرار أنني شيء ناقص. دوائر احتياط في
الفضل المخاللات ولا أريد المعرفة إلى وطن أسبه ولا يمني إلا داجة، ولم يعد
بمقدوري احتياك الدال اليومي الصغير هناك المكتسب لتدجيني.
لم أعد امرأة عربية ولست امرأة غريبة بعد. فمن أنا؟

وعلى سألوني بالمعرفة من جديد امرأة مرفهة ثرثرة مغطاة بالذهب خارقة
في حياة جرملة من المعنى، أنفها لا يتجاوز مربع خفيق كطابع يريد. أم أنه من
الأفضل لي ولزويجي أن نبني هكذا معاً كئاليون متحجرين لأنه لم يعد بوسعي أن
أتكيف على مقاس راسه كحذاء منزلي؟

يطير العصفور اللطيف ذو الناج الأبيض حولي. ينفث فوق رأسي. والان
ماذا بعد أيها الشاطر حين؟ ما الذي سيقوله. هل سيقول هكذا كئاليون في
«جزيرة الجميع»؟

يقترّب منا صبي يلفز في البرك الوحلة بحيوية وألمة تهرّ عربية لطفل
رفيع. يتألمنا ويحاول شيئاً لتقر أنه إلينا. يبدو مهمومة بشأن أمر ومشغولة
برمض العرة. العصي يثبت بطرف قوي المتحجر، ثم يتجهج في قصص طرف
متدلي البحري الرقيق حول عني بعدما ضربته بمشابة بحسب وما هو يحاول أن
يتخرج رطله عن قلب البحيرة ويثقل في ما عدا كسر طرفها الرقيق الأسفل،
بحجره. لم أكن أعرف أن الصبيان أعماء التناقل. ما هو الآن يلتقط مسهلاً
ويحاول أن يخرّج حل سحلي حرفاً لعله الحرف الأول من اسمه.

لم ينظر لي من قبل لتصير الياس لتتعال مثل ما زال صاحباً. ترى هل
يحي زوجي ما يحدث له أم أنه دخل في الحفلة الخجيرة؟ وأنا، لماذا ما زلت
صاحبة؟ لأنه ما زال لي الحق في أمانة ثلاثة؟ وإذا حدثت جنة البجع ما الذي
سأطلبه منها؟ إن تحولني إلى فتاة لا يعني شيئاً؟ وكيف أعرف بعداً أنني وولقي
معاً؟ ليس ذلك شيئاً بانتحار النون كي يبقيا معاً؟ ترى هل تصدر الصحف
غداً وفيها خبر حول اعتفاء زوجين لبنانيين، السيدة في الخامسة والأربعين من
العمر والرجل في الستين، وفي الصفحة ذاتها خبر عن فتاة جديد في وجيزة
البجع، غامض الأصل؟ ومن سيلاحظ مثلاً إضافياً في مدينة نصف سكانها من
البنات؟

هل سنبقى هكذا إلى الأبد كقوم لوط الذين لورا رؤوسهم إلى الوراء
وصاروا غمائل من الملح؟

لماذا لم تقل للأسطورة: إن من ينظر إلى الوراء يتحجر كزوجي ومن لا
يفعل يتحجر مثلي؟ وأنا جميعاً محكومون باللعنة أمام كلدان تعبت بنا، وتظن
كشف هشاشتنا وأنتيتنا فتحولنا إلى فخ لنا؟

من تعود جنة البجع، لماذا أقول لها إذا علمت وأنا لا أعري؟ ما هي
استي؟ الثلاثة؟ ما الذي يعني؟ أعز الحبيب هذا الرجل الذي أعرف تقاط لصفه
أنا التي تعلمت منذ نعومة أظفاري أن الرجل الذي تحبه المرأة الشرقية يجب أن
يكون نصف إله وأكثر قوة ولباساً وقائراً وحده على حل المسؤلية. هو رأس
الأسرة وهو... وهو...

هل يرى أنني أحب أنسياً مثلي، مليناً بالاعتفاء والضعف مثلي، بحار
كيف يتخذ قراراً مثلي، ولا شيء، نهائياً في حياته مثلي، لديه نوبات دغض مثلي
ولحظات تدم وحيرة مثلي؟

أحب عليه أن يقرر فوق تسعة أصوام من عمره في باريس وبلغها
بالتقابل كيف أنني أنا حوالي ثلاثين عاماً من عمري عشتها مع الأحباب في
بيروت وحاليه وبرمانا وجزين وصيدا وشتررا وإهدن وعشرات الأماكن المزروعة
في قلبي من غابات وبنافور وشواطئ. وبعال تكلمها أشجار الأرز والتلوج؟

نسيم يتجمع . انه انظر . أين أنت يا جنية الجمع ؟
يشتمل الأفق بروف شجرة ضوئية عملاقة كثيرة الأغصان ، وأطير عنها جنية
الجمع .

تجدي أبكي بلا صبح والنظر يغسلني من جديد عابزة من مسح وجهي فانا
مثال .

تقول لي : اعتدت عليكم معشر البشر . لا يقر لكم حال كالأسماء
الصغيرة . ماذا تريدون الآن ؟
أقول : لا أروي ماذا أريد ، لذا من الأفضل أن نعود كما كنا ! ! .

تقول بصمت وبصوت كالرعد داخل رأسي : كنت أعرف ذلك منذ
البداية . فكنتم البشر تلهلون التعامل مع الأعجوبة ولا تعرفون ماذا تريدون
وتحسرون فرصتكم معها . . . حسناً فليكن . . . هودا إلى هيتكيا البشرية .

يقول ولين كان شيئاً من ذلك كله لم يكن ، وهو يلصقني إليه : إنها الثانية
كلاً ولم تأسر . انظر إلى سامي فأجدها الثانية حقاً وأنتعل . ماذا عن تلك
الساعات التي مرت ونحن مثال مسحور تحت الشمس والنظر .

لا يبدو ولين واحداً ذلك كله . . . وأكاد لا أصدق أن ذلك كله حدث
اصلاً . . . ولا أجزئ على أن أقول له شيئاً عن تلك الأوهام و (الخلوة) .

لا نبال بالثقة للبتل ونجلس معاً تحت مظلة بعد أن يحاول الخفيف جزء
منه لي يمد يده . الجمعة أولاً ، ثم تلتهم الشظائر كعادتنا مع الينسورة التي قطعها
يذهب .

لا يسألني شيئاً عن قراري . يأتي الخيام والعصافير والنوارس محيط من
عليتها إلى الشاطئ . . . نطعمها . أنفذه الصغور الطريف ذا الناج الأبيض ولا
أجده . يسألني عن زيجي ضاحكاً . لا أجزئ على أن أروي له القلوسات التي
عشنا لحظة حضوره أو قبلها .

سميدان معاً كان غرافنا غير ممكن شيئاً لم أبدا ، ونوسنا أن لنشاجر ونزق
كل صاحبه ولكن استمرارنا معاً محبوس . . .

لفرح لأنه لم يسألني : ما هو قرارك . لو سألت لقلت له إنني لن أترك عملي

ولن أنقل عن غط حيالي هذا، ولن أنقل عنه ولا أعرف كيف أجمع هذه
للتنافضات التي أصرَّ عليها كلها!

زجاجة جعة ثانية وثالثة. نضحك مدأً طويلاً. . .

يقول وافي: غداً في بيروت ستقوم دائماً بتزعمات كهله، حين أهدى وقتاً
لذلك. ستكون مشغولة بالتأكد في عملك، حين تقصين فرحاً في بيروت الدار
الأزهار التي تحملين فيها. . . أليس كذلك؟

- هل سأفتح فرحاً وأصير ربة عمل؟

- بالتأكيد. وهذا أمر مني!

- هل من أواخر أخرى مفرحة يا مولاي؟ لا يجب لكنه يندد بأهنية. . .

لا تتركيني؟^(٢٢) . . .

أواخر عربية وأخاني فرنسية! . . . أتأمل طويلاً وجهه الشرقي الذي لا بد
له من توجيهه ولوامره في حتى في حالة الاستسلام! وجهه الذي شاهدته في خروء
ضبطه وفي حضيض قوته وأحبته في الخالين. عارياً بلا أئمة.

أظل صامتة. أتدلق وأنا نخوة. وأكاد أحتد عن هولسات ما قبل وصوله
بلمحات.

أشعر بأن بسيط في ساني وأندعا إلى الأمام لأرى موضع الأم.

يسألني وافي: ما هذا الخدش في سافك؟

ألمح الخدش في الموضع الذي حاول الصبي أن يحفر عليه بمسك. . . هل
يعقل ذلك؟ بالتأكيد لا. لملي خدشها حين دست. هل ذلك الخدش المقصود
فصار الخدش جزءاً من دبلوماسي القبطانية، كما يصير الثور المضاء فجأة في غرفة
الناثم جزءاً من حلمه. . . لكل شيء تفسير منطقي.

أشرد وأنا أبحث بمنتهلي الحرس في المحيط بعني. يدعيني أن قطعة
صغيرة من طرفه ناقصة كما لو قصها أحدهم. أعلها علفت في باب الثور وأنا

(٢٢) لا تركيني! أهنية فرنسية شهيرة.

أصعد إليه هذا الصباح. هذه الأمور تحدث كل يوم ولا نلاحظها.
نعود إلى البيت. يقول لي وفيق وهو يتجلع ربطة عنقه: هل لي بيتنا
جرتان؟

- بالتأكيد لا. لماذا؟

- من الذي قرص ربطة عنقي هكذا إذن؟ ثمة قطعة ناقصة منها...
انظري كم ذلك غريب!

أذكر الصبي العابت بنا حين كنا تئالين ولا أجيـب.

أحلق عبر النافذة في «جزيرة الجيع»، والسُّحب الصيفية تتجمع من
جديد مثيرة بمناصفة، وحين يشعل البرق شجرة ضواية أسارع مدهورة إلى
إسدال الستائر جيداً!

١٩٩١/٨/٢٣

ثلاثون علما من النحل

من الأسهل علينا معرفة البشر
يوجد عام من معرفة لشخص واحد
يوجد الخاص.

لاروشفوكو

الحياة تشبه الروايات أكثر مما تشبه
الروايات الحياة.

جورج صاند

استطيع أن أظن حينئذ من
الحقيقة لا من الذكريات.

ستانسلاو ليك

إنها تظن حول أمتك، توأنتك
وترفض أن تتحلل كي يكون بوسعك
العودة للنوم.

دانييل كروثيرغ

ثلاثون علما من النحل

تحقق روم عبر ناقلة السيارة وصدرها يغلي بفوران عتقن كخطبة تحل أحكموا إغلاق منالدها.

ثمة هياج ساكن يجتث حراً ووطوبة يهشم فوق صدر باريس وشوارعها وأبنيتها والريبات كلها كما يتجلى إليها.

السيارة تتأخر اللجة في الزحام كتركب إهلول بصعوبة أن يشق حربه في مياه لزجة معتمة غامضة.

يقول الدكتور صدوق لضيفه شب معتلر، ملتفتاً صوبه إلى اليمين نصف الفتاة وهو يناع قيادة السيارة: قلنا يجب حر كهذا هل باريس وشوارعها، ولذا فللمركز الثقافي ليس مزوداً بجهاز لتكبير فمطوية يا استاذ رضا.

تأمله روم من موضعها في المعتد الخلفي حيث أجلسها الدكتور صدوق (اصطحب زوجي إلى المعتد الأمامي غير ميل باللياقات الفرنسية وهو الذي يهرز حل التحدث بالفرنسية لتأكيد رتيبه) تتابع روم تحديقها الشرس في جبهة صدوق من الخلف (جاء للمرة الأولى منذ حوالي ربع قرن إلى مكتب المجلة الفكرية التي أنشأها وزوجي على إصدارها وهو يكاد يترنح خوفاً وأملًا. كان قد أرسل العديد من مقالاته إلينا ولم تلفت زوجي فاعلمها، وصار صدوق يكتب كل أسبوع رسالة رجاء متتالاً عن منحصر دراساته. أشغلت حل إلحاد وتوسلات وهو الطالب الجامعي الشاب، فقرأنا رغم مشاغلي الكثيرة ووجدنا جيدة.

فيها ولذا جديدة ولكن غير مأقولة. كتبت حل صدوق ولم أقل له إن زوجي لا يتوسم الخير فيه كتكاتب ويتصحه بالعمل في التجارة، بل كتبت له أنه لم يطالها بعد وتستعمل به حين يفعل.

دأبت عن حرره يومئذ حتى داعيني رضا متتالاً: هل بدأت تحيين الشبان الصغار؟

أصبحت للدخابة . كنت يومها أرفع صغيري بينا أبي الأكبر منا معه
يسل بتخريب خطوط أحد الكتب ويحرق صلحته وزوجي بطلت ضاحكاً
ثم يعود لي بعد انقضاء الخطوط لثباتاً يدعيه الخلوة: فليكن صندوق لي
حمايتك . الثري له بل واصغري له كتاباً . لن أدخل . لكني أراك على
قلبي .

وصدر الكتاب ونجح نجاحاً كبيراً فباعه زوجي باكتشافه له وتمزقت
صدقاتها حين نال صندوق الدكتوراه وصار استاذاً جامعياً في فرنسا .

يتحاور رضا وصديق بكثير من القود الخميم الذي تراه روم يربط الرجال
والهمنه بعضهم بعض . تحاول مضاعفة اختلافاها وعزلتها الصغيرة منكورة
لنفسها (كولي إيجابية وتشاركها الحوار) تنلي برأيها في الموضوع الذي يتحاوران
حولاه . يصمتان كما لو قطع ولد مثلك حديثاً للكبار .

تسمع صدى صوتها مسكناً مثل جروب مقبوب لمسول شتافي ولا أحد
يرد عليها سلباً أو إيجاباً .

يتابع الاستاذ رضا كلامه والدكتور صندوق يشاكره الخيام (كأن صوتي لم
يكن وجهة نظري لثقة نساه) . يتفهمن مبعاً . لا تعود تسمع شيئاً .

السيرة ما زالت تركض في الدروب (التي تركض دوماً وحده في دروب
أعزى وزمان آخر . . أتذكر يوم صار صندوق يوحف أعزى فرحاً - مثل كلب
لطيف صغير يمزحله - شاكرًا قرار داوتنا بإصدار كتابه الأول .

كان يعرف أنني حليفته ويخفي بظهور زوجي من حرفه وبعبء من لقله .
ويحي معنى صندوق كتاب له عن منشوراتنا في مدينة شمال إفريقيا . تلك
المنشورات التي استطاعت علماً بعد آخر بكتبتها ومجلتها الفكرية متنافسة مجلات
أعزى مشالية معروفة من وزن مجلة الآداب والأدب ودراسات عربية والعربي
وشعر وحوار ومواقف والعلية وسواها . . .

قال لي يومها بالفرنسية: لن أنسى جميلك إلى الأبد يا سيدتي المتكورة
الكيرة . وتقبلت استهائه الشعل على أنه نوبة فرح تفيض إلى الخارج بكلمات
لطيفة لا يمتدحها المرء كلها . فرحت بشكره وحزنت ، لأن الشعل الكتاب أكثر مما

ينبغي يوجع أحياناً ويشبه الحجاب أو السخريه . فانا لم اكن يوماً «مفكرة» بل كنت شاعراً.

بداياتي كانت كبداهيات زوجي، ولكنني أصيبت بالسكتة الشعرية الزوجية، ولم يعد يوصي أن أكتب الشعر بين صغير طنجة والبخار وجرس منه القرن وبكاه الأولاد... ولا لم أصب بالسكتة الأدبية الزوجية مرة واحدة بل كان احتشاري طويلاً ومؤلاً على مدى ثلاثين عاماً من القهر البطيء الصامت الشيء بالتعذيب بقطعة الماء على الطريقة الصينية، وبما لتيج القطرة مع الزمن في ثوب الجسجة... وهي طريقة قلها زوجي بالقطرة كهيئة الرجال العرب...

الحبة هي التي جذتني في موضع تحت قطرة التعذيب بشيء من قيود المعلقين بالأولاد والأسرة والمجتمع، ومنح زوجي لطيفي كتاباً عرضت عليه قصيدة جديدة وتسلطه ولديها على تشجيعها على السخريه من «عقريتي» الأدبية. لا... ليست الحبة وحدها بل مزيج من الترهيب والاضطراب والترهيب وأوامر أمي في بالطاعة وسخريه أي من أية فعالية أمارسها غير الأمومة ودعواته - كتاباً قلت كلمة شعر - بأن يهديني الرب وهو الذي ويسلي وأنخولي على موسيقى الفارشات العسكرية.

في لحظة الخلود النادرة مع رضا صار قلبي يحار أهله لسمة سوط مدرب في السيرك يدجن لواء أم فرقة لهلة زوجية؟).

تدري لهبهات د. صدوق واستاذ رضا. بصمتان قليلاً.

يسأل صدوق: هل تحب أن تتوقف قليلاً في هذه الاسرافة لشرب قصباً من القهوة؟

بحبه الاسلاف رضا بصوت يبدو لرم متلهفاً للوصول إلى حفل تكريمه: لا. اشكرك لست متعباً. دعنا نواصل السير.

أقول روم بصوت بدا لها متأزماً فوالها مير: أنا بحاجة للدخول قليلاً إلى الإسرافة.

يبيب رضا بهدوء المعروف: ستتترك في السيارة لا تتأخري.

يهبط بقدمين ثقيلتين مشربتين (ولست بحاجة ملحة للذهاب إلى الحمام فليلاً أتصرف كالأطفال؟ حسناً. أعترف. إني أحاول تذكرها بحضوري!).

تدخل إلى الحمام بركبتين متبكتين. تنسل وجهها الخالي دليلاً من الأصباغ. تتكلم بهتشة كالآلة تراه للمرة الأولى بتجاعيد كلها وتظن دافعاً جميعها أصوات كهدير النحل (كنت جميلة ونظرة يوم نعبث إليه للمرة الأولى. لم تكن أبحث عن زوج بل عن شبر لنشر قصائدي).

ورحب بي بحرارة فهو يعرف العديد من أفراد أسرتي المقيمة. قال لي أنه لا يتوهم غيراً كثيراً بجرائي أسوة بكتابات وروايات. بدأت معي، لكنه لم يفتح حمرة الخجل التي غزت وجهي كعازل يومئذ. في لقائنا الأول ذلك كان ممجياً جداً بقصائدي وقراءاً مراوياً بصوت عالٍ ووعدي بأن يقدمني إلى الجند حل حد تعبيرة.

في فترة غزل العيون قبل الخطبة قال لي ذات يوم مداعباً: من لما مثل هذا الشعر تكتب بالتأكيد أجل الشعر. طوبت يومها لهذا الغزل من الأسلاك الكثيرة، فقد كانت مجلته على حدائق عهدنا قد نجحت في فرض نفسها في الأوساط الفكرية والثقافية. وسررت لروايتي نشر شيء لثائلي الجريئات «الروايات» ولكنني شعرت بهيق في الوقت ذاته فلما «التقد الأميرة الماطقي».

كانت قصائدي تعني لي الشيء الكثير ولم يبد يوماً بعد آخر أنها تعني الشيء ذاته قرصاً.

أسررت حل أن يتألف يومها ما حملته إليه. استدعته كثيراً وسجن ناقشته في بعضه لاحظت أنه لم يقرأ شيئاً مطبوعاً وقال: قرأت قدر الإسكان وهو صانع للنشر. معلوماً فقد انتشلت بقراءة كتاب وجهك، وتقلب صفحاتك حينك. كيف رضيت يومئذ بهذا الخراء اللزج، ولماذا تصورته لحظتها أجل ما قيل منذ العلفات السبع؟.

تابع من: كتاب حينك ليس بوسع المرء أن يتجزأ قراءته طوال عمره! لكنه فيما يبدو التجزأ قراءته بعد ليلة العرس ورماء من النافذة مع صراخ طقنا الأول.

أجل. لقد أحييته من اللسعة الأولى!... منذ قال لي أن خكري أجل من شعري ولم أفهم جيداً أن تلك العبارة التي أفرحتني مقدمة لتلك المعامل الرتيب للفخر المنزلي الذي يختزنه في عوفا رحمة، ولي اللحظات الناعمة التي أحاول خلالها تنظيم قلبي بتولى مخلقة روحي وبمعلمي أشك في قدراتي الكتابية.

الهمي منذ البداية بصورة غير مباشرة أن عليّ الغناء تلمي، وأني محرومة من حقوق وأنا الفتية لأنني امرأة عربية... يوسمي بالطبع أن أحصل كمعاملة له لا أن استغل برغباتي الأدبية. وحين يغيب مسافراً في الندوات عليّ أن أقوم بعمله وعلمي معاً، وحين يعود وعرض طفلنا بظام هو وأسهر أنا.

وليلة قررت المغرب في لحظة صحو كانت أحالي ثقيلة: طفل في بطني وآخر على فراشي... واستيقظت صباح اليوم التالي وقد تحولت من عصفور إلى خروف ولنحلة لأخرية صارت تطن في صبري).

تتابع ريم غسل وجهها بماء البارد. تخط شعرها فتساقط عشرات الشعرات بين أسنان الفرشاة. تنهد بأني. تعود إلى السيارة. اسمع د. صدوق يقول لزوجها رعباً: لا تكفي حفلات التكريم المحلية لك بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيس المشورات وأكثر من ثلاثة عقود على تأسيس اللجنة. كان لا بد من تكريمك خارج بلدك، فاشماع ببلدك وكتيك قد امتد من المركز في شياخ إفريقيا على طول قارات. ثم إننا بتكريمك في باريس نغرز الفكر الوطني الذي قامت عليه دولك التي احتزبنا. وأنا مسرور لأنها ستشر في كتابي الجديد و... .

و... .

يعاود ريم الإحساس بفوران تختق في صدرها مثل خلية نحل مسفوا مناذها كلها (ها قد بدأ خطاب التكريم في السيارة ولكنني شيء مقابل. وأنا عدت لحظة سوداء مهملة. امرأة مكسمة محشوة في كيس أسود يغطيها من الراس حتى الخصر القديم).

يصمت د. صدوق. تدبش ريم فقد كانت تتوقع أن يلقي كلمة بأكملها في السيارة. يبدو مشغولاً بطرد لحظة من النافذة (ولكن ما الذي جعله يقطع «برولة» عظامه؟ اللحظة؟ لقد اكتشفت متأخرة بعدما اشدت ساعده

ورماني أن هذا النمط من الناس ما أن يستلم الكلام حتى يغطيه ويقل بصوت ويجول وهو يدوس رأس الحليقة ويصيحها بالكلمات والناس تلتفت وما أكثر أمثاله في حفلات التكريم. وآء من حفلات التكريم!

لم أفعل شيئاً في الأسابيع الأخيرة غير مراقبة زوجي إلى حفلات التكريم، ولكن أحداً لم يذكرني بكلمة شكر إلا بصفي المرأة التي تلف وراء العظيم! نسوا كلهم أننا ولنا رضا وأنا جيا بلنب دائماً. وكلم عنوت على حروفهم وحسنتها يزيت المحبة.

كنت حظه يوم عادت الكتابات المتحررات اللواتي يلقين زوجي بالوفحات. كنت أغار منهن عليه. أحصل في الظل ككل نساء بلادي. أحصل ليل نهار كالتحفة. أقوم بعمل كأم وزوجة وأشارك زوجي العمل مناصفة في المؤسسة والجملة. كلهم يعرف هذه الحليقة. ولكن أحداً لم يذكرني ذلك كله في حفلات التكريم، حيث تم علي بالصمت والإهمال إذعنا لقرباء الأجنبي فالرجل هو المحور وموضع التكريم... حفلات تكريم يستحيل صدري خلافاً إلى عاية نحل تصيح بالنفس، لقد كنت دائماً تحلة تصيح العمل للجصيح. نحلة ملدوغة).

تشر رم بالنم لأنها رافقت زوجها إلى باريس. (في القنصل قدمت على السريو لاسترجع قبلاً وفكرت بطلب فليجان فهوة.

أكره حفلات التكريم هذه؟ حسناً. ولكنني أحب القنادل حيث أصبح مساوية لزوجي. فلأحاول الاستمتاع بأيام بلا واجبات بيتية. في القنصل وحدها يصير يوسمي أن أريح جسدي لأطلق سراح أفكاري.

فتح زوجي الخزانة وأنا به يهليل. لقد وجد حفلة الفلفل مزودة بتكررة خاصة بلز باتن.

طلب مني أن أكوني له العظم الخاص بتدو التكريم. هل كان يريد حقاً ذلك، أم أنه أحب أن يذكرني بمن أنا، ويضمي في «مكاني» الخاص بي كمعادته كلها ستحت لمسة ما؟

امسكت بالكواة ونقمة جارلة تفور في صدري. وجدتها معطلة. جاءت

العاملة المختصة وأبدت دهشتها لأن المكينة تسطت، وقالت إنها جريتها ليل حضورتا وتلقدها مع بقية الأدوات الكهربائية كعادتها كلها متى نزلت! خاطرتا القنديل بعد الظهور للشيخ. شاهدت سيارة يدعة، لم أر لها مثيلاً من ليل. صررت أخلق فيها وكل شهوة لامتلاكها ولد استيقظ حلم مراعاتي بقيادة سيارة مكشوفة عارية القدمين على شاطئ البحر في ضوء القمر وحيدة مع الموسيقى. تسمرت أمام السيارة وأنا أفتح باباً في عيالي برغبة سرية جارية ولعلت حين سمعت صفارة الإنذار ضد السرعة تنطلق منها في تلك اللحظة دون أن أفسها أو يماجها أحداً).

تتوقف السيارة. يقول صدوق: يا هذه النحلة اللعينة! يؤكد للاستاذ رضا متابعياً برجاحة عقله أنه رجل حذر ويفضل التوقف لقتلها بدلاً من الاستمرار والتعرض لمطر وتفرج حلفت.

تقول له ريم: لا تقتلها. دعها تلعب وشأنها.

يؤكد أنها نحلة كبيرة مرعبة يجب قتلها.

يقهقه وهو يسحقها فوق الزجاج.

تسأله ريم منادكة: ألعنا ملكة النحل والحلية بحاجة إليها.

يجيب: ليس ثمة ما لا يمكن الاستثناء عنه (يل). كان ثمة ما لا يمكن الاستثناء عنه حتى من أبيل قصائدي. رضا الذي أحببت وكرهت في آن. والطفلاق؟ لم تكن كثبات المعجم بكافية لوصف فرحتي بها، إلى أن كثيراً وصلوا فريين عني كيفية ذكرور القبيلة، بعد ثلثي بنبذة تشبه نبذة أبي. بحرسان علي ولكن لا حوار بيننا إلا عن العلم. في القضايا الأساسية يدور الحوار مع جدتها ووالدها. وهكذا هاجر أحدهما إلى كندا، وهاجر الآخر إلى المهجر المهلب والصمت ولم أجد أراه إلا في المناسبات الاجتماعية اللائقة بسلوكه الثلاثي الجماعي.

يل. ثمة ما لا يمكن الاستثناء عنه كالشعر مثلاً. ثلاثون عاماً من التدجين وأنا ما زلت أكتب الشعر سرّاً أو داخل رأسي. قصائد تطن في فضائه جميعني كالنحل، قصيدة بعد أخرى تحلة بعد أخرى. ثمة قصائد كثيرة كتبتها

في أحلامي، وصحرت صباحاً من تسطيرها على الورق. لقد كان رضا منذ البداية يحسن تقسيم أوقاتي لي، وإذا لمحي أعقر قلباً وورقة أعفر منسوبة اجتماعية تشغلي الأيام - ربما ثم نوبة الجنون الشعري - مخدراً مبدئياً بذلكه وعناية بحيث يصيب مني مقللاً، مثل رليمة الأسري أو لأسرته أو لأي هابر سبيل. ماذا تفعلين؟ أنتكتين نصيدة؟ ولكن علينا دعوة وكليسا في لبنان إلى العشاء الليلة فهو يزور مدينتنا. يتم استغفاري إلى المطبخ، لكني أظل أكتب لصائدي الصائفة داخل رأسي طوال السهرة، نحلة تظن ولا تسكت.

أهزول بين المكتب والمطبخ وأشرف على التصليحات وتجديد الدهكود الذي لا بد منه كلها حدثت زوجي عن اشتغال شعري جديد في أصابعي... وحين ألتفت عنيفة لاسترجع بين اللطمة بالحبة والأخري أرى المتكبرات يحبك خيوطه بين أصابعي يوماً بعد يوم قهراً بعد ظهر صاماً بعد عام... عنكوت ينسج شبكته بخيوط من الحرير وضوء القمر ولكنها تقيدي يدي بأقنسى مما تفعل قبوه الحديد... والتحل يتكاثر في صمري يوماً بعد آخر...

يسأل الدكتور صندوق الأستاذ رضا: ثمة العديد من الخطب الذكرية التي ستلقى القيلة، فهل يجب أن تعطب عليها أم لا؟

يجيب رضا بتواضع: سأحاول ولكنني سأكون أكثر عجباً من قول أي شيء! (ولكنه لا ينجح من المشاركة في التكتيم على حقيقة يعرفها الجميع وهي أنني قمت بتصيف العمل في دار النشر والمجلة بالإضافة إلى عملي في البيت: ثمة تواطؤ مشترك حل إغفاء ما تقدم المرأة على اجتراحه، وهو تواطؤ صامت يشبه مؤامرة تاريخية! وإذا كان زوجي يتابع بأنه قارع السلطة الغاشمة هنا وهناك من أجل رايه، وقهر مرات، فإني شاركته مفارقتها ومقارعة قدرتي ككأنى عريية في آن.

إذا كان مطهوراً فأنا مطهورة مرتين، مرة معه ومرة به! ولم يتحدث مرة في ندوة تكريم ما، في لحظة صديق، أن وقف وقال شهادة حق: هذه المرأة قامت بتصيف العمل الذي أدبته، وتستحق نصف المجد الذي للمنه. لا! لم يقل يوماً شيئاً. فللرجل مثل حظ الاتيين حتى من عمل مشتركنا في أدائه معاً مناسفة!...

أه صبري يغلي بالقهر، مثل خلية مزودة بالتحلل، وأكاد أنفجر، ونحلة جديدة تنضم كل لحظة إلى تليي، ويعلو الطنين فركاده صمتاً وأندو من الخارج وكأنني أنفوس داخل جسدي الذي صار كتلة من اللحم للقرمل وتلب فيه تضاريس ووحى المتوجسة التي ما زالت مرحلة ومفهورة ومطمورة تحت مظهر أشبه فيه لللايين من نساء بلائي: أم بذينة استسلمت لفتن القرمل...).

يفهقه د. صدوق واستاذ رشا. يتسامران ويتابعان حواراً لم تسمع روم بداياته... (كلنا غضبت وفكرت بجره كان يهدس بذلكه بما أضمر ككاه يقرأ أفكاره). لا يقول لي شيئاً. يتجاملني. يخرج من مكان خاص في طائوته الرسائل الغرامية للشاعرة الكبيرة ديانا والتي كانت قد بحثت بعشرات منها إليه فيه فيها تواضع قلبها، لرسائل عاطفية بعد إعلان خطبتها لغيره فيها من الزواج من البقرة، ولعنتي بالقلب، لرسائل للمنة بعدما تم الزواج، ولقاطعة وتسحب ديارها لهم منه إلى تأخر آخر لتكبد لي ولها...).

كلنا غضبت، يقلب الرسائل فيستيقظ غرودي.

كانت مجرد فكرة أنني انتزعت منها تسديتي. مع الزمن وعيت الفخ: إنه لم يتدخل بها حقاً من أهلي بل من أجل نفسه، ليظل رجل الواجبة والملك المخرج وأنا النذل.

ما كانت ديانا لترضي بأن تكون ظلاً. ما كانت ستعجز عجزها إكراماً لطعجربا...).

يترقق د. صدوق بالسبابة ويقتل رشا بنفسه نحلة أخرى متسللة.

يحمل إلى روم أنها شاعدت النحلة تخرج من قمها المطبق على صمته.

تنهله بصوت عالٍ دفناً لهذا الحائط اللاتسفل.

يقول د. صدوق: إن الأمر لا يدور إلى الضحك وثمة مشكلة حلقية تتعلق بالتحلل في تلك الضاحية (أشعر أحياناً بالتحلل من نفسي حيناً أنتم حل رشا. ثمة لحظات لا أشعر فيها أنه المسؤول عن تدجيني بل العالم كله. وثمة لحظات أشعر فيها: إذا لم يساهم هو في التبدل، من سيقبل وما جدوى الغراء الذي تشره في مجلنا وبناتشوته في اللدوات ما دام البعض يمود بعد ذلك

إلى بيته شهرياً يأخذ عائلته على عاتق نفسه؟.

يتابع د. صدوق : قبل أعوام، أحضر خبر في المنطقة لتجلبود الآلاف من النحل الأثري . استوردوا لزيارتها وإجراء التجارب عليها، ولكنها هربت من المختبر منذ أشهر ولا أحد يدري أين حشرت أمشاطها من جديد، ولكن من المؤكد أنها لم تبعث كثيراً لأن العديد منها ما يزال يزور المنطقة ويضع النسل كما حدث لنا في السيارة هذه العشية بين فينة وأخرى... .

الأستاذ رضا يسأل لامالياً بشأن النحل والمختمات : هل سيحضر رئيس القسم في جامعتكم ندوة الليلة؟

- بالتأكيد. وأنا أترجم الآن أحد كتبه لتشره في دارك. (في الهداية كتاب التواصل بلا كلمات، ثم حدث شيء ما أقصد تفاهتها التخاطبي والمخاطبي اللغوي). لا، لم يحدث شيء كبير مفاجئ، وهذا هو المروج. كانت الأشياء غوت يطفء من تلقاء نفسها. نفوس شيئاً شيئاً في مستنقع الرمال المتحركة.

حاولت إصلاح الأمور، لكن الحوار ليس ككرة تبادلها مع رضا كالشيء، وكلها تحرير استبدلها بكثرة أخرى. التواصل يكون أو لا يكون.

... ولم بعد يومني أن أقرأ أفكاره، أو نحلم الحلم ذاته معاً في الوقت ذاته، ولم بعد يومني أن يتجسس على كوايبي ونحلي وعلماني).

تدخل عدة رحلات إلى السيارة. لكنه يوم لا تصدق ما يحدث لها. (يا للرجب... . تجلج إلى أنها خرجت من أفني وقفي) يتوقف صدوق بسيارته إلى جانب الطريق. ويبدو مدحوراً من دخول النحل ثانية إليها. (من غير المعقول أن يكون النحل قد خرج من فمي. إني متعبة الأعصاب لكنني لست خائفة فالنحل صديقي، يطمئني من ذمات ويتكاثر في أحلامي).

يفادر الأستاذ رضا والدكتور صدوق السيارة ويثا يجلو النحل عنياً بعد محاولات عديدة فاشلة منها لفتته.

تصر يوم على اليقظ وأصل النحل على يدعا واحداً تلو الأخرى وتطلق مراحها في الريح.

يعود كل إلى موضعه في السيارة.

يتابعون الرحلة .

يؤكد صندوق وقد ازداد المبلغ الجار اختناقاً : . . . دقائق ونصف . ثم يتابع واستأذنيا حوارهما . تسقط روم في بحر صمتها .

يدور لها الغروب موسماً ، ويزداد النحل طيناً في صدرها . (كنت أعمل النفس بأن تكون ندوة الكيلة مختلفة ، بُعد الاعتبار فيها إلى الحديقة التي يعرفها صندوق وسواء ، لكنني حسنت أن لا شيء يدل منذ وطئت أرض المظلم .

شعلت صندوق بعد انقطاع طلاق ، فحياتي وكأنته يراني للمرأة الأولى . . . ولأننا يدعشنا فلك وهو منذ نجاحه يتبادل الرسائل والمصالح روزجوي .

في البداية كان يبحث إلى بنحة في رسائله مستظراً عن عمل ولصاوتي ثم غلب اسمي فأما في رسائله وحلت محله عبارة بوسلامي إلى السيدة حرمكده) !

يقول الأستاذ رضا : يدور لأن الغروب أطول مما توقعت . هل بوسعنا شرب شجوان قهوة في استراحة ما ؟

يتوقف د . صندوق بعد دقائق . تجلس روم وترسل قهوتها صامتة ثانية . يقول رضا أن يلتفتا إلى أنافة المكان متودداً ، بل يستل من أسبوس الأزهار على طاولة توسط الاستراحة زهرة برية صغيرة ويلتفتها لها (بوسعه أن يكون وليلاً وحدياً . إنه يعرف مواطن ضحلي ويظن مداواة ما يخرج بين أن وآخر . . . ولكنني نائمة . كان يجب أن لا أرافقه هذه المرة . أخشى أن أتفجر وأقول حقيقة مشاعري وأسبب في فضيحة ما . ما من فضيحة توازي قول الصديق . . .

في الندوة الفكرية الأخيرة كنت عمل وشك التعقيب عمل عظيم . . . لاحظت يومها أن كل ما يقال في معظم تلك الندوات لم يكن بشيء حقاً يزايا زوجي بل يزايا ليست فيه .

إنهم يتحذرون له فضائل لديه تنقيتها ويتفاخرون عن عيوب يعرفونها .

احتل أحدهم يومها سدة المنبر . لم يقل كلمة عن مجلنتنا أو دارنا للنشر بل انطلق من المناسبة لاستعراض برنامج الاكتصالي والفاء خطبة سياسية . وكان

منبئ له أن شغلة مرة حين كانت مصالحة تتضارب وخطا الوطني الذي لم يتبدل يوماً، ووجد في تكريم رضا مناسبة لإعلان مواقفه المستجدة!

يومها شعرت بالحنو على زوجي وهم يتفادونه ككرة من أجل تكريم مصالحهم.

كنت استعيد عقلاني الغائبة رغم ظن ثلاثين عاماً من النحل في صديري. قررت أن أهدك وأكون محامي الشيطان ونلت لنفسي إنه مقابل احتكار رضا للتكريم، قد يتم اغتياله هو وليس اغتيالي إذا شاء ذلك زعماء الفئة الفكرية الأخرى. رضا موضوع التكريم كرجل لكنه أيضاً هدف القتل والطالب رغم مشاركتي له في كل أعماله وأفكاره. وبعد اغتياله سأصير أنا أرملة الشهيد مع كل ما يتضمنه قلب كهذا من مزايا واعتبارات لا صلة لها بشخصي، وسأصير مثله له. وسيتدفق الحنان على التكريم بعد استشهاده.

مهنة المهادة والخطر أو التكريم من نصيب الرجال. إنه عالم ذكور، وهو ليس وحده مسؤولاً عن ثلاثين عاماً من النحل في قلبي.

ثم إنه لا يخلو من الطيبة لكن الأمور تجري على هذا النمط معصور وهو لن يعلق الجرس ولن يتبدل شيء ما عام أمثاله يخافون.

يتجشئ سخرية الناس وسوء تفسيرهم لتصادفي أو إطلاقهم للشائعات عني إذا أطلقت العنان لقلبي ولم أكن مست صالونه بهلبة وكتابة خارج أوقفت الواجبات المنزلية، وما أكثر الشائعات التي أطلقت عن شاعرات وجنودن وأباحيتهن وحشائهن المزعومين!

لو اتفجرت، لو تفرقت، لو تجزأت وطرت ليلاً فوق سطوح المدينة واملئت استماعها وكتبتها لقام الحثل في قانون يحرم زيارة كوكب الأبداع على جنس النساء إلا ضمن الشروط الإجتماعية التهرجية.

وصرت أكتب داخل رأسي الخطية التي كنت أحب أن ألقها في حضام الندوة كفضيحة جميلة ولكنني لم أجد بل صرت أحاول تبرئة رضا من ذلك المستطع مدعية نفسي أنه ليس ملتبساً بتقدي تقمني عليه وأنه الترابصة لا اليد التي تفسط على الزناد وهرء آخر كهذا.

صرت ليبتها أحول الاستمالة عن التخطب والغيرة بخزائي من الصبر
والاستكاثرة والأمومة والحنان. كدت أثلث في امتحان الصبر اللبيل وصار
خضبي يتصاعد.

صرت أصلي لتغلغل الندوة قبل أن انفجر، وأنصت بينه إلى صافيتين
تلاقل ومهرجين من الصغار والكبار يتابعون تكريرهم لمصالحهم عبر عظيم
الفتنة عن زوجي.

«حقوره يروي سيرته الذاتية متتبعاً إبداعاته متخذاً التكرير طريقة
لإستمراره مجده. وأصر بسجل موقفاً انتهزياً عبر الحديث المتشعب عن
تجازاته، أما الألعاب والفكر والشعر والحقيقة فليست من بين هواجده.

صرت أرى وجه الخطيب الثين كما لو كنت ثمة والألفاظ تتلحح وتلتقي
وأنا لم أجد أنهم شيئاً. تأملت زوجي وبخيل إلى أنه كان جالساً في مقعد التكرير
على منصة الشرف كما لو كان مهموماً.

كأن هذا التمجيد يريته في لحظة صدق مع الذات.

صرت أرى وجوه الخطباء الذين يتعاقبون على المنابر منذ بدأت حفلات
التكرير لتغطي الجدران والسقف وتتلاحق صورهم على شاشة لأمريّة داخل
والتي كما في الكوايس وكلهم يتكلم مرة واحدة مثل مئات من أشرطة التسجيل
تعوي كلها معاً وأسمع التصفيق والتهريج. . .

كدت أعتلي المنبر وأقول صدقي وتحلي ثم سمعت صوتاً آتياً من قاعها
شبهاً بصوت رعدا يسألني: هل أنت مشغولة حقاً من احتفال الحقيقة أم أنك
تأولين رصد العلل في كل ما يدور لأنك تشعرون بالغيرة؟

صمت ليلتها، وانتقلي الصوت من نصيحة قول الصديق.

يتابعون الاستراحة. يتابعون الرحلة وقد نيم الصمت.

وها قد وصلناه يقولها د. صدوق ويخاطر السيارة مسرعاً لمساعدة الاستلا
وعدا هل المبروط منها ممسكاً له الباب.

تفتح زيم الباب بنفسها وتبسط. تتلفح حولها وهما يتقدمانها في العروب
الضيقة صوب المركز.

تشمل المزيات وهي نفوس شيئاً غريباً في الغبار الرمادي للسماء...
يبدو في العالم غريباً والسماء استثنائية وأنا في طريقي إلى تنوة دفن الحقيقة في
هذه الضاحية الباريسية الثانية.

أرى على جانبي القضاء سائرين عملاقين تتدليان من السماء حتى أرض
المحور المحيطة بالمركز الثقافي، مطوحتين عند الأفق الممتد في خطية كالسرح
الضامع...

سائران من المضمحل الناكث الأرجواني. أكتاد أسمع هسيس العث وهو
يقلي ليها.

السماء مرموقة بالأسمنت وبعمدة جيداً، والغيوم من الأجر المرموق
والفضار.

أسمع حدير أهدل جوفية تنلي مياه محسوبة.

الأشجار تركز في المني مع فراغات الطيور بأوراقها الدائكة، ورائحة
مشبعة بالسواد.

خلطها بحر متحجر لا يجري وإنما يتلا جرد ويكتاد يلبس على الضفاف.

ثمة قوارب على شاطئه مطلوبة منخورة الأخشاب: أضي على شهوة
الحركة وذائكة الماء.

أمام المركز الثقافي شجرة تفاح.

أقتطب تفاحة وللضاحية فتاح كرتفلي المينين وشاربان بتدليان منها كما من
بقية تفاح الشجرة.

تحتها على التراب المعدني نبت أزهار من النيون والبلاستيك طالع
الألوان.

هل يرى صدوقي ورضا ما أراه؟ أم أنني بدأت أعطو وسيدة في كوكبي
الحامس؟

المزيات كلها تستحم في ظلاله راحلة هتقة. الضروب يغزو السرح
الشامع. القمر ذكرى لمر. لمر ناكن السواد يحاط بهالة نظيفة باعثة
كالصدى.

احتقان حار كياطن قبلة لحظة انفجارها وتبل انشطارها بد كهاريه
لتواصل أمهالي بقرانيا في ظلمات الأسرار.

هر جولي من الاعتناق العائلي بد شرياته المظلم بيني وبين العناصر
الكونية والتحم بالدمرة الدموية لكوكب سري مجهول .

ومضة

ير بنا قطار حديدي حار كهيكل عظمي وقد أهدت إلى المقاعد الخشبية
لسد بصرهن في توافق الموائد المعدنية.

ومضة

أرى أسراراً تمتد داخل تايوت وهي تقرأ بصوت عال على النعال
الارشادات عن طريقة إخلاله عليها بإحكام.

ومضة

نج التوازي حار بظجر من ياطن الأرض وتطايير معه أوراق الكتب
كلها التي ترجمتها والتصادد التي كتبها وصفحات المجلات التي راجعتها.

نج بظجر تحت لدمي د. مسدوق ويعلو به وهو يصرخ ثم يموي .
بهين ويناع المني والحوار مع رضا ولا يقول شيئاً عما وقع له ولا يصدقه خوفاً
من أن يرمى بالجنون .

العلم منطقي وكل خروج عن سلك المنطق غير منطقي ومرفوض لكنه
يلفت خلقه صوري ولي عينه نظرة حول أهمية حذرة .

ومضة

مجانز لجمعن حول طفلة غائبا، ينسبون كل شيء عن الأسر حين
يكشفون أن لها جناحين صغيرين ويقمن بقصصها ولعن الشيطان ويبت الجناحان
ثابة فيحدن قصصها ويكرر الأسر دوماً تولف دوماً تولف وبلا نهاية . . .

ومضة

دفا باب تتلفظان عل خفلة لبكي داخل عزاة وصوبها بتلافي تدريجياً

وينقطع تماماً حينما تدبر الفتاح في الثقفل يد حائلة الصخامة مقطوعة شبيهة
عائمة، مهارة ومثورة بهيادات للتحنيط تقوح رائحة أدونها وحفايرها
الجيرية حل طول قرون.

وصفة

أمرأة تحضر مقيدة ومنظار يطير في الجو بعيداً عنها محملاً بالأدوات الطبية
للمماريات الجراحية والقطن والظارات النجسة من الفرق وثياب كثرغالية.
تصرخ المرأة وتطلب النجدة، فيطلقون في الجو ألعاباً ناروية تحية
لاحتضارها.

وصفة

حيط يربطني من سلكي وأنا تحلة عملاقة بشرية الرأس يمت بها طفل
يشاويين له وجه حنارة في رسوم التناوي ورفيق شرب.

يضحي الطفل تحت الشمس المحرقة كي أظير كزيمز الذهب^(٨٩) الذي
يمت الأولاد به ويسرون بطينه... الطين لا يأتي من صدري وحده. الحيوط
عديدة والتحولات كثيرة وقد ربط ثبات منها يحوط إلى أصابعه كلها... طين
خاضب... طين... حيوط... طين... أرسل للدماني إلى أسراب تحل
حلية طابئة النجدة... وأواصل وإياها).

الاحتفال بالتكريم بدأ.

انفض دمع عينها وفتحها وهي تذل مجهوداً خارقاً كي لا يفجر مجهول
ما في صدرها... كي تنصت إلى ما يقال.

الأصوات تأتيها متقطعة كالمبهيات اللاشعورية، مثل نهيدات مخلوقات
الاقناس في حدائق الحيوانات في الليل وزحفها.

(٨٩) زيز القديس: حشرة تشبه الصرصور شكلًا لكنها بديعة اللون فهي حائلة المحمرة القلعية، وسن
يربط الطفل زيز شعب من ساقه بالحيط ويصله به تحت الشمس الحارقة تفرق القشرة ويتبعها
وتطير حماراة العرب ويحير بتبعها للشلل في الضوء بلون الزمرد. وأحياناً تقطع ساقها
المربوطة بالحيط في محاولتها الضعيفة للطران وهرب. وقد خلقت ساقها ورأسها.

عشنا محاولون وهم أن تتواصل وأداة اللغة. . . . يحاولون الطنين المروج ضجيجها في أذنيتها ولا تدري لغز قادم من صدرها ألم غير النافذة.

تري الحضور بالفتنة مركبة على الوجوه. بعضهم ليس أديماً. هذا الذي يلقي كلمة على لتير كلب زينة (بول) بفنّان حصان. هذا الخطيب الآخر وحيد قرن بفنّان أرنب. . . (يا إلهي ماذا يحدث لي؟ فقير النحل في صدري يكسده ويغير. ثلاثون عاماً من النحل. . . نحل داخل شرابي. طنين يصم أذني ولست بواحدة).

الطنين يصم أذنيتها.

يصم أذان الحضور جميعاً. يدخلون وهم يرون أسراباً من النحل تتدفق من كل مكان كهبوب الرمل في عاصفة هوجاء ولا أحد يدري بالضبط من أين يظل.

النحل يتدفق. ثمة صراخ: انقلقوا النوافذ. النحل ياجئنا.

أسراب هائلة من النحل تغل في القاعة. وهم في شبه غيبوبة، كمن يرى حلياً ألباً عائشه مرات ومرات. تری ما يدور بعينين زجاجيتين ولا تدري هل ذلك النحل قادم غير النوافذ حقاً أم أنه يخرج من عينيها وأذنيها ويخرجها وأظفارها وشعرها وهي متعطشة ومتجلفة والحضور كلهم يصرخون كالسليمان والنحل يلصقهم كما في كابوس طويل هائل.

زوجها يحشق فيها مذموراً كأنه يرى ما لا يُصَلَّق وهو يصرخ أماً ثم يركض صوباً ولا يدري هل يفعل ذلك للاحتباء بها أم لحمايتها.

لا تلحظ في غيبتها أنها تنحي عليه كرحم.

سحب النحل تغطي وجه صندوق وتلصق وهو يتغصن ألاً ويشير إلى وهم منها كأنه يريد أن يقول شيئاً. يسقط على الأرض. يرتجف كمن يجترق ولا يسمعه أحد وهو يصرخ أن النحل يخرج من فم تلك الساحرة مشيراً إلى وهم الحضور يصرخون ويظنون. يحاول بعضهم الحرب من النوافذ والأبواب. يسقط بعضهم على الأرض ذمراً وللاً من النحل اللامع والطنين المرعب.

تعود ريم شيئاً فشيئاً من غيبيتها. تلاحظ أنها لا تتوجع. لم تلسها نحلة
وليس خنثى. الطين وحده يصمّم لثنيها، والصراخ. النحل ينطى ويحور
الجالسون على حلوة الشرف وأيديهم الدامية للروح في الفضاء كأيدي الغرقى قبل
الانتيار.

صراخ... أين... إغواء... يتتاب ريم تعب حائل وتُفنى عليها.
صغير سيارات الأسعاف. الشرطة. لا تدري كم من الزمان انقضى.
تلتجع عينها: يا له من كابوس! (يقول لوالها أنه سبق لها أن شاعده من قبل.
(ولكن أين أنا؟ لم أتا قائمة في حقل؟).

تلتفت. ترى زوجها ممداً إلى جانبها كمشرات الناس في الحقل، يراجل
بعدما لسعته عشرات النحل فيها يبدو.

ممرضون وسيارات إسعاف الروح والهي، تحت المصابيح الكشافات. رجال
شرطة، وأطباء يتجولون بين الأجساد المرمية على الأرض.

ينحي عليها طبيب شاب. أسأله: كيف حاله، مشيرة إلى زوجها.
يقول: مية لكن حياته ليست في خطر. أنت أخطي عليك ولكنك
بخير. الغريب أن النحل لم يلسعك. لعلة عطورك الذي حاك منه. أتت من
القليل الذين لم يلسعهم النحل. تنصت إليه وسخرية في صغرها (إن يحار
الطبيب أمام لغز حادي كهذا. للذي العلواء جواب ملتح دائماً).

يتكرر فتلاً: عطورك هو الذي حاك بياتاكيد من لسع النحل وفقره
منك... ثمة عطور جميلة بلقضية لحامية الشم البشرية تفر منها الحشرات
وأخرى تحبها.

هذا النحل الأفريقي متوحش وسام... لقد هربت أسرايه من أحد
المختبرات منذ فترة وانتقلت ويبدو أنها كانت هتية في البيت المجاور للهجر
وقتلوا في إيجادها رغم البحث الحثيث عنها.

نصحت ريم. لا تقول له إنها لا تضع العطور لأنها مصابة بالحساسية
بها!

لتهدد عميقاً. تنفّس براحة وتشعر أن صدرها كالأنهر تتخلله رياح المساء ولم يعد عطفاً باحثاً خاضعاً سرّي الطين.

يسأل الطبيب زميراً له يبدو حائراً: ولكن لماذا لسع النحل بعض الحضور ولم يقترب من البعض الآخر؟ وما الذي جعله يمين القيلة بالذات؟...

يقول الآخر: لكل شيء تفسير علمي ومنجد الجواب ولعله الجهر. تنسم ريم سرّاً في داخلها ولا تقول شيئاً.

يعالجون زوجها بالمراهم والأبر. يلتفت إليها ويقول عجباً من اهتمامه بالجنون: لقد خُيّل ليّ في إحدى اللحظات أن النحل كان يخرج منك. يوسعي أن أقسم أنني لمحت في ومضة برق قاذماً من فمك وأصابعك وعينيك وشعرك وأنفك... لا تخيب.

يتابع الأستاذ رضا: ولكن ذلك بالتأكيد مستحيل. خُيّل ليّ بعد ذلك إنك حينئذٍ من النحل. الأسمدة كانت موهبتك دائماً. إنك تفرزين الحنان كما يفرز النحل العسل. المرأة كالنحلة العطاء لديها إفرار ولا تشكر عليه. (ثمّة دائماً جملة معسولة لا يتراخي حينئذٍ ضحكاً... لماذا لا أصبحت؟ صار يثرثر كثيراً مظهرهم) تشعر ريم بنحلة جديدة تطن في صدرها. وهكذا بدأ الأمر من زمان بعدة تحولات وطن خافت... وهكذا بدأت منذ ثلاثين عاماً من النحل).

تأمل سياة مظلمة بأسرها، والقمر مرآة تقع على الأرض وتتكسر وتتآثر حطمتها...

١٩٩٤/٨/٣٠

الجانب الآخر من الباب

لا تشعر بالخرج أبداً الشيخ...
دعوه نمر.

شيكبير

أنتوني للمحاور مع شيخ عائلتي
لقد فهمت، صفات قبل أن يكون رب
الحب.

جون فون

الديانة هي أسلوب الحياة في
صنع حياة أخرى

صوتيل بالمر

الذلة هي الطريق.
جوانه

هل لموت حقاً، أم أنه عبد
ميت؟

تاتسي استور

اللقب الآخر من اللقب

الثلج يظهر كأنه يحل من الأرض صوب السماء. الظلام بدأ يتدفق
تلجج الأسود أيضاً داخل عيني ليلى، وهي تنائم للمستشفى في الضاحية
الباريسية.

نجر أقدامها القمء الحديدي للمحرك لاجلها شاكتر وعجلاته تلوح في ثلج
تركض فراشه البيض في القدي منذ يوم وليلة. (إني حصان مسكين متعب يجر
عشرات العربات ولا يدري كيف ولماذا).

كنت مهرة شبه سعيدة على شواطئ الضوء. أشق طريقك ككتابية في
الصفحة الثقلية في إحدى صحف بيروت وأحلم بالتراجع، وها أنا بصعوبة
أنتزع خطاي من الثلج.

يوماً كنت عائقة لعبق نعيم احتفي بها في اللجأ من رعد القصف
وأهر الموت. . . كانت عتاة العسكيات المدائشان تاكلن أركض إليهما وأهرب
غيرهما إلى حقول شامسة صامتة إلا من أصوات المصافير، بعيداً عن أصوات
القصف والرعب التي لم أعرف سواها منذ كنت في العاشرة من عمري حين
انفجرت الحرب. . .

حيثان في اللجأ تصفحتني ضد الحروب والموت والألم، وضد هموضة
يحجم جرذ، وجرذ يحجم قط. . . نجلس وسط عشرات الأمر الأخرى الجارية،
محاطين بأسرتنا، وتعلق نظراتنا خلسة في مؤامرة لطيفة للقل الحضور، تلهمهم
من اللجأ واحداً بعد الآخر بمحبة لائمية، مع أصواتهم ورائحة عرقهم
وعفونة جدرانهم وجرذانهم وأصوات حريم وجنودهم وثقي وحيدين معاً في
تلك الحقول الخضراء الخائفة.

كيف انتهى بي ذلك كله إلى هذه المسيرة الدليلة الحزينة بين البيت
والمستشفى المجاورة ثلاث مرات كل أسبوع على طول خمسة أعوام من القلق
والقهر؟

لقد حطمت في مراحمي بعض الزوجية ولم يخطر ببالني أنني سأعثره لجرود
أنه لرب من مستطلي في قارة أخرى! . .

يقولها شاكرا من المتكاثرة وسأطأ مرتين . متى يحضر سمو يوحنا؟ وكرو
سؤاله قبل أن تلتقط الفاسها لتجيب بثقة صيرة . علينا بالخطور في السادة
والنصف .

بصعوبة لرفع المقعد الحديدي التحرك استعداداً للهبوط به عن الرصيف
وتطرح الشارع . يعادها الرجوع في ذراعيها المرعنتين وحين رفعت شاكرا في ميزالي
لأنه من مقعده وحمله شهيدا لوضعه في مقعد الطائرات النجمي للشرطة . وحيث
فيجاء أنه يكبر ومسامحة تكبر معه ولا أنري إلى متى أقدر على حملها .

كان وزنه أثقل من المعتاد . كاد يتزلزل من بين يدي . لقد ذراعيه ليسك
بكتفي مثل مصلوب على جسدي المصلوب بالنصب .

حينئذ امتدت ذراعيان لرجل لا أعرفه لحملته علي وتوجهاته في المقعد .
شاكرا انقسم للغريب على غير عادته . وهو الطفل الذي لم يضحك مرة منذ
حسنة اعوام . منذ اصابته شظايا القنبلية الأخيرة في الحرب وحلقت مشلول الجزء
الأسفل . .

قلت للرجل بالفرنسية : اشكرك يا سيدي .

أجابني بالفرنسية أيضاً : سأبقى معك وأساعدك في حمله إلى الأمام
وإعادته إلى مقعده . ولولا كهولته ومظهره العفني لظنته يريد التحرش بي .

نأملت . طفل كبير على حين طرة بخدين عشرين بالسكاكر المبروكة من
عليه جدته وعينين جدلتين تطلعتان إلى مياحج والتميزني لأنه الطولية بياض
بريه لأحضانها كلها مرة واحدة .

تأورنا بالفرنسية نصف وكبكة وبنا اكتشف كل منا أن الآخر لهناني .

سأله عن اسمه . أجب : شاكرا .

ضحكت : يا لها من مصادفة ! أبي يدعى شاكرا أيضاً .

أضاف : لكن الأختال يدعوني يوحنا .

.. أطفالك؟

.. أطفال الميرك حيث أعمل مهرجاً. هذا هو على الأقل اللعب الذي يُسمي به الناس مهنتي من الخارج.
سأنت جافة: وما هي مهنتك؟

.. عقيم عند «بابا نويل». هو يوزع الهدايا في فترة الميلاد وأنا أحاول توزيع الضحك على مدار السنة. الأهل يقومون عنه بعمله ليلة، وأنا أقوم بها بقية السنة!...

أجبت من قلبي كله. لم يكن مهماً ما يقوله بوبرص بل كيف يقوله.
كانت لديه موهبة أنعاش الفرح.
حل ضاحك ثانية إلى مقعده فلم ينظر منه كعملته مع الغرباء. سألتني أين والدته؟

أجبت: زوجي نعيم يعمل في دكان لتأجير أفلام الفيديو العربية في باريس ولا يستطيع مراقتنا.
هو يرأسه غير مصدق.

شعرت بنهية لا تقاوم لقول الصديق: حياً. إننا لا نملك من المال ما يكفي لحضورنا ثلاثتنا، فكلقة الميعول ٢٥٠ فرنكاً فرنسياً وأحوالنا المادية صعبة لا تؤهلنا للعيش في باريس. لكننا اضطررنا للإقامة في إحدى ضواحيها من أجل جلسات علاج «العصية». نعلوا كل ما بوسعهم في بيروت، ونصنعونها بالبحر إلى هنا.

راقب زوجي هزيل ولكننا نكذب أمرنا.

.. لماذا لا نعملين وتساعدينه برأيك؟

.. كان بوسعي العمل ككاتبة في الصحافة العربية المهاجرة هنا، حيث أروح ضيف راتبه، لكن نعيم رفض ذلك قائلًا إنه من غير المقبول أن تعمل المرأة ويقتل الرجل في البيت حتى لو كان راتبها ضئيل راتبه.

قلت له يوماً: الضرورات تبيح المحظورات لكنني لن أتناثلك في خطأ

تترك هذا .

لكن لي نعيم : ابتك بحاجة إلى حباتك . تلك كائنات الأشياء لا أفكر على أن امتنها له .

كنت أريد أن ألتصق في هذه الأسطورة التي اخترعها الرجال لتقديسها بساق سرير أطفالنا ، لكن شاكتر صرخ باكياً في نومها ، ورفضنا معاً ولم نبحت الأمر ثانية!

ذهلت يومها وأنا أسمع صوتي يهزج بهذه الأسرار كلها لرجل لم أراه إلا منذ ساعة ولا أعرف اسمه الكامل ويعمل مهرجاً . . .

شعرت بالتعجب والندم في آن ، ووعيت كم صرت وحيدة وعشة وعاجزة روحياً مرمية في متعدي المتحرك النفسي وها أنا أتسول حبات أول من يقرب من حبيبه والفرط عليه أن (يجري) قليلاً واسمح لنفسه باستعماله ككائن خاصة بالشكوى بل وأكاد أعتزف له بأنني أفكر في الانتحار من وقت إلى آخر!

أفراء كان يقرأ المكاري حين قال : لا تلتصق حل ما بحث به ، وأنا أيضاً أشعر أنك قريبة مني ، فانت تسيهين شيخ أخوي كثيراً . ألا تعلمين أن للأموات الأحباب أضياعاً لا تفارقنا ونحضر حين تكون بحاجة إليها لا في الذاكرة فحسب بل قد توجد أيضاً؟ وسألني جداً : هل شاعنت شيئاً من قبل؟

تعلت فاضاف ضاحكاً : أنا مثلاً شيخ لا يخيف الناس في الظلام بل يخاف من الليل قليلاً ويحب النهار . وحين أصوت سأكون إلى شيخ يضحك الأطفال ويفرحهم .

تابع : أحب الأطفال ، وكل من لم يعرف الحياة ميت . الموت ليس موت الجسد ، ومعظم الذين تربهم حولك الآن من الأموات . ألم تلحظي ذلك من قبل؟ ألا تترين اختلاط الأحياء والأموات والأشباح في الشوارع والمستشفيات والأحياد وكل مكان؟ . .

توقفت عجلة الألعاب عن الدوران فحمل بيروص شاكتر بين ذراعيه حي للمرة الخامسة وهو يقول له : وأنا لذلك يا حبيبي ولم يعد هذا المرة إلى مقعده المتحرك بل رافعه على كتفيه والتشغل به حي بقية النهار وهو يداعبه

ويشغل به من لعبة إلى أخرى ويبدو سعيداً حقاً بذلك حتى إنه شاركه الركوب في بعض الألعاب وأصر على أن يدفع لمن الترطبات والشطائر وأوصلي بنفسه إلى البيت في التاكسي.

شاعده زوجي عبر النافذة يحمل القعد ويودع ابني فيه ويودعنا فاشك في نصف خاطب: من هذا المعجوز؟

أجبت: لينلي يحمل مهرجاً في مسيرك لأربحولاده بمعلقة «السان كلوه». لقد أعطاني ثلاث بطاقات مجانية للفرج على استعراض الضحك الذي يقدمونه للأطفال في عطلة نهاية الأسبوع. إنه لم يتزوج ولم يزوج، بأطفال وقد ظل شاكراً كما لو كان أبناً له.

تابع انتزاع القديما بصمومة من الثلج وهي تحمّر أمامها القعد الحليدي التبرك وتكاد تهاجمت جسد الظلمة الثقيل لسان من السواد الصلب وما من لجة.

يسألنا شاكراً: متى يحضر سمو بويوس؟

أكرر بحثان: في السادسة والنصف يا حبيبي. إنها الخامسة والنصف الآن. سأجعل عمل تحضير الشطائر والخلوى وسيسر والدك لإحضار كعكة ميلادك في طريق حوتك من عملك. سيكون عيدك أحل عيد ميلاد.

يسأل: لماذا ستعجب ريشا يحضر سمو بويوس؟

أجيب: سيحضر الأولاد في السادسة، وريشا يصلون جميعاً سيكون عملك بويوس قد وصل. لن يتأخر بويوس عن السادسة والنصف قاطعين. سنبكون بليك ريشا يحضر. (قلت ليوبويوس: عيد ميلاد شاكراً في الأسبوع المقبل، وستحظى به للمرة الأولى، وذلك بمناسبة تولف الحرب في لينان. لا تنس أنك اقترحت علينا ذلك ذات مرة، فهل تستطيع الحضور والسهر معنا؟

.. ذلك يتوقف على توليت عملي ولكنني سأحاول المسحلي بالتأكيد.

.. لا عيد بدونك يا بويوس فشاكر لا يتسم إلا حين نداءه. إنه حارس دائماً كمعجوز كتيب في المدرسة والبيت والشارع وحتى أثناء اللعب مع رفاقه.

الطبيب قال لي منذ عام: هذا العصي فُخِّي جسدياً لكنه يشتر إلى إرادة انثي. إذا لم ينضم ويصلحك لن يشتر. الطب يستطيع أن يفعل الكثير. يزرع الأعضاء، لكنه لا يستطيع زرع القرح.

قال يوروس: قسماً بحيلة شاكز، سأحضر حتى ولو كنت أحضر^(٩٨). هذا وعد وإن أظفر.

سأنت: يأتي شاكز مخلف؟ به أم بك؟

أجاب: أنا وإياه واحداً...)

توقف لبث قليلاً. انصلح من وضع قبعة ابنها على رأسه. لحيط عتقه جيداً بالرشاش الصولي. تنبذ متبكتة. البرد القاروس يحترق التلج ويحوله صليحاً. تكاد تزل بما القدم. تزداد تسكناً بالتقدم الخديدي لشاكز عوقاً عليه من الزنزانة.

تتابع قلدتها ببطء. التلج الرمادي المسائي ما زال يندف في القضاء وماخل قليبها وتحت جلدها. تلج في دورتها الدموية. تلج يندف داخل حنجرتها فتشمر بما يشبه الاحتراق من أسيلات كثيفة باردة يربط فيها اللطمة قبل الخامسة مساءً.

تنفس لاحقاً. ولسعها الهواء البارد في رانها كتدل ايضاً موحش خرافي وما أنا كسيرة نجر كسيعاً. كم أنا متعب! يجب أن أتناك. إنها المرة الأولى التي احتفل فيها بعيد ميلاد شاكز. الاقتراح جاء من يوروس منذ أشهر حين قال لنعيم وقد توطدت أواصر الصداقة بينهما كأي فطون ضالين في غابة مجهلاها: هذا الطفل يتقصه القرح. لماذا لا نحتفلن بأية مناسبة ليست قلبه؟ احتفلاً بالأعياد كلها على اختلاف مناسبتها. احتفلاً بعيد ميلاده على الأقل.

كنت أبعد ولا يوروس^(٩٩) في ركن الغرفة الكشبية الذي تحول إلى مطبخ وإذا انتصت صانعة الحواما وتلي بيكي.

قال له نعيم: نحتفل؟ أحببت زوجي في اللجاء، وهناك عطيتها من والدتها. وليلة الحرس دائما النصف للظبية بقية (الحفلة) في اللجاء. وبعدما

(٩٨) ترجمة نسوية لمرارة يوروس إيمي. ولا تلتزم بهم بلغة وهو تميز بلدي معروف.

(٩٩) القوية: طليق فياكتوري إيتان.

ببام ونصف داعمها المخاض في اللجأ أيضاً وتعلم انقلها إلى المستشفى لحظ
الاتصال الأعوي بين سطحنا والسطح المقابل، فولد شاتر في اللجأ وكانت
إحدى الجارات قابلة قانونية لحسن الحظ. وها نحن نمش في غرفة خيفة
التواكل كاللجأ! كنا نضحك ونمرح بين اللجأ واللجأ طوال ثلاثة أعوام من
الفرحة يشاتر ونمش بالرغم من كل شيء ونعمل أنا كموظف وهي كمحررة
حتى أصابت الشظية ظهر ابنتا وكسرت ظهرنا.. أنت لست غريباً وتعرف
أحوالنا فكيف تريد منا أن نقرح ونقرحه؟

ألا ترى كيف تنقلنا من نصف النار إلى نصف القفر؟

- لن اتغلب عليك مع أنني دوست الفلسفة قبل أن أصبح مهرجاً، فلنا
أعرف أن الكلام الذي الشاطر لا يداوي وجع الأخراس. ولكنني سأصلحك
بسر وبوسمك أن تضحك عليّ.

حين تخرجت من قسم الفلسفة في الجامعة كنت أنوي العمل استغافاً في
الفلسفة. ليلة قدمت ظلمي للعمل داعمنا النصف لنزلنا إلى اللجأ والدنيا غلام
إلا من شمعة في ركنه. دامت طفلة الجيران تضحكت واشتمت في ليبي
شمعة. أكرر. لن اتغلب عليك. لم تنلني في قلبي بل شاهدتها على أرض
اللجأ قرب الأولى.

دامت طفلاً آخر. ضحكك. اشتعلت شمعة لثة. قالت أنه إنني
موهوب في التهرج للاطفال والصابقت أمي من هذا القول عن ابها
والفيلسوف.

دامت أطفال اللجأ. قهقهوا. وضحك معهم أهلهم وعمّ الضوة المكان
كما غيل إلى وتبدل الهواء الخاسد. حين سقطت الشظية أمام باب اللجأ
وانفجرت وفتت أمي جاعدت نفسي على تكريس حياتي لإضحاك الأطفال،
والعمل مهرجاً.

كنت حزيناً أريد زيارة مائة الضر في (طليانية) قلوبنا الكثيفة والمعدوانية
بعدما تكس مراث العتمة على امتداد سنوات الحرب الزليقية.

مثل قلت الفليفة أنني الشفاقة كهوى من ضوء، هربت من ذلك المول

كأنه إلى إنحدارك أحاطال الثلج المذهورين والجرحى وقال الجيران إني ظننت
عقلك لمصرع أمي أمني وكثرة ما درست الفلسفة أيضاً! . . . بكه عليك يا أمي،
هل تجدني مجنوناً؟

أجابه لعيم: مجنون وألف مجنون فأنت تطلق عليك حل شراء الذهب
والهدايا لشاكر.

- المجنون هو شريك في الغرقة. إنه يتفق ذاته على النساء.

اندخلت في الحوار وقلت لها: كل واحد مجنون على طريقته وكلنا مجنون.
لهم أن يختار المرأة المجنون الذي يناسب طبيعته.

يرجو شاكر أنه بما يشبه البكاء وهو يرتجف: عجبك قليلاً لأنني أنصر
بالبرد.

غريب بصمت: أخاف يا حبيبي من الإرتفاق على الأرض. لا تقول له إن
أصحابها تكاد تجعله داخل قفازاتها الصوفية الثلجية البتة، تخشى أن يتراقب
كرسيه من بين أصحابها وتغضبه سيارة لو يعظم بجداره لو. . .

لا تريد أن تقول له ما يكرهه، لذا غريب بصوت هادئ: حاضر يا
حبيبي. . . ووقفت أمام واجهة الخزون في الشاذليين والمطبخ الشاذلي المظلم
بالقراء ينالني. الثياب المندمجة الجميلة بأعلاقة الثمن، فمن أين لي بشراء
الثوب؟ القستان الوردي أيضاً كان ينالني. أعرف أنني كنت جميلة. أنني
فسد حلالة حينئذ ويكاد يتنلى حتى أنني، ولقمتي قصيرة ومفطة ومحرمة من
الاستعارات المندمجة يزوايا حانة تجعلها شبيهة. ولكن لو كان يوسعي شراء
هذا المصطف بنجته البطة بالقراء والثوب لما تطبعت لي ليالي النخيل، ولو كان
يقنودني شراء هذا القستان الوردي ليذا أنني أعتبر قليلاً، ولو كنت أملك
أقال لعملية تجعل لأتقي لصرت حلوة.

التربت على الباطنة تسألني: هل استطعت أن أقدم لك خدمة؟

إنه الأسلوب المذهب الفرنسي لطره الزبائن الفاسين وتذكيرهم بأن ليس
لنسيم ما يفعلونه هنا!

قلت لها: لا. شكراً.

انطلقت هاربة من المكان وقد صاحبت نغمي على أن ألتصق التوفير في
الثلقات لشعري كرمياً متحركاً على البطارية للشاكر وسبارة لتسهيل التنقل
صعد .

حين عدت إلى البيت تشاجرت مع نعيم لأنه كان قد اشترى (كروزاً) من
السجائر بالرغم من ارتفاع أسعارها . بدعني ويبدو أنال ويخلفنا بدخلة في
شقتنا المظلمة ، فتهرب أنا وشاكر إلى غرفة الصغيرة المنفرة عن غرفتنا الوحيدة
ولا باب آخر لها ولها كوة صغيرة عالية تنوب عن النافذة .

تشاجرنا طويلاً وكل منا يعوي في وجه صاحبه وكنت أعرف أننا تشاجر
مع مصيرنا ونعوي في وجه قدرنا .

ظلمنا تشاجر حتى تحولنا إلى ذبابين تنميطان في شبكة عنكبوتية شامخة
وما من ضوء . ثم فاجأنا بيويس بزيارته و (تفلسف) علينا قائلاً أشياء عن
المسود وظلمة العداوة وهو في طريقه إلى غرفة ابنتا الطيفه كالوكر وسمنه
يداعبه ويهرج له ثم خرج بعد نصف الساعة وكنا عداًنا وقال : لقد نام المسكين
كثلاثاً . لن يلف حل قدمه ولن يشفى وأنتما على ما أنتما عليه من شجار
ويؤس . ما أقتل ميراثه من الظلمة !

لم نأله له وعلالت أصوات شجارنا من جديد . . .

قال لنا غاضباً : أنتما شبحان بشمان مرعبان . . إذا تشاجرنا ثانية هكنا
في حضوره وابقتيه بعداً كنيا ساعاً كنيا باعتطاه ونهضي معاً . . .

انقسم نعيم وقد انتهت ثورة عصيته وعادته طيبة قلبه للثورة حيث
يحاول ترميم كل ما غزبه حوله متودداً للأمر حتى التعلق المفاجيء ومتدحفاً
أية مسالة نقال وضاحكاً لأنه نكتة ولكن دوناً احتذار .

أما أنا فقد أضعفتي عبارة بويوس حقاً . . . ما يرعيني أكثر من الشلل
النصلي للشاكر هو عساري له . ذلك الطفل الجميل المذهب الصابر بكبرياء
الذي يب من شعره رائحة أشجار الأرز ، ويمرّق جلده ملوحة البحر وتلوح
في عينه حلوبة ذكريات طفولتي في تلك الأيام الجميلة قبل الحرب . .

أه الذكريات الجميلة جداً تعهدت ذاكري بالتمحريف بشطب كل ما كان

بشعاً ومضاهية جمال ما كان جيلًا... الذاكرة... ذلك الشبح الذي أمسك
به، أراه ولا أراه... وأنفدن في اختراعهم.

يقول شاكر بأستان ترتلف برءاً: ها قد وصلنا أخيراً..

في صوته نبرة لفة وانظرا لفرحة عيده.

أحاول ليل أن تقول له شيئاً ولا نجد صوته (بضمير) تكتب القصير
للظلم يسود من حواراً سعيداً كتب في أسيات أعياد ميلاد الأطلال في
التفزيون. لكن الأمور تجري في الحياة على نحو آخر.

أكد أبلر تحت وقع ظلمة الليل وظلمة قلبي، وأشعر أن للظلام وزناً في
البرد، ثقلاً كحجر القبر، وأن للظلام رائحة حزينة، وله صوتاً أيضاً يشبه
صوت تنفس الأنا تشب السجدة برماً.

في لحظات كهذه كنت أفكر بالانحسار.

لسبب أجهله كففت عن التخطيط لانتحاري منذ عرفت بيروموس.

أحمل ليل طفاها على السلم الشاعق متأكل الأعشاب، ولحافز الإنزلاق
به وتكاد تبكي تعباً بعدما تهربا وأفلتها عاهته.

تفتح البقرة العجوز بابها المقابل لبابهم وتقول لليل إن موثقاً من وهذان
برائتان، جاء حصراً في غيابها ليوصل حشرات من حلب الهدايا والشمع لشاكر،
ولما لم يجد أحداً ترك الألعاب عندما بعثها وقفت له على وجعل الاستلام الخافي
بذلك.

تشكرها ليل ويهبط السلم ثلثة حمل الكرسي المتحرك الثقيل إلى البيت
وحين ترفع رأسها إلى السماء، تبدو لها مثل باب اسود كبير صلد مغلق بإحكام.
(من أين كوم الهدايا من المخبزون الفاخر «برائتان» وأصدفها شاكر كلهم فقراء
مطلقاً ولم أكن أتوقع كهذا أكثر من بعض الأعلام الثقوة وما شابهها؟)

يتنفس شاكر بضعة تحسن الأوراق الثقوة التي تعلق القلب وفتراتها
المدحبة. تقرا ليل اسم بيروموس على بطاقة التهنة. حشرات الهدايا الشبية: من
سواء يمكن أن يرسلها لشاكر؟

ترك ليل أبها في الغرفة بانتظار وصول بقية رفقاء ليطلقهم عليها وبعده
ذاتي الذي أوصاه أهلك مبقراً للشيء.

ترك أيضاً باب شقتها مفتوحاً وتدخل إلى بيت الميجور القيمة مقابلهم
بعدما عرفت عليها إعداد الطعام في مطبخها الواسع الملاصق للمدخل إكراماً
لعيد ميلاد الطفل المصاب، وهي أدري الناس بحال بينهم الضيق فهو ملك لها،
وجزاء من بينها المصطف وأشرته للروح مائلاً قليلاً وأنساً كثيراً.

تعمل ليل على إعداد الشطائر وبعض الحلوى بسرعة. (أ) لو كان
يوسفي أن أوجب له ملقة كفاي كانت لمي تحضرها بمعرفة عياني لعيد ميلادي
قبل أن نظفها الحرب والظلم. مبروك من مطبخ الجارة الملاصق للمدخل كلها
سمعت جلبة وصول طفل مدعو وتستبد من أهله.

تبدو على وجه شاكر إشارات الفرح كلها وحصل طفل واستلم هديته منه،
وبدا يذيق الأواني للثقة عنها.

تعود ليل للعمل على إعداد الشطائر.

يرى جرس الهاتف. مبروك والحبيب. نعيم يقول لها إنه سيتأخر قليلاً في
الوصول مع وصلة العيد لراحة العمل ويسألها هل وصل يوسفي؟

تلاحظ فجأة أنها السخسة والنصف، وتقول لنعيم إن يوسفي لم يحضر
بعد، ولكنه أرسل عشرات الهدايا القيمة التي استلمتها الجارة لعلال فيبيتهم
الطريقة في المستشفى. نعيم يقول قلناً: أمل ألا يفلت. ليس لدينا في غرفتنا
الحديقة ما نلبي به الأولاد إذا لم يحضر يوسفي. (أي السجود كمان الأطفال
يفهون حتى النهاية ليوسفي، أما الكبار فلم يفهمك الكثر يرون منهم لوجهه
الرسوم كأي مهرج يأكل حمر مثل الكرز. كان يبدو مؤثراً للكبار ومفرحاً
للصغار. لم أر من قبل سركاً، كفاي الذي ألقح يوسفي في التزاح البهامة منه لا
أكثر. وشيئة فنية تسلك إلى روعي وأنا لراء بين القلب كالأطفال لا بين
الشئ الحسيرة. . . ووجعتي بعد دقائق أهله مثلهم وقد عدت طفلة. وميت
لني ما زالت لغرة وحية لأن يوسفي ما زال قائماً على اصحتاني كبقية
الأولاد.

نعم الكفى بالساسة وقال شبه معتدل: إنه مدعش.. لكنه لم يفهمه كأنه
لبي الضحك كابت)..

تسأل العجوز ليل: أين المهرج الذي قُلبَ إنه سيحضر لإفراحك
الأولاد؟

تجيب: لا أدري، لماذا تأخر هكذا، المهم أن أنجز إعداد الطعام.

تقول العجوز: لولا الرومانيزم في أصابعي لمساعدتك.. (لم يعد ثمة من
يساعدني.. حتى زوجي يبدو هذه الأيام غافاً وأؤكد لا أصدق أنه خرج ذاته
الذي كنت أعُوب عيشاً فيه.. يبدو تلك الأيام تجمية كأنها لم تكن.. كان للقبعة
كلها هناك تحالفت ضد حبنا ثم رمت بنا في حفرة الليل والخلج...).

ثمة أيام أشعر فيها أن العالم كله انحلف ضدي في حرب لم أشترك في
صنعها.. وثمة أيام أتذكر فيها ما سبق وكتبته وقلته، و«انجباراني» وتصفيقي
على الطرف وصمعي عن محاسن غير مشرفة لذلك وشيأتي يموت ليريل وحشدي
على الآخر... أهمل استطع حقاً تبرئة نفسي من هذه الحرب؟

لَمْ تشررت كلها فيها؟

أعدا البؤس حثاي وحصاد خطابي؟

هل من خلاص لي بغير الاعتراف والتلاوة لعمل الندامة؟

لَمْ تكن الشظية التي أصابت ابني آتية من قبعة كنت أتعاطف ذات يوم
مع مصيرها؟ أه لا أدري... ويبدو لي التفكير هكذا ترفلاً في بعض
الأحيان... أنا التي أخوض في تلج الفجر والشعور بالذنب..

من المزعج أن يشعر المرء بالذنب مثل إذا حلم بالمصادمة لنفسه، وهذه
الشظائر، ألن تنهي أبداً... طبقة من الزبد، فأعزى من اللحم، فأعزى من
الحسن، فلانوييز، غاليكاه الصامت واليكاه السري واليكاه...).

ضحك.

تسمع ليل ضحكاً قاصداً من بينها عبر الباب المفتوح. فوهبات لمشرات
الأطفال تميز من بينها ضحكاً شاكراً التي لم تسمعها مرة واحدة من زمان، مثل
أصابت الشظية الأخيرة في الحرب وحولته إلى معاق، لكنها تعلم علم اليقين أنها

ضحكته وأن يوبوخس وحده نجح أخيراً في الإفراج عنها.

تسمع أيضاً صوت يوبوخس الذي يندثراته وحمل منذ قليل وبدأ يث القرح على موجة الأطفال.

تسمع صهباته وزجهراته وانفثات شاكتر (طالما كرر الطبيب في: ألا يضحك هذا الطفل أبداً؟ لا حائل طيباً يمول يته والشغل ولا سبب عضوياً لماعته بعد الآن. إنه بحاجة إلى إيقاظ إرادة الحياة والقرح).

المعجوز تقول: يبدو أن المهرج وصل.

تابع ليل عملها وقد انزعجت صخرة الجليد عن صدرها. (يبقى أن يصل نعيم بكعكة العيد ويكون عيد الميلاد الأول في القرية بعد الحرب ناجحاً)

ترك الشطائر وتقرر أن تلقي نظرة على ما يدور. (أريد أن أرى شاكتر ضاحكاً).

إنه مشهد يوسه أن يشفي هذا البؤس كله القلي أنقلب فيه كمن مشى إلى كابوس ولم يعد يعرف كيف يفكره).

تدعو ليل المعجوز الفرنسية لمراقبتها للفرجة على المهرج تقول الأخرى إنها ستصلح من ليلتها وتلحق بها!

تجده ليل إلى شفتها غير المشي الصغير في السلم وتليها يرتجف (هل أحب يوبوخس؟ نعم. أحب. لولاء لما استطعت التماسك طوال العامين الماضيين. لم أعرف رجلاً أكثر رقة وعذوبة وعقلاً وحناناً منه. نعم أحب. إنه ليس حب الشهوة. لم تحط بهال مرة فكرة عنائه أو امتلاكه كذاكر، لكنني أحسك حضوره في حياتنا ولولاء لتفتنا كلنا)

يتملك ضحك الأطفال وهي تدخل إلى الغرفة وتقع نظراتها على أيها شاكتر وهو يقهقه بفرح استثنائي كلبية الأطفال، ويخيل إليها أنها ترى يوبوخس يقف يقدم واحدة فوق سطل من الماء لا تدري من أين جاء به، يتحرك بسرعة مقهقها ولا ترى يوبوخس أعم واقف على ساقه أم في وسطه تدون أن تنشط فيه قدمه، في إحدى حبه الخاضعة الخاصة، ثم ينتقل منه وهو يرتفع رويداً رويداً في الفضاء قلزاً مهرباً متظاهراً بعد ذلك بالخوف من السقوط والأطفال

يضحكون ويهزجون ويصفقون ووجه شاكِر يتورِد بالعافية كما لم يكن أبداً منذ
أصابه وبسبب يوش يتقل كالطيف ويتهج كشعلة حيوية لا جسد لها تسكب
الفرح...
لم ترَ بروس من قبل حياً مشتعلاً هكذا، خليف الحركة كما لو كان ظلاً
على الجدار أو شبحاً...

تقرّر إحصار الشطائر التي أهدتها واستيقاء بروس على المشاء.
تعود إلى المطبخ وفرح الأطفال ما يزال يزفون في ليكة سعدتها الأولى في
الغربة، وضحكة ابنها قللاً لكنها وتقول للمعجوز التي تزينت وصارت جلعزة
لشاعلة للفرح: ليت والد شاكِر يحضر الآن ويراء مقلهاً هكذا... سيفرح
قلبه...
ولكن ضحككت الأفعال لفتت دون أن تتوقف كمن عث بز الصوت في
مديح، بقي البتّ وغاب الصوت قللاً.

تعمل ليل صينية الشطائر ونشي والمعجوز لشاعلة وغرة بروس. لا تراه
لكنها ترى الأطفال يلعبون سعداء ويبدو وجه شاكِر للمرة الأولى طيباً لا يخالو
من البراءة والأمل ونشبه وجه انطون داني وعواير وحسوة وعلي وفيه رفقة في
المسرة.

المعجوز تسأل: أين للفرح؟

يدورعا تسأل ليل إنها: أين عمرو بروس؟
يجيب بلامبالاة وهو يتابع اللعب سعيداً: لا أدري. لكنه دخل إلى غرفتي
أو إلى الحمام...

يصرخ طفل ضاحكاً مفسراً: كان يمشي على الجدار.
يتابع طفل آخر: كان يمشي على السقف. كان يمشي على الماء.
طفل ثالث وزابع وباصوات متهاججة: كان يطارد نطه... كان يطارد
لجمة... كان يطارد ورمه.

تتعدد حكايا الأطفال والفرح يتم المكان. زاني أحلم. من أين لنا
بسعاده كهله؟

مهرج إلى غرفة ابنتها فلا تجد فيها أحداً. غرفة الحمام عالية أيضاً.
تقول لجلوتيا العجوز: لعله تعب فلذهب إلى بيته أو لعله عاد إلى السوق
أو...
ولكنها تتعجب لأنها لم تلتق به في الممشى الضيق بين الشفتين ولم تره وهو
يخرج.

يصل في تلك اللحظة نعيم حاملاً قليلاً كبيراً من الحلوى بالشوكولاته
ويطلب الأولاد معدهاء حول المائدة الصغيرة. يفتح شاكر عل الشموع بعدما
اشتملها ليل (لأن يكون يوم سيئ إشعال شمعة بعد اليوم دون أن أفكر بشروع
بويوم في القبا).
يلحظ نعيم مناخ الفرح وسببالات السحابة وكهلهزها التي نعم المكان
وضحككت طفله التي لم يعرفها منذ أعوام ويسأل زوجته: جاء بويوم، أليس
كذلك؟

تقول: ذهب للزواج بعدما أضحك الأطفال. حتى شاكر تهنئه طويلاً.
أنظر إلى وجهه كم يضيء بالفرح مقلقهها مع رفاقه... هذا لم يحدث لنا من قبل
هنا.

الأطفال يزعجون. يتهمون الحلوى والشطائر ثم يعودون إلى اللعب
بالدمى الثمينة: عذبة بويوم. يفتح شاكر الهدية الأخيرة من بويوم ويقرأ نعيم
على الورقة كلمة لطيفة يقول فيها: «قررت شراء لعب لشاكر بعن الكرسي
للتحرك عل البطارية الذي كنت اقتصدته لإجله إذ إن قلبي يجدهني أن لا حاجة
لكيا به!...»

يسأل نعيم زوجته: لماذا ذهب بويوم؟

- لا أعرف. لم تصح لي فرصة الكلام معه. تفرجت عليه قليلاً وكان
مدهشاً ومخافاً ثم تابعت عمله في المطبخ، وحين عدت والعجوز لأدعوه إلى
المساء وأكلته وأشكره، كان قد مضى.

بعد أن يلعب الجميع، يقرر نعيم الاتصال هاتفياً ببويوم لشكره على
هدايه وحمل حضوره الذي نجح في انتزاع الفهفهة من شاكر للمرة الأولى منذ

إصابته وعلمته...

يخبره على الهاتف زميل يربوحي في الغرفة وهو يركي ويقول يحزن بالغ :
ربووي وأعطاك حمراء. توفى في المستشفى منذ ساعة. لقد عدت للتو من
هناك.

يصرخ نعيم غير مصدق: يا إلهي ماذا تقول؟ هذا غير ممكن...

يتسحب الرجل: خرج ربووي حياً على دراجته النارية كعادته وقال لي
إنه ذهب إلى هازن ويرتأنه لشراء الألعاب لشاكرو وبعدما يساعون اتصلوا بي
من المستشفى يقولون إنه يمضوا

يصرخ نعيم: ماذا؟

يتابع الآخر: علمت من المسعفين في قسم الطوارئ أن دراجته انزلت
مقابل غزن ويرتأنه وطار منها مصطعماً بجداره. حراس المبنى اتصلوا
بالمسعفين فطلقوه إلى المستشفى بعدما أصيب في رأسه وعضوده الفخري إصابته
بالغة كما ذكر لي الطبيب.

- متى كنت إن الحادث وقع؟

- حوالي الساعة عشرة ظهراً كما ذكرنا لي في المستشفى. لقد دخل المسكون
في سيارة حافلة منذ لحظة الاصطدام ولم يبق من السيارة وتبقى أمام عيني منذ
ساعة!

ينادي نعيم زوجته وهو ما زال ممسكاً بهاتفه ويسألها بصوت جهد
أن يكون هادئاً كي لا يلفت شاكرو: هل قلت إن ربووي جاء الليلة؟
- قلت لك إنه جاء.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

تلحش وأجاب: شاعته بعينى وكذلك الأطفال. لم هذا السؤال؟

لا يجيبها ويتابع الحوار الحائلي مع رفيق غرفة ربووي: من غير المعقول يا
أخي أن يكون الاصطدام قد وقع قبل الظهر. ربووي كان عندما قبل ساعة. .
- غير ممكن. كنت إلى بجانب فراشه قبل ساعة. بل إني قضيت بعد

الظهر عند في المستشفى ولم اغفره إلا بعدما غافرتنا رحمه الله . منظره كان يمزق
نياط روعي . . . كان السكين في غيبوبة ، متنبهاً إلى عشرات الألييب التي تخرج
من شرايته وألمه وعنته . . . الله لا يترك منك منظرأ كهذا لغزير . .

- ولكن . . . من الذي جاء عندنا؟

- لا أعري . . . ولا تفسير منطقياً لدئي الآن . . . أعلمني . .

- هل نطقه أرسل أحد زملائه؟

- لا أعري .

- أقسم لك أنه كان هنا . . زوجتي لا تكذب . . .

- وأنا لا أكذب يا أخي . . . لقد لازمت منذ الظهر وهو يحضر حتى فارق
الحياة قبل ساعة . بوسحك الذعاب إلى المستشفى وسؤال الممرضة والأطباء
وحضر البوليس . هل يحتل أن أكذب عليك في كارثة كهذه؟ . .

- الممرضة يا أخي . الصدمة أطاحت بصوابي .

- وأنا أيضاً . فاعلمني .

بعد نعيم سباحة الطائف وزوجة نصحت ولا تفهم شيئاً ، وتنفخ على
مستفزة .

يقول بصوت منخفض: بويوس مات منذ الصباح بعدما اشترى الهدايا
وأوصاهم بإرسالها . . .

- ولكنه كان هنا . . .

- لم يكن هنا . لا يحفل أن يكون عندما يحضر ويلفظ أقامه الأخيرة في
للمستشفى ، ويخرج في بيتا للأطفال في وقت واحد .

نصحت طويلاً ثم همس: ألم يقل لنا سره إنه سيحضر حتى ولو كان
يحضر؟ ألا تذكر؟

- غير معقول . . . لهله كان قبل الحادث قد اتفق مع بديل له للحضور .

- غير معقول أيضاً . أعرف بويوس جيداً . أعرف صوته وصبركاته

وتعقباته. . . غير معقول أن لا يكون هو.

- ما المعقول؟

- لا أعرف. لقد شاعده ولم أشاهد شيئاً..

- هل أنت متأكد؟

- لا أعرف!..

- هل تؤمن حقاً بوجود الأرواح؟

- لا أعرف. لا أعرف..

يفرقان في صمت مدهول، ويلحجان شاكراً قرب باب الخفية وهو يلفظ
على قدميه متمسكاً بالباب ويمشي عدة خطوات مسوياً مستنداً على الجدران
وسألها مداعباً: ما بك؟ هل شاهدنا شيئاً؟..

١٩٩٤/٨/٢٥

الساعة ١١، ١٠ ليلاً

بيضة سكرية الهواء.

لا يموت الناس بالنسبة إلينا ولدت
مزمع، بل يستمعون في حالة من
الحياة لا صلة لها بالخلود بل
بامتدادهم فينا كذا أيام كانوا
أحياء... وكذا لو أنهم صغروا.
مارسيلي بروجست

ثمة سكرية بابتلية عن غير حلم
بأنه فرائشة وسرين استيقظ لم يكن
والفأ: غير غير حلم بأنه فرائشة لم
فرائشة حلمت بأنها غير.

الآن كورين

هذه الحياة حلم والحلم ليس أكثر
من حلم

يلدو دولا باركا

الحلم مسرح حيث الحداثة مسو
المشال والنتيج والتكاتب والجمهور
والنقد... .

د. جونغ

بهجة مكيفة الهواء.

لولا بأن صوتها من تلك العلية البلاستيكية لا قسمت أنه أتت من أميائ تلك اليلة المظلمة التي الحملني السباحة فيها والعزول طوال النهار في لوجاء مكسي في ناطحة السحاب هرباً من شياطينها وظلالها وأصياك لفرشها وقناديلها المضيئة وهياكلها المظلمة وصناديق كنوزها وأثاثيد عرائس بحرها وقراصتها . . .

أه تلك اليلة المظلمة المضيئة في قاعي التي أتقن الغرب منها . . ولكنني أزررها مرغبة ليلاً حين يقتل النوم إليها مقبلة في قواب الخلم . .

لولا بأن صوتها من سياحة الخائف لا قسمت أنه يتأخري من قاع تلك المياه لأتفر مشسلة وأتبع نبرات حتى تلك الدعايل الرجائية التي أكتعت إقبال أروابها ذات يوم بسبعة أفعال وعملت على تلك سبعة أعوام بلياليها وأنا أتعجب : أعلق يا سسسم!

هل يمكن لصوت علفت مرهف أت من سياحة المائي الثاني أن يظهر في وجهي موجاته الصوتية عمقاً روسي وشطاباي تطاير بين موجة وأخرى من موجاته وماه بحر غامض الأتواء يجرل من جديد إلى الأميائ الممتدة وأنا عينا ألقوم؟

قالت لي بلهجة شامية عتيقة : أنا ميمنة أم عرفان الساروجي ، هل تذكريني؟

صوت أوكيف مثل قطرة شامية مبتلة في زقاق معتم ، وقد ميؤت صوت السيدة ميمنة وأثرت بهدي إلى سكرتيري كي يغادر الغرفة مع الموظفتين الجالستين إذ عفت أن تكتشف صموي الجمالة هرباً إلى عهدي بعد سنوات طويلة ، وتساخط على وجهي ومعها أسطورة الرثة قولانية الأعصاب .

صوت أكرور يدهول كخرقاء : أم عرفان الساروجي ؟ ميمنة خاتم؟^(٢٢)

(٢٢) خاتم : لقب لوكي يطلق في دمشق على النساء استزهداً.

سألك ثانية: لم تسمعي صوتي منذ ربع قرن. فهل تذكرتي؟

كيف كان يوسعي أن ألقى صوت والدتي حين الأول الكبير؟ كان أبها الوحيد، وكان ربما حين الوحيد. فها لكسلة التي لا تنقسم هراعا بين عاشقين لرجل واحد هما مبعنة غنائم وأنا.. (أجرتني من يدي أمام المرأة المظلمة بالصدف في صالون قصر آل الساروجي، وهي تخلق قرطها الماسين البهيمين وتطلب مني أن أجريها.

مفردة بالحجل ارتدبتها يدين مراجلتين.

أشعلا وجنتي بثار كانت مظلة في قلبي، فقد كنت عاتقة وسجدة وفي السادسة عشرة من عمري.

تأملتني. ماستان كيرتان كل واحدة ككرة السحرة الشفافة يحيط بها إطار ذهبي بقولن شرقية كأيا كتلية سرية لتعاويد خامسة. جريتها فهيت منها على وجهي والحة الفتوة وليلي يردى وصمعت مهببات الناس حل مر الآف الستين من أزقة مدينة الدخربة وخفت كيا لو كانت لوطون مسحورين. خلعتني وأعدتها إليها فضمتني إلى صدرها الدافئ وقامتني المظلة ورائحة عطر وأريج، عتجة بدانة المكندوس^(*) تلوح منها وهي تقول: عاتان الماستان ستكوتان عديتي لك ليلة العرس.

لقد توارثتها من زعان، ربما من أبام بناء سور الشام. أعرف أنك ستحافظين عليها وستهدينيها بدورك ذات يوم إلى من تستحق.

أعادتني إلى أذنيها فعدلتها حول وجهها كاسطورة. صرت أراجل فرحاً وأقبلها بترق مراجلتي وأقسم لها أنني سأكون قبل أن أعون الأملنة.

بطول صمتي، وبدي المسكة بالهاتف لرتجف..

تقول وهي تكوهم صمتي لأبلاأ: معلومة يبدو أنك نسيتني.

أبجد صوتي: لا. لم أنسبك. وأنت بالتأكيد تعرفين ذلك، وإلا لا اتصلت.

..

(*) تلة المكندوس: طبق شامي خاص بالولاكم.

.. هل يوسمنا أن نلتقي؟

.. بالتأكيد، أينما شئت ومتى شئت.

.. تعالٍ! إلى فتلي بعد ساعتين. أنا في فندق «الوالدورف أستوريا».

.. سأكون هناك. إلى اللقاء يا مينة عاتق و «يا مينة أعلين وسهلين»⁽⁸⁾.

أعيد سباحة الحائظ إلى مكابها وأنا أكاد لا أصدق. الموت يدي فوقها ثقيلة كسحكة ثققت للو ولم تعد يدي ولا قصبي ولا أعرف كيف أعود بها إلى مفتاح الكمبيوتر ألسي.

جرس الحائظ يرن ثانية لأمر ملج. أقرر تأجيله على غير عاتقي. أطلب من سكرتيري إعلام الموظفين بتأجيل الاجتماع الذي كنا بدأنه.

أتلل نيويورك من نافذة مكنتي في الدور الخامس والثلاثين من إحدى ناطحات السحاب.

يُدغمني من جديد ذلك الإحساس بالاعتناق وأشعر أنني أعيش داخل بيضة جهنمية تتعرق من الداخل زحلاً وهياجاً والأفق ضجيج متفلق كمنصف دائرة.

في نيويورك أفتقد النفس الذي كان يجيء كنوم الطفل في صحراء والمياه أو المرتفعات القارية على الحدين الصلاطين لقاسيون ونحن تنسلها معاً، عرفان وأنا. . أتنفس الجميل حتى قاع شرايطي ويمسكتي كلها للشرعة لا متصاعص الحياة والفرح. كان حب الأعلنته الدهرية في وجه قاسيون ونجاheid لها حصر الزمان يوتخذنا، ويمنح حبنا بعداً يتجاوز الأزمة. .

منذ أيامي الأولى في نيويورك حين بدأت العمل سوطقة في هذا البنك إلى أن ارتقيت وصرت ثانية للمدير، وأنا أشعر أنني أعيش داخل بيضة مكيفة الهواء لكنها خائفة ولا أعرف كيف أتقب قشرها الجهنمية أو أفتح نافذة فيها لأغادرها إلى الملوود وأحبها. . .

أعيش حياة مزعوجة، إذ نبدو لي حياة النهار العملية في البيضة مكيفة

(8) «يا مينة أعلين وسهلين» ترحاب شامي حبل. مينة أي ملة بالهجة للشيلة هناك.

المراء حلياً كالموسم منقياً لا استيقظ منه إلا حين أنام وأستيقظ، فلحياً اختراقاً في
لليلة الشاسعة الحارقة وأضني إلى حوالى العشرى، لم أفتح يوماً في نسيانها

أظن أنتمل نيويورك من النافذة . . مئات آلاف النوافذ تحلق بي بين
ساحرة، وثمة ساحرة تركب مكنتها بين ناطحات السحاب وطائرات
المليكوتز متاهية لا اختراق جدار الصمت إلى خارج البيئة المبهمة .

يدخل معارفى السكرتير ويسألني بوجهه العشريني الضفر: هل متعبرين
الثيلة بي؟

أجيبه كأي رجل أعياك كثير المصوم والأعمال: ليس الثيلة، إني متعب،
إذا بدلت رأبي سأعطف لك.

يقول بصوت منخفض ولكنه العريبة التي لم تفرقه بالرغم من هجرة
أسرته إلى أميركا وهو صبي صغير: تعلميني كيا يعمل الرجل الشرقي عشيقته .
قولي نعم سأحضر أو لا لن أضرر ودعني التصرف بما تفضي من وقتي . تعرفون
أنني أعبك .

يتنقل لمسح النافذة من الخارج ماسح الزجاج في شرفه للتحركة المعلقة
بالخبال، يصرع سكرتيري صوته ويرغمي الستارة بملقة كمن يصفق باباً في وجه
الأعسر . أمثل به بشحنة عذوائية نحوه . . (يجني ذلك الشاب الذي يصغري
يعقنين؟ يقول لي الأمر هزلياً لو لم أذكر أن صديقتي وتذوّاء في دمشق كانت تعمل
للرجل الذي تعمل سكرتيرة له وكان يكبرها يعقنين . وانتحرت بسببه . فلم لا
يجني شاب يصغري منا؟ لتجرد أني امرأة وهو الرجل؟)

أجيبه بهذو: منبعت الأمر معاً بلا جلية خارج المكتب . أنت تعرف أني لا
أعطل بين عملي وجسدي، ولا أريد أن تنهني يوماً باستغلال مركزي في
صكنا . والآن علي أن أتعبد لأمر طاريء . أرجو منك أن تلقني بقية لوتباطائي .

ـ أحبيتك لأنني توهمتك شهوزاً وإذا بك شهراراً

ـ اعلوني، لن أعرض الآن في ذلك كلفه .

ـ السبت امرأة شرقية . أنت رجل شرقي !

- اعطوني. لن اعوض الآن في ذلك كله.

- أنا الرجل الصحراوي، لكنك تعاملين معي كما كانوا يعاملون
المهريم... لماذا اخترت عريباً لتعليقه؟ لماذا لا تعطيني صلة مع ريتشارد لو
جولي؟

- اعطوني. لن اعوض الآن في ذلك كله.

- وأنا لم أجد راحياً في ذلك الحب كله. ستزوج من ابنة عمي التي لم
أرها، وأرضخ لشبهة أهلي. سأكسدها من آخر الدنيا. ذلك أفضل بالتأكيد..

أسمع صوتي بارداً وقطعاً كحد شفرة في صباح شتائي:

اعطوني. لن اعوض الآن في ذلك كله!

استقل المصعد إلى الرائب. أقطع سيارتي والروول سرفيته صعدوا صوب
وبارك التبره حيث فتحتها.

أقود سيارتي والتكديلاكة الضخمة دونما وعي كأمراة آلياء، بينما أهرول
طفلة حافية القدمين عمرة الثياب في دروب دمشق الماضي وأنا اتجنب بحثاً عن
الذين أحببتهم في الماضي وراحوا... (مثل الحلم راحوا)^(٤٥).

ولكن الماضي لا يروح حقاً. لقد بقي في أهالي وشياً من حجير لا تبذله
الأيام. وما من طارد شياطين يوسعه إخراج وجوه أحياء الأرض التي تسكنني
كأشباح غالية.

أصل لعام فلفل والوالدشوف استورياه. ما زال في الوقت متسع. أهييم
على وجهي طويلاً طويلاً في زحام نيويورك. أقود سيارتي في الشوارع وطوق
الجبور على غير هدى وأنا استرجع الماضي كله بدءاً بوجوه ريفاتي في المدرسة.
أكاد أصرطهم بالعديد من السيارات.

أعود إلى مدخل الفندق وأترك السيارة لعامل مرأبه. ألتزم لأنني لم أصر
بالبيت لإصلاح زيتي كي لا ترى هيمة عظام وجهي بعد هذه السنوات كلها بلا

(٤٥) (مثل الحلم راحوا): ألفتة للسيدة ليرول

ملاحق كيا في المآثم الشامية ومعهدا ي (اتفتن) كثيراً أيام عطشي لانيها وأقوم
بذرات حل (عليه الفتنة)^(٥٦) التي تحسها وحل أصبح الشفاء بلونه (الرف) الذي
شاح يرمض.

أصعد الدرجات المرمية إلى المدخل الفاخر بأرضه المشوشة بلوحة
فيلسافية مستديرة تذكرني دائماً بنسبته الجامع الأموي (يا خني لذلك
الزمان). أجلس بانتظارها في صالة (البيكوك أله).

لقد جئت قبل مواعيدي بأكثر من نصف ساعة، كي أفرغ رأسي من
أصوات حفرات الكمبيوترات التي تغطه وأنيما لاحتفالي الداخلي بلغاتها مثل
جرم يرتب مكان جريته بألق تقاصيلها.

أحلم بأن نقول شيئاً، نكشف سرّاً، نسلط به سكيناً أجهز بها حل
للأفسي وأمثل بجنته وأعطها حل أسوار قلبي سبعة أيام بليلاتها واستريح...

يللي النادل، النجعة، وجليتيديش نوبله بلا ماء مع كثير من الثلج.
أخرج سيجاري وأشعله. لا أبالي بنظرة ركنية لرجل غير راض عن اختصالي
لحقة في السيجار. أعلها النظرة ذاتها التي ومن بها جده أول امرأة شاعدها تدخن
سيجارة من زمان. أما ابنة أو حفيده قلن بلغت المشهد نظره.

إن ألههم يرمأ هذه القوتين الخزلية أو أخصع لها: ما هو القانون الذي
يمنعني من تدخين السيجار ما عمت لم أسرق لمتة ولي رشاش كفاي ورجل؟ قللة
تهذيب؟ ولماذا يظل التهذيب حكرّاً على النساء؟

يا لي من متناقضة، تعشق دمشق ولا تهزأ على العروة إليها. امرأة غولانية
في النهار ترجع مرافقة محبة ليلاً، تحلم كل ليلة بهرفان ودمشق، تركض في
دروب (الشام)^(٥٧) حافية القدمين تفرح نوافذ أحبائها النائمون ويظنون قرحاتها
صوت الرياح. وهم روحها قرب قبر عرفان في مقبرة المدحاح بين السبع
بحرات والقضاح.

(٥٦) (عليه الفتنة): حيلة للتأجيل بالهجة الشامية.

(٥٧) (الشام): دمشق كيا يدعونها أهلها.

وكيف أعوذ؟ هل يوسعي أن تخلصي وتشتري وأنا أجلس في سهراتها
شاعرة السجائر أو الغليون؟

كيف أعوذ وأنا التي لفتت أن أكون شخصاً مستقلاً كأي ذكر وهو أمر
لست واثقة من رضى مدينتي الأم عنه وعن صلات قد ألبسها خارج إطار الحلب
الكبيره فلما كنا بفعل ذلك بعض الحائرين مكشوري القلوب ثقلي الاحمال وأنا
مهم ؟! ثم أتني لم اتقن يوماً من أهمل حقيقي أو إلهام أسوأ ما فيها؟ ذلك في
أي: ستزوجين من ابن صديقي بدر الدين الساروجي ويدهي عرفان. شاب
متعلم ولكي عاه شربه من جامعة كامبريدج بعدما أنهى اختصاصه. والده ثري.
سمعت طيبة. وعرفان سيرت معلم والده. إنه الزوج المثالي.

قلت له: لا أريد زواجاً مثالياً بل زواج حب. ولن أزوج الآن من أحد
فلا تفقد فرحي الليلة بنجاحي في البكالوريا. لن أزوج إلا من رجل أحبه
وقد يكون فقيراً ومن الأفضل أن يكون ثرياً...
- ولكنني انتفتت ووالده!

- هذا أمر بخصكها. أما أنا فلن أزوج أحداً. أريد أن ألتحق دراسي
الجامعية.

- سيزورنا وأسرته مبدئياً يوم الغد. لم لا تريه قبل أن ترفضه؟

- لأنني لا أرفضه بل أرفض الأسلوب. ليس يوسمك يا أبي أن تعلمي
رشييا بحضور المريس فتقطع دراسي. لو كان العلم وشهادته أنياهي بها لحان
الأمر. لكنه يبدئي من الداخل. ولم يعد يوسمك أن تزوجي كما زوج والدك
صتي التي لا تفراً ولا تكتب.

كان غضب والذي كبيراً لكنه كظم غيظه وقال: حيناً سأنتقل بأسرته
ونؤجل الموضوع...

دخل إلى غرفة مكتبه وسمعت يتحدث على الهاتف. حاولت أن اسمع
السمع. لم ألتج إلا بسماع قهقهة ضبطني بعدها الحاداة. فظاهرت بأنني أمر
مصادلة! عاد والذي شبه ضاحك وقال: لا أتملي مخلوق عليل^(*). إنه

(*) لا تفقد عافيتك بذلك: مثل شامي يعني لا تفقد قلبك أصلاً مرفوض. وأمل الشام يمين
كثيراً الخوف بالاشك.

أيضاً وافق الحضور للتعارف ولن يتزوج إلا من صبية يعرفها ويحبها ولا يريد الزواج على الطريقة القديمة كما يسميها. يا لهذا الجيل المفسود).

يعود النادل. «جوليفيشيه آخر بسرعة مع الكثير من الشاي. اطلبه سيولري جيداً. لن أدعته في حضور السيدة ميمى لا من باب قرياء... لكن الطفلة الشامية التي تخطني تخشى جرح شعورها. اللعبة وحدها أروضها، تلك الطفلة التي بدلت كل ما يوسعي من أجل قلها لم تبت وما هي تستفري حتى بالصبر عليّ بعدما غلبتني مراراً في عالم الحلم والنوم... وأنها الطفلة في أعمالي. إنني أعرض عليك الصلح والصلح. أتهار في الليل لك. العمل ملكتي والحلم ملكتك. أعترف بك فاعترفي بي. أيتها الطفلة التي كانت جالسة - منذ لقب عام وهي في السادسة عشرة من العمر - على طرف الطاولة في سترين «الغورهنرد» في دمشق إلى حيث استطعتها جارتها فيدا وخطبتها، وبهذا يرقصان وتركاها وحدها على الطاولة الخلق حولها يفضول في حياة الليل التي لم تعرفها من قبل، أوجوك أن أطلق سراحي من الذكريات ورائحة الياسمين الشامي التي تفوح ليلاً ككهنات عائقة...»

على مقعدي في «الغورهنرد» كنت أراقب فيدا تراقص خطبتها بصفتها، وصديقتها الذي استطاع شقيقته يراقص شقيقة صديق الآخر.

السهر يومئذ بحضور الشقيقات كان يعني حسن التية وارتفاع المستوى الخلفي للسهر، فالتشاب أضفى دغير مؤدء ولن يفعل بتشقيقات الآخرين ما لا يرغب في أن يفعلوه بتشقيقته. نوعاً من الضمالة للعارف هذه (شريف) يتراوح بين الزواج والصداقة الأخوية.

جاء شاب عجوز يكبرني سناً بأكثر من عشرة أعوام وطلب أن يراقصني واعتذرت. كان (يصرح) في مشيته لمادة في قدمه.. وهو ما لم يضايقني.. وبنت في وجهي عينين ثابتهين لوجه جذاب وغير وسيم وقال بجرأة: هل تعرفين مراقصني لأنني أخرج؟ في الرقص الكل يخرجون ويصبرون مثلي!!

واتقجرت أضحتك. كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟ وهل اخترع الرقص رجل أخرج ليخرج الجميع مثله؟ مصارحته فتحت أبواب قلبي على مصراعها،

وكنت صبية لا أعرف فنون صناعة الأقمشة، فقلت له: اعطرت منك لأنه لم يسبق أن رقصت مع شاب من قبل غير شقيقي ورفيقات المدرسة في أحياء ميلاندا... إني مرتبكة أكثر منك وكسحة بالدمع!

جلس إلى جانبي. لتلقي ذلك التيار السري اللامعني بيننا فاشتعلنا.. ضمرتنا تلك الباهج الجوفية والأنوار الغامضة التي تندخل في مصائرنا دون أن نراها أو نقدر على السيطرة عليها.. أنوار لمعها تنبع من الحلم وتصب في الجفون مبروراً بالفن والشعر والغليان والحبس.. والحنى بين يدي وبنه.. حوار طويل عن كل شيء ولا شيء والزمن قط حاروب سريع الركض.. وثأني بعدها لغة الصمت التي تبدو أمامها قوالب اللغة تالفة..

ساعتان من السهر. لم أعد أرى سواء.

حدثتني ما لا يتسع حقل: الحب من النظرة الأولى... استحبال البالون في القلوب من البلاستيك.

الأصوات العالية ماتت وطفئ عليها حس شقيقي لشفتيه. كان يمسك يدي فارتقب كأنه يضمني، وتلفته كمتوقفين لنكات تالفة.

قال لي لاجأ وهو يراقصني، ويحتوي بوجعات كحس سامي وتكتشف درجا إلى ما تحت جلدي، وأنا أطير فوق غيمة بطسجية خضراء حمراء زرقاء: لا أؤمن بالحب من الرقصة الأولى لكنني أحبك... وهو أمر أرجو أن لا تصدليه لأنه غير متطلي! لكنه حقيقي.

صرنا لرقص متعاقبين وقوة لامرئية تشلنا إلى بعض.. وكدتنا نسي الرقص ويضيئ المثلق.. صبحوت من تلك التلاحم العلني الملقب رقصاً وقلت له: لم أعترف برقصة كهذه من قبل. أعتقد أن دمشق ستجد لطيفة تصحدت عنها.. إنها لطيفتي الأولى..

- وأنت حبي من الضحكة الأولى والنظرة الأولى والرقصة الأولى.

كدت أسأله عن اسمه حين قال لي: تصوري. كان والذي يريد تزويجي من حمله لم أسمع بها من قبل.

تابع هكذا، مجرد زواج وعلى الحوية وبواسطة الخطابات وتوليع الأوراق مثل

عقد شراء صفقة فواكه لعملة الكونسترو. . صبية كان يفترض أن أحلبها وأضع عليها تاريخ انتهاء الصلاحية (بولاند الأبن الثالث وصبي طبعاً)

قلت له: لقد حدث لي الشيء ذاته! كان من المفترض أن أوظف بترك دراستي وبزيوج والدي لي بل أحق لا أعرفه يدعى عرفان بدر الدين الساروجي..

قال دون أن يعرف له جفني أو يذكّر شجرة صوته: وهذا الأخير هو أنا!.. وأنت الصبية التي رفقت أن أتزوج منها!

- بل أنا الصبية التي رفقت أن أتزوج منك!

وانفجرنا نضحك طويلاً...

ولمات صديقتي غينا وهي تظن لقائنا سديراً ونحن نساء «الفور» حاضرة: سمعت بشاعرة الخطبة بينك وعرفان الساروجي ولم أصطف أنك تد تزوجين من رجل تحبّه الأسرة والخطبات.

قلت لها: وأنا أيضاً لم أصطف!...

بالي النادل ويظهر لي بدعشة وأنا أطلب منه «جلفيتيديش فويل» ونجبان فهوة كبيراً في آن وبسرعة! وهذا حمري، لحظات بين النار والرماد. بين مسقط قلبي في دمشق ومسقط تجلعي في نيويورك. بين الألق ويضة مكيلة المراء. لحظات بين القاع والقسمة. بين أقصى الحب وأقصى اللاهلاكة..

بعد العشاء. أبلغ الجلفيتيديش مرة واحدة وأبدأ بشرب القهوة وأنا انصص فرساً يخفى رائحة الكحول خائفة من مينة خاتم! والطفلة البمشقية التي تظنني ومذكتها أحلامي بدأت بمذ سلطتها الآن على صحري أيضاً! ليلة إعلان عطبي وعرفان انتهز فرصة سرور والدينا التاجر بنزيجة تناسب مصالح أرماني، وامتنان والذي لإصطحابي إلى مطعم «كانتالز» «شموع» للعشاء. قال لي: ولكنكنا تناولنا طعام العشاء! أجاب عرفان: لم نضع بعد!

جلسنا في الطابق الثاني الأكثر عزلة وطلبنا عشاء لم نلذه.

قال لي عرفان: لسيت بحاجة إلى التوقف عن دراستك من أجل زواجنا. بوسعتك نيل شهادتك أولاً وبعد ذلك تزوج.

.. هل تستطيع الانتظار؟ وهل أستطيع الانتظار؟

.. إنني أحبك حقاً لا يمكن الانتظار.. نحو شخصيتك هو كسب لي.. لست من نسل شهريار... أنا من فصيلة جديدة... ولئن أطلب من سرور الشيف احتفالك ولن أربطك كالمسلم في مضارب قبلي.. ستكونين زوجي لا وحيلي والمفلة... ..

.. لا أصدق أن تلك الحلم الرائع يحدث لي.. وأنت رجل حقلي ولست حلياً... .. نعم.. أريد أن أتبع عراسي وأن لا أفتلك.. ولكن والدك سيرفض والوالدي أيضاً

.. سترفض وقضها وترفض عليها لرائدنا فمن أبناء زمن آخر.. لا تطلقني لمأتمنعيها.. تذكرني أنني والرجل وأنا حر وزوجي.. أمامها على الأقل... .. أما فيما بيننا فقلت حرة داخل زواجنا بقدر ما أنا حر..

.. أثمر حرات أن تكوني ولدت امرأة وحرية في آن فتبان لا يفتقران..

إمما بيتان تحريري من معظم حقوقي المدنية ولا بد من أنكم يتحمل مسؤولية أفعالي أمام المجتمع بما لي ذلك رغبتي في العلم والعمل وعليه مهمة تفرمي ولا وقع عليه التلوم قبل

.. اطمئي.. لن أكون الزوج الذي يضطهدك بل الصديق الذي يجمعك ويحمي رغبتي في العلم والعمل..

كأن ذلك لا يصدق.. أجل من أن يكون حقيقة.. له.. هل حدث ذلك حقاً أم أن ناكرتي تقوم بتجميل صورة الحق في ملصقات شوارع القلب؟

حين غادرنا وشمس.. ذهبت إلى مقهى معلى بين الليل والنهار في عصر وطرقت القهوة وبرقوا شامعنا.. ثم ذهبت إلى المهاجرين ووقفت في الساحة في كلب لاسيون... ..

ضممت إليه في الظلمة متهدراً فرحة عيلو المكان من المارة وحلقت في دمشق والبي بيض حياً لها وله.. ورغم النجمة والأضواء القليلة المرفوعة هنا وهناك كان يوسعي أن أرى تضاريس المدينة المظلمة داخل ليلي كنيا في ضوء النهار الساطع..

ليتها شق ضوء القمر النخلاف «أوتوسثاند» من الضياء بين منمنمات
أزلتها القديمة ويومها المعينة القديمة، وحسب نفسه السائلة على سطوحها
ومأذنها وتهاها... .

معلق الليالي التي تحيط عنقها بعدد من الياسمين وتتمدد باسترخاء في
ضوء القمر، ودمشق الصباحات التي ترتفع على عرش اميرطوية الضوء
ورائحة البن العربي والخال والنفل وزهر اللبون والتارنج تسرح من عنقها
وأفئاسها... .

قلت له : أحبك يا أنت ودمشق . سأنتجز دراستي وأعود إليك يا.

وقضى والذي أن أسافر دون الكتب الكتابية، فالحمد الزوجي الشرعي
ديوليسه تأمين»، ويمدحها يتحمل عرفان لبعة سيرتي العلمية غير الالتهاب

نظم أن يجد مجتمعا ذكراً يستجوبه إذا اعطت وصحله مسؤولية عظام،
ويصلبه بالثرثرة إذا لم يحولني إلى بخار وغبار ولم يحني إلى القدم ويختم فوخته
بالغليظ المصهور . وبدأ من قلته إلى قاع البحر، بوسمه الاحتفاظ به في
سريته!!

لم يكن عدد الزواج يمينا حلاً، فقد تزوجته حتى آخر شريان في القلب
وكان شهودنا الليل والتفاح والياسون قبة السكار والقمر ذات جنون جميل في
سيلة مكتشفة!!

توقفني دلمات الساعة الأترية التي تتوسط صالة القلق الملاحقة
لـ«بيكوك اليه» تعلن الساعة . بعد دقائق تحيط الست ميمة على مثل خيمة
مشحونة بأعطار الماضي وصراخته . (ليلة سفرى قال في ملجعا : من الجليل أن
تصمم على دراسة المال وإدارة الأعمال في الجامعة فأها التي درست فيها .
التيات المخللات مثلك يكتفين عادة بدراسة التبدير التزلي و«الموم
أيكولوجيكس» في مدرسة «الهي . يو . سي» في بيروت وغوش ميلويات الجهاد
حين المومدين تتعمل معاً في إدارة أعمالنا وتتعاون على كل شيء» . إن
تكوني أنت البيت بمعنى الضلع القاصر بل بمعنى أنك حبيبي وأنتي... .

لم أصدق أنتي . كان حلاً أن أسمع رجلاً شرقياً يقول في كلاماً كهذا

ويكون حبيبي وزوجي.

ودعني وكانت اجسامه الثلاثة ترمد أخاها (الليجاتا والعلجات) و (الأولف)،
والأعات المسكرة للقلوب اختزعت من التهد.

بعد شهر من سفرى، ومن أحاديث خافتة مصومة، ومذاهبات تلفونية
به والشيفراء السرية عابرة للتقاربات على حدود الرعشة كذمت أقول لمرقان إنني
حامل وإن تلك الليلة لم تمر عابرة رغم جهودنا، ولكنه سيأتي إلى الكلام: لا
تظلمي إذا سمعت أنني في المستشفى. عملية ناقية في الألف لتخليصي من أوجاع
الأكهب الزمن في الجيوب الأتنية. لا أريد أن يفسد شيء شهر عسلنا فيما
بعد.

علمت فيما بعد أنهم غدروا من أجل الراحة الثالثة لكنه لم يصح.

مات، ربما لبيت أن الحب يهلك الجميع والموت لا يخلد أحداً...

لم أجروا على المعرفة لحضور ماته. لم يكن موسمي أن أعبط في مطار
نمشق دون أن يكون في استقبالي ولا أن أتحول في شوارعها وهو يركب في مقبرة
الاحتجاج على مقربة من بيتي...
ورسلوا إليّ بعني لتواسيني.

لم أكن بحاجة إلى المراسلة لقد جئت وانتهى الأمر. ثمة خيط واحد
يربطني إلى الحياة: تلك الطفل في أحشائي الذي زرعه دون أن يدري قبل
سفرى رغم احتياطاته كلها.

صممت على الاحتفاظ به وبحت يسري إلى عملي وأنا ألومها مستخرج
لأنه لم يبق لي شيء من عرقان. لكنها صمعت وقررت: يجب أن تجهضي ذلك
الطفل وإلا أصبحت فرصتك في زواج آخر. صحيح أنك زوجة عرقان شرعاً،
ولكن الأصول أصول والسيدة المحترمة لا تسلم نفسها حتى لزوجها إلا حسب
الأصول...

والبيت: ابنة عاتلة محترمة مثلك لا تتعجب طفلاً من عطيها حتى ولو
كان زوجها!

من يهلي حقاً هذا الغراء وقد سيأتي عرقان إلى لوفس الماوراء؟..

ولكن حزلي قتل طفلي..

وحين أجهضت من تلقاء نفسي اعتبرني عملي سميدة الخط وكنت أبكي عرفان ولا أبكي طفلاً وحده... لم يبق إلا الرقاد.

كان عرفان راعياً كحلم، والأحلام لا يبق لها أن تعيش طويلاً ولا أن تموت!

أرفع رأسي. أجد سميدة خاتم تلف أعمى كشبح. لم أسمع غطلاً، وأنا الفصح لا هي. لعل مت وانتهى الأمر من زمان. إننا لا نعي موتنا إلا حين نلتقي بالذين عهدنا معهم أصداق أيامنا انهمس. تضميني إلى صدرها فأكون أنتحب وتقطر حنجرتي المجرحة ماء مالحاً. أفرلها تحيلة فاكوية. تجلس بكل أنفاتها وتكنيها ومجمل أحزانها المسطر في نهاميد. أعرف أن ما حدث لها حدث لي. أرى في حرمها عربات الزمان التي رامت جنة ولعاباً فوق ضارتي. لقد حرمتها معاً في بلاط الحزن على عرفان.

أصغتها إلى قلبي بصمت ودون أن أتفكر من موضوعي وأتذكر لحظة خستني إليها أمام المرأة وأنا أجرب قرطها. أربع قرون من الأحزان تفضي بين نيتك المحظونين، ولكنها ما زالت قريبة مني كذلك اليوم. ثمة شيء مشترك بين النساء المكسورات مثلنا قد يكون رجلاً نعب ولم يعد).

تجلس والدموع تنحد من عينيها الجسيتين رغم الزمن.

أحاول أن لا أبكي لكنني أزعج نظراتي السميكة وأمسح عملي. يجب أن لا أبكي، فعرفان ثالثنا على المكثف. ليس يفتقد أية عاشقة مثلي أن تلقي بأم حبيبها دون أن يكون الحبيب ثالثها.

أفعل شفتيها اللتين قبلتا طفلاً. بظنها الذي حمله وهي لا تدري أنه مرشح للموت قبلها.

أحسب فيها صابنة ونظرات المعبة للبهادة والحزين نهر يرفقنا معاً فنظنوا ونغرق. (أه يا سيدتي لماذا هتفت ولماذا تتكئين جرحك وجرحي معاً دهنبي في فنياني، عارية إلى عملي ونسياني المسحوق. منذ موت أبك لم أؤمن رجلاً علي حيي كي لا يخذلني ولم أبق يوماً إلا بعرفان.. ثمة جزء سري مني ظل طفلاً

وعاشقاً يقصّ صور الأماكن القديمة المدمجة من الصحف كما لو كانت
تذكارات ويجمع الكتلوجات العتيقة واسماء شوارع تلك الزمان . . . وصور
بيوت الأزقة بأبوابها الخشبية المقوشة ومساحة الشوارع التي تنوسطها
والبحر . . . وتزورها الأشجار والأزهار والياسمين.

ثمة جزء من رأيي العملي الذي جلب الأرباح لكثيرك، كان يمنع حياتك
اللا متوقعة داخل الحلم مؤمناً بأن الكون ملعب مقترح بين الماضي والحاضر
وكل ما على المرء أن يفعله هو أن يهرول على التجول فيها . . .

طربوش أبي يتربع على الطاولة في مدخل بيتي النيوبروكي، أما شباطي
الشامي العتيق فقد علقته على الجدار كتخلفة على السر اخضر غيرها جاذبية
البضعة مكيفة الهواء . . . تالدة أتصنها ليلاً ولا أرى الجدار خلفها بل أرى دمشق
ومبّ رائحة الياسمين ويلوح وجه عرفان في وضعة غائقة فأتقول له وتصيح
على غيره وأنا أتسائل: لماذا لا أراه في الحلم ولو مرة واحدة؟ لماذا أحلم
بدمشق، بحضوري فيها، لكنني لم أراه مرة داخل أرض الحلم. لم يحدث أن
شاهدته في أحلامي وجهاً لوجه. ولم يخاطبني مرة؟

أقول ميمنة خاتم ورائحة الياسمين ميمّ منها وأحسّيات قُسر والحامسة
ويتذقن من أصابعها ضوء القمر: لم يكن الحصول على رايك الخاطفي صعباً.
أنت سيدة ناجحة ومعروفة ولم تنقطع العبارك عني حتى بعد وفاة المرحوم والدك
وانتقال والدتك للإقامة مع شقيقك المتزوجة في باريس.

أتسائل: هل جاءت آلاف الكيلومترات لتقول لي ذلك؟ ماذا تريد
بالضبط؟ أحاول أن أقول شيئاً فلا أبعد إلا الصمت.

تتابع بصوتها الذي لم تبدلها الأيام: أعرف أنك رفضت الزواج من أبي
رجل بعد عرفان. ولم تزوي الشام بعده . . . ولم . . . أما زلت تحبّه؟

كنت أقول لها: الذائرة عجزى اليومي ولم ألتجّع يوماً في التخلص من
ديكتاتورية الذائرات، كأن نموي العاطفي توفّق منذ ذلك اليوم وصرت معاقة.
وما زلت أذهب إلى الوسيطات الروحانيات في نيويورك لاستدعائه إلى دنيا الحلم
لأبصره ولو مرة أخيرة. . . طاباً أشعر أنه مسافر طالت غيبته وأتفقد . . .

ولكنني وصيت عيجزي عن قول كلمة . وما كان الأطفال يتحدثون هكذا في السبينا الرديئة . أما في الحيلة فالخرس هو السيد .

نكرو : أما زلت أحيه ؟

لا أجد صوتاً في حنجري للحشوة بالرماد . أهر وأني بالإنجاب .

نقول لي : أعرف ذلك . .

بأي النادل . نعتذر عن شرب القهوة لمرضها وتطلب ماء معدنياً .

يبدو ممكناً لترجف كالثوبية الأخيرة لشجرة . أبيض حياً نحوها . أطول أن أقول لها ولا أجد صوتي : إنه لا يزودني في الحلم ولا أعني لهذا . لكنني ما زلت أعيش معه بمعنى ما . إنه ما زال زوجي ولم أصبح بعد لرملة . . ما زال حياً في حياتي كما هو في حياتك رغم ربع قرن من الفراق .

لا أقدر على الكلام . ثمة شوك جهنمي يثبت في حنجري .

أشعر أنها تقرأ صمتي . ثمة لغة خاصة بين حائفتين مكسورتين لرجل

واحد .

نقول : انني يا ابنتي في طريقي إلى مستشفى في هيوستن . ثمة عملية جراحية خطيرة قد تنقذ حياتي ، لكنني أحتضر ، وأعرف أنني أحتضر . وقد جئت لأودعك قبل أن أموت ولأسلمك أمانة .

دموعي تنسدر إلى الداخل ، وتتصب مسامي . موت كل ما يخص عرفان هو موت جديد لي . أتابع ثلثيني على الموت في حضرتها . تلعثني لتدنيا على قراءة أفكاري فصمتي لا يشايقها كأننا نتواصل عبر بصورة أفضل .

لترجف في حضرتها والتخيل ما الذي يمكن أن يقوله عني زملائي ورجال البروفة وسكرتيري والموظفون إذا شاهدوني أعود طفلة - في حضرة أم عرفان - لترجف واكتفه في دعاليز مظلمة وهي تفتح التوابيت المنيقة كلها .

تابع : جئت فقط لأراك ، ولأعطيك هذه الأمانة التي حملتها لك طويلاً . (ما الأمانة؟ أهني رسالة من عرفان لم أكن جديرة بها قبل الآن؟ رسالة من عشق؟)

تخرج من حطية يدعها قرطون ملسون. ابتذل جهداً عارفاً لي لا أبهش في
البكاه وقد ميزها في وشة حين.

استعيد تلك اللحظة اللاعنسية، أمام المرأة الصلدة حين جريتها كانت
يوم وكنت في السادسة عشرة من عمري فراشة فرح. يا إلهي... كان ذلك
حدث البارحة، ومنذ ألف عام في آن..

تقول: أعرف أنك لمرة على حبه وأريد أن تحفظي بها. تذكرني. هذا
ليس قرطاً حلياً من الماس. إنه قرط مسحور. له قوى استثنائية أتؤكد لك
اكتشافها بنفسك مسحور قوي جداً شرط أن يكون صاحبه صادق العاطفة، وأنا
أعرف أنك كذلك!

حي أتجو بنفسني من التأثير، من السحر الشامي في القرطون، أعرب
كعائن إلى لغة المرأة الغولاذية. أحاول أن أكلمها بلغة نيبوريك والبنوك
والناديات وروح العصر.. أن أقول لها إنها لمرة لا بأس بها بلغة البنوك والمال.
وإن عشرة قرطوط من الماس، خسة لكل قرط، عاطفة بذهب معق وتغوش
أثرة لا ترمي منكدا، لكنني أشعر أيضاً أنها لا شيء أمام حب عرفان.. ولعنما
لا شيء أمام قيمتها..

أتأولها من يدعها وأخيلها في متحف كذا كانت جسد الخفي أشياءها
الغالية.. أخدهما كاتني لائحة يكتي أستحق اثباتي عليها.
أقول لها فيك: أرجوك أن لا توتي أثي أيضاً..

تبتس من جلستها على المقعد المقابل وتجلس إلى جاني على الأريكة كذا
لو كنت أبتها المسافة.

تضمني إليها. تقول بقاء الحضرين: في البداية غرت من حبه لك.
طفل الجميل الصغير متعلق بامرأة أخرى صبية وحيلة وغير بدنية مثل؟ كان
ذلك يوم لا يُطلقاً ثم انتقلت عدوى المحبة إليك حين عرفت مدى حبك
له..

بمر الوقت سريعاً ونحن نتحدث عن عرفان في جلسة استثنائية التحضير
وروحه في قلب مائتان على نظرية من تاطمحات سحب واليان أميركانه

وهـ الأعمام سميته و «مركز التجارة العالمي»

للهت ميمية حاتم ويبدو عليها التعب شيئاً فشيئاً وأنا التي لو استيقظت.
تكرر وصيحتها: حافظي على الفرط فهو ليس مأساً عابثاً، وله قوى سحرية
استثنائية. لا تكري ذلك.

أوصلها إلى المصعد. أخضعها مودعة. ونحن ينقلان باهه للملعب عليها بمنز
سريع تسقوط مفصلة أنني لو كانت في قطار ينشيطه وأنا ألوح لها حتى يغيب
دخانها من الأفق، لا أخرج الوداع قطرة بعد أخرى وألفه.

وحين يعلم المصعد بها، أشعر أن مصعداً آخر لامترياً يهبط بي حتى قاع
التمزق والتمزلة.

يفعري الذعر من العودة إلى شقي القرية في الجلاء الخامسة ولا أجد
عرفان هناك. ولكنني أعود. يوماً أعود مثل شيخ معلب طرقت البيوت المسكونة
كلها إلى شياطينه الخامسة وعذابات.

اضغط زراً في مدخل بيتي. انصبي الأنوار في الغرف كلها مرة واحدة.
هكذا طلبت من مهندس الديكور حقوقاً من لحظة العودة كل مساء ومن القلمة
التي تنتظر الذين يفتنون وحدهم. كأن العتمة تقول لي طرفة بعد أخرى: أنا
خاوية. وأنت وحيدة ولا أحد يتفكر! يوسعك الاحتضار ولن يبال أحد بك.

الخطوة الثانية التي اتخذها لكسر الوحشة هي الإنصات إلى الشريط
المسجل للمخاضات الحاتية في حل مائية الإجابة الآلية. دعوات إلى سهرات
تبدأ بالطعام وتنتهي بصفقات العمل مروراً باستفاضة حلقة الأثرية الأخرى التي
تستفيد في الوقت ذاته. عواء.

(جوكيتن) في الستارل بارك وعواء.

تياب نيمية وعطور، ورجال يحملون السلام اللامرية لسلطانها إلى الجدد،
ونساء مثلهم وزوجات ضجرات وعواء في البيضاء مكيفة الهواء.

الخطوة الثالثة لكسر الوحشة زران الضغط عليها: التلفزيون والوسيط
معا حارية من الضجيج إلى الضجيج كي لا أسمع صوت أميالي.

الليلة لن اتعب إلى مايكلي جاكسون أو مادلونا. استخرج الشريط

والسريه لأخفى، وجب من والماني فليء صوت محمد عبد المطلب يشد:
 دودج هوك وانسا وانسا. صر الزمان ما حابر جمع ثاني. كان حلم وراح.
 انسا وارتاح ودع هوك... ه. أنشد معه وأنا أنامل نيويورك من نافذتي في
 الدور الخمسين... كان حلماً وراح؟ ليس بالناكيد.

العمر راح وبقي الحلم. الأول يصغر والثاني يكبر.

أدور في البيت وأكاد أضحك كمن يراه للمرة الأولى. لعله بيت شبهي.
 طربوش والذي العثماني يترج في صدر المكان وإلى جانبه ماكينة الفاكسبيل.
 الشمعيات في البراد وإلى جانبها خزفي الشامي العتيق الذي أوصيتي جشني بعدم
 التخلي عنه، وأرغميني حر نيويورك الخلق على إيداعه صيفاً في البراد فقد بدأ
 يبل. صور فدية على الطاولة. صورتي بنوب الاستحمام الشبه بورقة الكروت
 (البكيني) إلى جانب صورة ابنة خالي بالأسلوب والكم الطويل، وخالتي
 بالكنيل الأسود والقباب العربية، وجدتي بـ «البرلين»^(*). إنه موزاييك حياتي
 الممدود بين الحاضر والماضي، بين فلزتين وشمعين وصخورين ونومين..

صورة لي مع عرفان وعقد من الياسمين يحيط بعنقي اشتراه لي من صبي
 ملجأ. . نرى أين الصيف اليوم؟ هل كبر أم مازال يبيع الياسمين للمعشاق
 طفلاً إلى الأبد لا يتبدل كالحب؟

حلم سرج ولقد. جرعة جليتهيديش والقيحات. جلسة عداوة على شرفة
 معلقة فوق المدينة...

استعد للنوم تغلف مدهورة. أية أحلام سألوي الليلة بعد هذه الزلزلة التي
 زعزت الاضطراب في روحي؟

قبل النوم لا أنري لحناً أنامل القوط الماسي، وأدخل ديبوس للمرة الثانية
 في أنفي الثقوبة، ودع قرن الفصل بين المراتين. يحدث شيء غريب حين أرتديها
 ويتألمان على جانبي وجهي اللعاب وشعري القصير المصبرغ باللون الأشقر.

(*) البرلين: الحبيب الشمالي لطيفة القريظة قبل زرع قرن وأكثر، قطعة لباس سوداء طصفا حل
 حجم الراس وأغل حتى المعصر كمنديل الصلاة فوق معطف أسود طويل صشم، وأنة منديل
 أسود شفاف يغطي الوجه يسمى القيشة.

يَجْتَلِ إلىَّ أني أبدو أصغر سناً شيئاً فنيّةً... والتجاعيد في جفني تتألمس. أضحك لهذا الحاضر. أقرو أن لا مفر من الذهاب إلى مجامع النوم.

كل ليلة، أبحث مناصرة الذهاب إلى النوم، أنا التي أخامر بهلاً بصفقات مالية تجلب الريح الكبير للزيائن واللبثك. نتيجة في النهار. مهزومة أمام الليل حين تنفض عليّ الأحلام وتعيدني إلى دمشق. احتفظ بالفرطين الماسين المتبقين كتمزيق في أفني وأقرر النوم دون أن أعلمها.

أجلس في صبري. يرن الحائط. يرد للجيب الألي. ياتي صوت سكرتيري بكل لرفي شبيه: أرجوك أن تتصل بي. إلى أشف.

لا مفر من جرعة مضاعفة من الحبوب المنومة الليلة بعد قطع الاتصالات الحاققة. أعدت توليت رنين المنبه لصباح الغد باكراً وأحط أن أسد ومكنة الأحلام!

أطلى، النور. أسقط في البئر تدريجاً وأنا أترن إلى حيث لا أعري... استوفظ. أجد نفسي خارج البيئة مكيفة الهواء، جالساً في سيارة حمراء مكشوفة متوقفة في ساحة المهاجرين في حوض ماسيون مرتدية ثوبي «البروكاري»^(*) التي تألفت فيه ليلة خطبي وعرفان. الرقيا مشوشة. لعل نظارتي متسخة. أرفع عن عيني نظارتي الثقيلة ويدعشتي أني قلعة على أن أرى بدونها كها البركت قد عدت صبية. أتحسس شعري القصير المصبوغ بالأشقر فأجد طويلاً أسود اللون يغطي كفتي وصدري. أغير مرآة السيارة صوبى فأجدني قد عدت صبية في السادسة عشرة من عمري وأتأكد في البداية لا أميز وجهي لولا شبيه الكبير بوجهي في صوري القديمة. كنت إلى يساري فأجد عرفان جالساً في مقعد السائق، وفي القاع دمشق الزمان الغابر. لا يدعشتي ذلك. إني بالتأكيد أحلم وأحلم رحيل غير الحضور والأماكن. ينعوني القرح: للمرة الأولى أبصر عرفان في حلمي... ولكن هل أحلم حقاً؟ حين أحلم عادة لا أعرف أني أفرح داخل حلم. أما في كوابيسي فأتني أني أرى قلوباً حينها يتشارف على نهايته بصورة خاصة... .

(*) البروكاري: ثياب شير من صنع صقل.

ولكن قلنا الحلم وأنا نهي بصحوي أنني أحلم!

أناهل عرفان وأسلول أن لشرب حضوره بنظراني. عطشي إليه مشحون
بالتمسك إلى الحارق والاستثنائي والتمسحيل.

أحلق في دمشق المدينة التي تحجرت داخل رأسي بأحباب الأسس فيها
الذين لا يرمون ولا يموتون. تزداد عطشي. كيف أعبر أنني امرأة ناضجة خلعت
مراعتها، لم ترائي لا أحلم لكنني بطريقة ما سحرية انفلتت حاربة من البيضة مكيفة
المواء، لا تحول في الأزمان وأعيش ثنية اللسعات التي أشتهبها وأني ذلك
التجوال اللامعطي. لم أن ذلك هو ما يدهي بالحلم؟ يد عرفان هل المقعد قريبة
من يدي. لا أجزؤ على الإنسان بما عرفت من أن أكتشف أنه رجل من غمام.
اعتشى أن المساء أو أكله فاستيقظ من الحلم، إذا كان ما يحدث لي حلياً. انظر
إلى المرأة واقبل إلى أنهم لا يروننا. نتأمل مدنتنا معاً في القناع. أرتجف فرحاً به
وعدمش. يبدو ثوب دمشق مطرزاً باليساتين الخضراء وقياب الجامع الأسوي
تسبح في ضوء الغروب الملعب السائل تطولها بيوت صغيرة مترامية في أزقة
كثيرة الانعطافات والانتحادات الخنونة، كمن ينطوي على أسرارها وأغراضه
ومعه. إلى اليمن في المرتفع أرى الفهم الشحي ودرجات سلمه المنصورة في
القرب والمدمومة بأعشاب يدائية. فالطلولات التي أعرف أنها ترجع تحت وقع
فجائن القهوة وكوب الماء لأنها على أرض ترابية غير مستوية. لا يقول عرفان لي
شيئاً ولا أنطق بكلمة. تبدو اللغة شيئاً هزلياً. يمد يده ويمسك يدي وأخاف على
الحلم من أن يتكسر. لا يحدث شيء. . . رعناني يدهنا بكفي لتوحيد دورتنا
الدموية، والسعادة الخسية تتدفق من عروقي إليه جثة ونهائياً بينا والوقت يمر في
دمعة عين ويطلع القمر متوجاً ما يحيط به من أثير مرهف. ينسكب نوره بتكثير
من الشفافية الفطرية عبادة من الغيم المتسع تسيل نوراً على الشوارع المزرة لبيوت
من الفصائل الحجرية. هنا مدرستي في الجسر الأبيض، وهناك بيتي في النامية
الأخرى بيت عرفان في الخليوي فالتكية فالجامعة تزورها اليساتين وهو برص نفضة
سائلة تنظفها الجسور. . . إنها دمشق التي أعرف أنها تبدلت وكبرت مع الزمان،
ولكنها كانت تبدو هكذا لحظة تحجرت داخل رأسي ولم يعد بموسع شيء أن
يمحوها. أشعر برغبة فتاة في طرح أسئلة كثيرة على عرفان. أين هو؟ كيف جاء

للقائي . هل يعلم هو أيضاً أم أن الزمان يظل مساره خطوة إلى الوراء إجمالاً ؟

كان يكتفي أن يذكر مكان أو آخر إليه حتى أجده نفسي فيه مع حرقان . .
أذكر رفعتنا في «المورهندود» . . ها نحن في «المورهندود» نعيش ثانية رفعتنا الأولى . وسط موسيقى ذلك الزمان ورقاق الأمس . نراه يعرف مثلي أن ذلك كله لم يعد موجوداً ؟ أذكر المشاء في «شمس» . . . ها نحن في «شمس» الزمن الغابر لنهايس . . أذكر جلسة ما بعد عشاء «شمس» في قُمر . ها نحن في قُمر . في الشرقة الخشبية المعلقة فوق برصى بين القمر والتهد . ألقه قريب من أنفي مثل قبلة متحركة لتطير مشترك . .

لحظات ، تعود منها إلى وقتنا القليلة في قاصيون نطلّ على حبيبتنا وسيدتنا معشوق . . وثمة صوت عذب يتلذذ من عيده ديا ميت مساء^(٢٢) . . ها نحن في القوقعة . . في الربوة . . في الهامة . . في مطعم مطار القوا . . في أماكن لطيف لم تعد مرسومة في نظر البعض ، ولكنها يوماً هناك وكل ما في الأمر أنها صارت لا مبرية . . أقول له إنني أفتقد . لا يجب . أقول له إنني أريد أن أبقى معه . يشير إليّ بأصبعه أن أصمت . أذكر حكاية لورينوس وعودته بحبيبت في الغارب من مغاور الموت . لكنني أفتقد . لمة خطوة على أن أخطوها لأعبر النهر إلى الضفة الأخرى كي لا يفرقا بعد ذلك شيء . وربما يتم ذلك يبدو الحوار حراً . .

ونحن نضام مطعم المطار يلحق بنا العصى الذي يبيع عضواً من الياسين . يتناول حرقان عذداً منها ويهبط به عني . أشتي أن أقول له إنني سأبقى أبداً معه أيلول في الزمان والمكان لئلا نفترق وإني نزعاً بسيطة لا يتقيا إلا للمحب الحقيقي . أشتي الاعتزاله له بخيالاتي له مع سكرتيري وسواه . . وأن أسمعته يقول لي إن هذه حاجات الجسد الناقه التي سأعلمه ذات يوم ، وهي حاجات يعرفها كرجل . . .

أشتي أن أقول له إن الحب يخلل الجميع والموت لا يخلل أحداً وذات

(٢٢) الحنة للسيدة فيروز .

يوم سنلقي. لكنني أظن صامدة، وهو يتحسس القرطون في أفدي وعلى شفتيه
إبصاراً استثنائية كمن اكتشف سرّاً.

أقول له إن والدته زارني في نيويورك واعتبرتني جذيرة بيما وأني ليستهما
ليل أن أنام، أو قيل أن أستيقظ لا أندي.

تسمع إبصارته ونكي لا يقول لي شيئاً يدبر ظهره لي. ألتصّب وأرجوه أن
يلتفت صوري. أسأله: أين أنت؟ لماذا مضيت؟ لماذا يدور عندك؟ ماذا خلف
الجانب الآخر من الباب؟ ما شكل القمر في سياتك؟ كيف أستطيع اللقاء بك
ثانيةً.

لا يجب ولا يلتفت إليّ.

أقول بالخطأ: أرجوك أن تلتفت إليّ. كيف أستطيع اللقاء بك ثانية؟
أكررها وأنا ألتصّب.

يلتفت صوري كمن يريد أن يقول لي كل ما يعرف. يحس: القرط...
لم يكذبني كلمته حتى استيقظت وفنحت عينيّ وضوء شمس معدنية يلا
الغرة. «لماذا استيقظت؟ وأني أتم أكررت؟».

أظن معدة في فراشي. أغمض عينيّ ثانية واستعيد الحلم لحظة إثر أخرى
يطفه كمن يدبر لسانه على سكرة. أذكر ما كان نصيلاً بعد آخر. الحس
القرطون السحريين في ثقب وأشم رائحة الياسمين.

من جديد أستخدم حلمي كبخيل يمضي ليراته اللصحية لحظة إثر أخرى
وهو يتحسس نصيرس كل واحدة على حدة. عرفان. قاسيون. القنطرة. رائحة
زهر الليمون. العصي يتبع أطواق الياسمين، العقد الذي تتولد عرفان منه
وطوق به حنفي في الحلم... الزهرة... وتفر... والفوطة... و... و...

أستخدم الحلم منذ بداياته مراراً ومراراً في سريري مغمضة العينين مثل
شرط فيدير لا أفصح من تكراره على شاشة جفوني المغلقة، وأفصح رائحة
الياسمين حولي... ولكن من أين لي بالياسمين في نيويورك؟.

أذكر أنه أمسك بيدي في الحلم. أضمها. يخرج منها عير عطره اللاتيني
عزجاً برائحة الياسمين. لا. لست وأهنة. كل شيء يبدو حقيقياً لكنني بالتأكيد

واحدة. حقيقي؟ غير حقيقي؟ حلم؟ صبح؟ وهمي؟ واقعي؟ ألا تقع الأشياء لنا
إلا على أحد هذين الوجهين؟

يرون جرس النّبه. انتهت الحلم الثاني، والجرس يستدعيني للعودة إلى
حالي الآخر في البيضة متكيفة الخراء.

أنفخ من فرائشي وعبير الياستون ما زال يلغني. واكثاء لا أجزؤ على
التحديق في مرآتي...

كُنت في الحلم صبيّة في السابعة عشرة من عمري، وما أنا امرأة وكهنت
فوق وجهها ذوائب الزمن.

ألتبس وجهي أمام المرآة، وحلي. وما اكثاء أقفل، حتى يلغني إن أجد
عقدًا من الياستون يقلل من حلي وقد أصبحت أوزالة قليلًا

١٩٩٤/٩/١

الساعة ١٢.١٥ ليلاً

قلعة الحمام المخلقة

هناك المرء المخلقة هي خلافاً تلك
التي لا يملكها.

أوسكار وايلد

في السلوك الآخر وضوحاً لدى
المرء، لغة جليدية سرية.

جوزيف كونراد

كنت تهاونني المراك في عالم من
الاشباح، وأتعمق في غل حليم.

اللورد كيسيون

قائمة الحماة المشقة

كُنْتُ في السرير معها، امتطيتها قارباً إلى جزر الدخشة والندى والنسيان حين دخل زوجها. في البداية لم أصدق عيني. فباب بيني مغلل ولم أسمع تصحيح لمخطئة، فكيف دخل؟

شاهد ما نحن عليه ولم يقل شيئاً، لكنه صار يتقدم نحونا وهو يشفق متجنباً بصوت عالٍ كمن ينتظر وقد أمسك رأسه بيديه كأن عتقه لم يعد بغري على حله.

لاحظت أنه لا يمسك بسكون أو يمسس وشعرت بشيء من الارتياح لأنه غير مسلح.

ظل يتقدم نحونا بقاتمة الفارعة الضخمة. بداه امتدحاً إلى عيني وهو ما يزال يشفق كمن ينظر إلى فروة النشوة وهو ينتقي وأشاركه الشفق. يا إلهي إنه يقتلني. إني أختق. إني أعود. أعود.

لقد مت. ها أنا أخاف جسدي وأقب إلى جانب السرير وهو ما زال ينتقي. بدا لي الأمر طريفاً وقلت له أن يتوقف عن حقن دموعه الحزونة تلك لأنني مت والله الأمر ولا داعي لأن يتعب نفسه أكثر من ذلك.

تولعت أن يستدير إلى ناهد - التي كانت ترتجف بصمت في ركن السرير وهي تغطي نفسها بالشرشف الأبيض كشبح وذعر مدهور في عينها - ويختفي كما فعل أبا.

علمت أن يفعل ذلك وأصير ناهد شبحاً مثلي وثلاثيني إلى الأبد وأنا الذي يحار كلياً زلزلة كيف يتخلص منها بعد التجاوز رحلة السرير.

لكنه لم يفعل وإنما جلس متباراً على المقعد ودفن وجهه بين يديه وهو يبكي ويرتجف ويردد: القطة عليك يا ناهد. كان صديقي. ألم تجدي رجلاً آخر؟ لم تجب.

بهضت وأخذت ترتدي ثيابها على عجل نصف غنيمة غلبت مقعد، كان زوجها لم يرها عارية من قبل، أو كان عري جسد الحياة مختلف عن العري الزوجي: كأنها الآن امرأة أخرى وقد يتفحص عليها ليتصبها كآبة غريبة شهية. يوسعي أن أتمثل ذلك كله يبدو بعيد ما كنت قد صرت شيئاً. بل هو يبدو فضولي.

قالت له: كفى من البكاء. لعله ما زال حياً. دعنا نطلب الإسقاط فقد يمكن إنقاذ. الحقيقة. ألا ترى أن يائساً شاعياً يسري في غرفة جسدي وليس متفك من قمي وعني من زجاج كميون القمي؟ يجيبها: لقد مات. أعرف أنه مات. لقد قتلت.

يتابع التصعيد وقد طفى وجهه بيده..

أتمثل جسدي. إنه يميل إلى البشاعة. فكيف كنت أولاً من قبل جيلًا وأنا أكتنر أمام المرأة وأصعد فوق الميزان وأناصب شعري راضياً؟

للمرة الأولى أرى نفسي يوضوح: سائق يمشون تحيلان تأثيراً الشعر كفضلي دجاجة بعد أن تقوم أمني يتفها في القرية حين كنت طفلاً أنما لها يذهر، ربما لأني كنت أحمس من يوحها بأني ساموت كما ماتت بينا جسدي يتففس مرتعشاً كجسدها. كرفشي كبير يتدل على طرفي جلدي ولا أعري كيف كان يوسع سائرين عزيلتين كهاتين أن تحملا، وربما كان ذلك سبباً لوجع ركبتي. صدري يغطيه وبرٌ هنا وهناك، سوء في التوزيع دولاً غزارة في الإنتاج، كشعري للشمع فوق قمة رأسي بلون كستاني. حلامي كان يصع في يافعه فافرح وأنا انظرهم يلموه. ذلك الحوار المسرحية كان جزءاً من عملية الصياغ وبالتالي كنت أجزأ خلقي المعطاة.

الآن أرى كم كان وجهي مائلاً إلى البشاعة: خبي وطويل وصغير ومركب على جسد لا يلائمه، وألف لا يفلو من سطامة متورمة لا تشبه والألف الصغرة الذي ينفذ على الوجه قراء الشخصية وكنت أترجم أتمني. ولكن النساء كن يذعن الوقوع في غرام وسامني وأمي الآن يوضح أن القضية لها صلة بهيال كرفام حسبي المصري.

ها قد مُت وصرت شيخاً ولا حاجة لي بشوي تلك كلها. . وأنا سعيد لأنني أنقذت منها ما استطعت كالجبنون وأنا لربد بيناتية: لا أحد ياخذ معه شيئا. خدأ الموت. . ولكنني لم أكن أعني بقطيع ما أقول ولم أكن أصدق أن ذلك سيحدث لي. . ولأن أنا سعيد لأنني أوصيت بأموالي قبل موتي إلى من يستحق.

تقول ناعذ لزوجها بصوت يدا لي مناسكاً أكثر مما ينبغي لامرأة ماتت وحدها الأول الوحيد الكبيره (كما كانت تسميني): حسناً ما الذي سنفعله الآن؟ لاحظت أنها لم تترك على جسدي وتتحب لأنني متٌ وهي التي طالما طاردتني عشرات المرات في اليوم هاتفياً مدعية أنها سمعتني إذا لم تسمع صوتي! لن تسمع صوتي بعد اليوم ولا يبدو عليها أنها تموت!

تُكرّر: لقد قلته. نحن في ورطة. دعنا نهرب من هنا. انضبط بعض الشيء لأنها لا تحاول الاتصال بالشرطة لينال قاتل صبيها الأول الوحيد الكبيره عقابه!

يبدأ التحليل كمن يصحو. يقول دعنا نعمل بالبوليس. لقد كان ما كان. . .

تسوي شعرها أمام المرآة ولا تترنن. ولا «لوزيه أنا أيضاً، إذ أنف إلى جانبها، لا أرى انعكاس صورتني فيها وتقول: إذا حرف الناس فالنفسية في والسجن لك. يجب أن نهرب من هنا. يريد منهاراً: سيحرقون.

تقول: لن يعرف أحد. سنجعل الأمر يبدو سرقة. يأنها: والبصبات؟

ليجب: لقد سهرت البارحة هنا مع الأصقاء حتى القجر كعادتنا كلها ذهبت زوجته لزيارة أمها، ودخلنا إلى غرف النوم وتعاظنا المخدرات وغيرها في كل ركن ويمكن في «الغلاء» وما تزال آثار السهرة والكوابيا القذرة وصحبوها ويقالوا أكلها في موضعها. . وبصبات بقية أفراد الشلة لا بصباتنا وحدها وهذا هو والأهم. . .

يسأل: ماذا لو حَقَّقُوا بدقة؟ الاعتراف بالحقيقة أفضل من أن يكتشفوها فيما بعد ويتهملوني بقتله بفرض السرقة. الكل يعرف أننا فقراء منذ غرابت يوتنا في الحرب ونعيش على التكتسب من ورائه ومن ماله.

نجيب: اكتشاف الحقيقة يحدث في القصص والتقليديون لا في الحياة. المحقق الشرطي لن يجد كثيراً موت القليل ويفضل إلقاء التحقيق والصوت للعلاء في بيته.

إذن تجاوز ناجي الصدمة وبدأ هو أيضاً يفكر ويعد له ليست مفاجئة. المفاجئة في أن ناعد عادة وثاقبة اللعن وأنا الذي لم ير منها حياً غير جسدها ببيع الإغراء. حقاً إن الأسياح ترى بوضوح لا كالأسياء المساكين.

كنت أتوهم أن أحداً سواي لا يعرف الحقيقة. . الآن أرى أنني لم أكن أعرف شيئاً. موتي أمر مشير لأنه صار يومني أن أتعرف على حقيقة الأشياء، وأحس بمقدوري أن أراها بصورة أفضل. للمشكلة أنني لم أصبح تاضجاً للمعرفة إلا حين صرت تاضجاً للموت. أعني ميتاً!

تسارع ناجي إلى «الحزنة» في ركن الغرفة. يمالجها بحثاً عن المال وربما عن حلٍّ زوجتي كلومن.

أقول له: لا تعب نفسك. الحزنة فارغة وموجودة للتفليل الساترين (كاموفلاج) لا أكثر. إنه يضع نفوسه ومجوهراتها في هذه العلبة البلاستيكية الخفية في حيا طيري في قاعها تحت دبليس زوجته وأمشاطها. لقد أعطاني نفوساً من هناك وتركتني أجرب عقدها للمسي الكبير.

بسرعة تفرغت عيونات العلبة في حطبة يدها: مجوهرات بعشرات آلاف الدولارات وأحشوات مختلفة. إنه هو إلى الباب الزجاجي الذي يفتح على الحديقة وتحتة ويخرج ثم أطلق يده خلفه، وعندما أطلقه كسر زجاجه من الخارج ثم عاد ودخل بعدما مسح بعباته.

كنت قد شاعدت شيئاً مماثلاً في السجن. حقاً إن السجن تعلم كل شيء. قال لها بيرة فخر: الآن سيظن البوليس أن سارقاً ختفه في نومه.

تقوم بترتيب الفراش نسياً ليلدو وتكأن شخصاً منفرداً نام فيه لا ساحة

غرام وأقول له: دعنا نخرج كلّ منا على حدة. لن يرانا أحد في هذا الظلام.
ولكن الحيلة أفضل.

ينهرها: أنت السبب في هذه المصيبة.

نقول ونأثما نذكره بأنه هو القاتل: أحمد ربك لأنك قتلت في بيته الرضي
هذا... يوم إجازة الخدم أي في غياب الشهود... باستثنائي!

ها هي أيضاً سعيدة لأن قتل جرى هنا لا في القلعة المحروسة جيداً في
الحديقة... ذلك لا يصدق.

يتكرر شاعياً: أنت السبب يا...

تبهمني هذه الاكتشافات. ما أجل أن أكون شبحاً وأرى الذين عرفتهم ولم
أعرفهم على حقيقتهم!

أقرر أن أتبعها إلى بيتها... كان الأمر مثيراً للفضول ويكاد يكون
مسلماً. سألني فيها في القلعة وأخبرها. منذ صغري وأنا أعاف كثيراً من
الاشباح وأزواج في الظلام، وها أنا اليوم شبح يفتدونه أن يجزف الناس.

وقفت في طريقها وهي تغادر البيت وزعفت في وجهها بصوت مرعب،
لكنها لم تبال كثيراً بل سألت زوجها يسدوه: هل سمعت صوت حركة في
الحديقة؟

أجاب: إنه صوت الريح. سنلتقي في البيت.

قررت أن أذهب إلى بيتها لأرى لحظة معانيتها لما حل غيبتها.

لم أكن شاعياً من تاجي الذي عطني قدر نفسي منها. كنت أريد أن
أراها تتعذب. وعاشياً ليست كلمة ملائمة: مشاعري الآن من لطف غطفت أقل
حدة وأكثر عمقاً، مثل ضوء مظلم...

ما أؤكد أقرر للعباب إلى بيتها حتى أجد نفسي هناك! يحدث الأمر بسرعة
عجاجة، مثل انتقال نقطة من الضوء على جدار. حين كنت صغيراً كنت مولعاً
باللعب بالمرآة والشمس: أمسك بسرعة أي وأنا داخل غرفة ظليقة، وأترك
الشمس تسقط فوق حيفتها من النافذة ثم أزمي تلك النقطة الضوئية على
الجدار. بعدها أحرك يدي حركة صغيرة وتركض نقطة الضوء بسرعة في غمضة

حين مثل حشرة من نور.

وأحيث بحشرة النور تلك وأجعلها تركض كاللجونة من جدار إلى آخر
وعلى السقف والتقصصها والنطق بصوتها، وحين يملو صوته كثيراً يأتي لي
ويزجر لي بصوت حنون لأنه يعرف أنه لا يملك لي ثمن لعبة لصغيري... لي
الجميل الجميل لو يراني الآن كيف صرت شيخاً وأتحرك مثل نقطة الضوء لنفسي
وليكن طويلاً لأنني مت وبها أنا أشعر بالحاجة إلى البكاء والعويل...

تدخل ناهد وهي تتكلم مع نفسها بصوت عال وأزاعها بوسوح في الظلام
ربما تشعل النور فأزاعها بوسوح أقل. تنشم هذه الليلة المشحونة التي أدمى فيها
زوجها أنه سيهر مع أصحابه وقائماً.

لقد كان على الأرجح يرائها، وسرق منها مفتاحه. وقام
بجعل نسخة منه قبل أن يذامنا.

تتابع الشناتم البديعة بصوت عال. و... أنت هذه السهرة. ما
الذي سنفعله الآن؟ ومن سينفق علينا. كان زوجي يصرف طوال الوقت
ويشاهل. فلي خضرت ركنه الليلة؟ يا هذا اليأس عند عروبوا بيوتا في بيروت
أولاد وال... أولاد الكلد... والكلد...

تدهشي بذاها. كنت أظنها جميلة ورفيعة كغرائفها وليست بحاجة حتى
إلى الدخول إلى الحرام لقضاء حاجات مفرقة مثل وغبة البشر...

كنت أظن النساء الجميلات كالدمى الخزفية البديعة لا يلعبن إلى هيت
الخلعة، ولكنهن فيها يبدو كبقية البشر، ويشتمن أيضاً بلذات مطلقة ويسترن
على الجرائم...

يدخل ناجي هائجاً ككلب حراسة خائب، وقد استعاد سطرته في
البيت.

يأجها. يضرباً على وجهها.

نبحن في وجهه يوقاحة وتقول له: لا تلمب عود الزوج الضعيف الملهود
فأنا أحرف علاقتك مع كارمن وقد شاهدتكما معاً في السهرة منذ شهر تملكان
ذلك واثنين هالابين وشاهدتك تحملك واسترلي عليها بكل فعلاتك... كنت قد

لحقت بها إلى غرفة النوم لإصلاح زيجتي . ألم تخافا من أين يسهطكما زوجها؟
يلعل ولا يقول شيئاً.

يرغمي على مقعد ويدفن وجهه بين يديه . أحاول أن أفعل مثله فلا أجد في
وجهها شيئاً.

كلومن ، زوجتي ، مع هذا الحنزير البشع؟ ما الذي لديه وليس ليدي ، أنا
التي كانت تدعو ، وأكثر الناس وسامة وكان الأحق الذي هو وأنا؟ يابني رغبنا
كلها؟

حسناً . ضيطني مرة مع خادمتها البشعة . وماذا في ذلك؟ حاولت أن
أشرح لها أنه حين تتحرى المرأة لا يوجد فرق بين خادمة وحيلة ، وحين ينطق
الضوء تستوي في الجبال كلوتيا شيلوز ويوي غولدرخ . اللهم التجديد في خط
البشرة ورائحتها وملبسها و... و... و...

لم تظلي شيئاً ليلتها . ظننت صامتة . قلت لها إن الرجل بحاجة إلى ذلك
والى التبدل حتى مع خادمة بشعة . أمر مؤسف لكنه حقيقي . ولست خيراً من
أعمل زولا الذي أنتج أولاداً من خادمة زوجته .

نوقعت أن أجيء : والمرأة أيضاً كذلك لتتأخر وأخبرها وأذكرها بأنني
رجل وهي امرأة ولما فارق بينهما ، ثم تصالح وأقسم لها صداقة التي لن أكررها
وننتهي من الأمر وأعود إلى تكرارها صديقاً؟
ظلت كلومن يرميها صامتة .

تقول ناهد : لماذا حضرك مسجوح وأنا عنقر؟ ولماذا قتلك وأنت تفعل مع
زوجته ما يفعله هو معي؟

يتخضض صدره مثل ذئب ويصرخ بها : اخبرني . أنا رجل وأنت امرأة .

تقول : انتهى الزمان الذي كان فيه جواب كهذا هو القول القليل! ...

عظمت أن أبدأ بمحاضرة عن تحرير المرأة وحين ازدواجية المياعر وطير
ذلك مما تسطره بعض الكاتبات وضابطتي كثيراً فذهبت معهن في السهرات ،
وأروي الحكايا الوهمية عن مغامراتي معهن ، أو طارفتن في وتصفني ... لكنها

لحسن حظي صحت.

بعد صمت طويل تقول بده: والآن من أين سلت؟ هذه الجواهرات ينبغي طهرها في الحديقة ريثما تنتهي فترة الإجازة التي دفعها المرحوم لهذا البيت وبعدها تدرس الأمر. اللهم أنا لا نستطيع أن نبيعها قبل انقضاء زمن طويل.
تتابع: على شاشة التلفزيون يلقى القمص داتياً حل السارق حين يحاول بيع المبروقات.

يحيب: سنتق من «الكاش» والعملات المختلفة التي قمنا بسرقتها، ولكن يحلر كي لا يرتفع مستوى معيشتنا فجأة ونلقت أنظار المحقق كنا يحدث في السبيل!

- وبعد ذلك؟ نحن مشردان وأنت بلا عمل.. عرّب الله بيتك الذين خرجوا بيتنا. ما الذي ستفعله بعد ذلك؟

يحيب: بعد ذلك سأطلقك وأتزوج من أرملة كلارمن.

.. ماذا؟

يتابع بفخر: إنها غوت بي حياً..

تسأله بده: وبعد ذلك؟ إنها عجوز في الخمسين مثل المرحوم ونحن شاهان في مطلع حياتنا... ماذا تريد من هذه الزهقة؟..

- وأنت ماذا تريد مني؟ يتابع ساعراً: سأزوجها لشيائها وأعزها معك لذلك!!

- دعنا من الملوك! بعد زواجك منها سأقتلها أنا وراثتها أنت وتعود إلى.. جريمة بجريمة وأنت الباني..

غضت وأنا أسمعها. النساء اللواتي يتكرن داخل أجسادهن الفسدة ويفكرن فيها يدو بفضل ما يفعل الرجال ويمارس «التقليد» و«الفن» عقليهن كي لا تتم إبائهن بانتظار اليوم المناسب للاعلان عن حقيقتهم مرة واحدة حيث يمكن العالم.. يا لمن من شيريات!

أشعر بالدهر منها ومنه. من المفترض أن الأشباح يتوكلون البشر ولكن

العكس فيها يبدو هو الذي يحدث . ونحن صارت نأخذ نخطط منذ الآن لقتل كارمن بحيث يبدو الأمر حادثاً وقصياً وقتلوا ويكون هو بالتأكيد بعيداً عن المكان ومحاطاً بالشهود صررت أصرخ رعباً بصوت عال .

يسألنا زوجها : هل سمعت شيئاً ؟

نجيب : إنه صوت الريح .

لا . ليس صوت الريح . إنه صوتي . . . أحاول أن أهر الساتر والثريات وأفتح الأبواب حل مصاريعها ثم أغربها وأفتح صناديق المياه وأكون ماء حوض الاستحمام بالأحر كالدم وأزلق السرير والمقعد تحت الجدران فوق وأحطم أية الأثاث وأفعل بقية الأشياء التي ينسبها البشر للأشباح . لا أستطيع . . . ليست لدي أية كتلة مقلية . الأشياء تحترقني كما كنا نحترق الضوء أنا وأي في سبيلنا الكثيرة ونحن ندخل بعد بداية الفيلم ويزحق الحضور . كنت أحس جسدي خروفاً أما أن أتميز عن نبي فقلت الشائعة الشبيهة بالصنوبرة التي زرعتها أمام باب بيتنا . كان يجب كثيراً زراعة الصنوبر والأرز . كلها ولد أحضنا يزرع له صنوبرة أو أرزة . التي ماتت أرزته فتشاهم أي كثيراً والغريب أن أخي مات أيضاً بعدها . صنوبري صارت أطول مني وها أنا قد مت فهل ماتت هي أيضاً وصارت شبح صنوبرة ! هل للأشجار أشباح أيضاً ؟

ها هو ناجي يشاجع ناعداً بجنون ويبحر فيها وأعلمي ما يجب بعد عن صخورها . إن الأمر غريب ، وأنا شبح مسكين مذخور .

إنها جنفاتي وهما يتعلمان فخاصاً بعد أصرر وتكشف الحقيقة وإنها جها طيفات ، واحدة فوق أخرى .

خوفي منها يجلبني إليها في أن وأصجز عن مفارقتها . يبدو أنها تنشي حقاً معه . أراقبها الآن وأنا شبح واكتشف أنها كانت تكذب وقلقي نوبات لشربها معي . نعم . لديه ما ليس لدي ولم أكن حقاً أكثر الرجال ضحولة كما كنت متأكداً ولا أكثرهم عبثة ولا . . . ولا . . .

تقول له بعد ذلك : يجب أن نحاول النوم الآن . علمت منه قبل تشيرفك أن الحائمة ستحضر غداً فجراً . وهذا يعني أنهم لن يكتشفوا جثته قبل ذلك .

يتحدثان كشر يكتن حديد.

هكذا، بسرعة، صار اسمي: جثا... أولئك البشر الأحياء لا يتكفون فيها يدو عن إثارة دغلة شيخ مسكين مثل وتقرقه. اكتسب ونوح تي أوعها فتقول ناعد: هل نسيت صنوبر الماء مطوحاً؟ أغادرهما إلى الحقل وأشعر بالوحشة. يتف القيل ويحضر غلي (أما زال لي قلب؟) وسط عواء القدي المظلم اللامعالي.

أجلس على صخرة وأبكي دون أن أدري لماذا وأحس أن أصرب راسي على الصخرة أصربه أصربه حتى يسيل الدم ويترائي أبي ويشفق عليّ وأحملني عائداً إلى البيت ولكنني أعرف أن ذلك لن يحدث لي.

أقرر أن أسكن بيتاً ما من البيوت ليصير بيتاً مسكوناً وأحاول أن أخيف فيه الناس بقدر ما يطيعوني. لكنني لا أعرف أي بيت أسكنه، أنا ألتفتع من قريتي بعدما تدم بيتي..

صحيح أنني الغريت وصبرت ثوباً ولكن حتى الأشباح لا تستطيع بناء بيوت عليها النصف ودفنتها الجرافات..

يا لي من شيخ ليس لديه أي بيت طفولة وصبا يسكنه ويجعله مسكوناً. إني شيخ مسكين مدحور لا يعرف إلى أين يضي والوحشة تلتله.

أتلكر بيتاً قبل لي إنه مسكون بالأشباح في القرية يوم اعتزمت شراعه. أقرر الذهاب إليه. أجلس أمام بابه. يبدو أن الأشباح ليسوا بحاجة إلى وسائل مواصلات. حشرة ضوئية تركض، تنكسها مرآة يد طفل عليل وتشمس لا تكوي من أين جاءت.

أنتقل في الزمان والمكان بأسرع من الضوء واكتشف ذاك كشبح ومطابق كالإصرار في الظلام.

أأبرج الأشباح.. اقرأ بحروف من ظلام ملون على الباب. أدخل. المكان ينج بهم. أراهم ولا أراهم وأعرف أنهم هناك. ليس بينهم من يرتدي الستائر البيض وعلاوات السرير (كنا فعلت ناعد مثلاً).. كلهم عركا في عزهم يتضورون مثل عرقاً وحيرة..

- مساء الخير يا معشر الأشباح -

- وعليك السلام... تبدو جديفاً هنا. أعلأ بك.

كم هم لطفاء مثل نزلآء مصبح عظمي لم تعلميهم بالكهرباء (محمدة شفايتهم) وتدجيهم في غرف الطأط الكأالة للأصوات كمسدسات الكفلة وحظهم بإبر النسيان في عورة دعوية تصيح فيها أشجار الأرز والصنوبر وزهر الليمون ونباتات التبغ والبن والزيتون والأحباب الذين غدوا بنا أو غدوا بهم والمضي والمضي والمضي وفعل المضي الذي أفتال الحاضر والمستقبل والدورة الدعوية الجسدية الكفلة بتدابير أصاحت وجهها وصوتها وذاكرتها وخطبت في الشرايين، والتفاهات للشعة والسلسلات التلفزيونية المكسيكية والطعام المغن بالحر والجموح والرماد المتحرك في تثليب القلب المخدوع بالزمن والنساء... الدورة الدعوية تفرع تفرع تفرع جدران الطأط...

تصرخ ناعذ ونهض من نومها: ما هذا القرح.

يقول للمي: لم أسمع شيئاً...

انطل ثانية كلفوض إلى «أوربح الأشباح» وسرعة كيا لو كنت في مكانين في وقت واحد، واتجه نحو ذلك الشيخ التطوي، على نفسه مثل مشعلة تشقوها تحت الشمس عشرات السنين: إلى مطبخ وشايف...

يجري: دعنا نلظر إلى النصف اللأل من الكأاس...

أنهت.

يتألم: لدى الأشباح إمكانات شتى، محدودة وشاسعة ككأل حكم ذاتي. يومك مثلاً أن تتحرك داخل الزمان والمكان مثل نقطة عبود جنة ولعابها شرط عدم الاقتراب من النهايات والبدائيات والخطوط الحمر...

- مثلاً؟ -

- يومك اللعاب الآن لإلقاء نظرة الوداع على جثتك والذهاب لحضور جلسة فتح وصيكت وقراءتها...

- ولكن...

- لا يوجد «ولكن» لا في عالم الأحياء ولا السموات.. «ولكن» مشنقة في الحديقة ومعلقة على الأسوار.. أنظر من الشاغلة تواعا بالنيران مضيء السواد وقد نقرتها الجوارح.. توقف عن «ولكن» وعن الدهشة والاستغراب فقد تنجر..
- ولكن...

- اعرض ولعب من وجهي.. لتجدران آذان حتى في بيوت الأشباح، والعقاب ألي.. تعلم لدرائك للحلوة واستطعمها بدلاً من مناطق التحصيل.. ولا فلك معشر الأشباح وأحلت منك المظلمة لباتهم...
- حاصر مولاي.. سترك القضايا الأزلية لحكمكم وأعود إلى شؤون الخاصة..

- لماذا لا تتفقد جثتك وترعب الأحياء؟ الوقوف على الأطلال «منصوح» به حتى ولو كانت الأطلال جثتك.. المهم ألا تطرح أسئلة كبيرة..
- سأفعل.. سأفقد جثتي!

ما أكاد أتوي الذعاب إلى هناك حتى أبعد نفسي هناك
ها هي جثتي البشعة ومصور البوليس يلتقط لها الصور. اللغة. كنت أحب دائماً أن أصور جانبي الأيسر الجيد حيث أغطي «سجادة» في وبدو حياي الضيفتان على اتساع، وأغطي صلبة الجانب الأيمن من جيبي.. لا أحد يقدر مشاعر الجثث ناهيك عن الأشباح.

ها هي كلزمن تنصب. كلزمن الجميلة الشاعرة الرائعة الفردة الحمراء الدائبة الرقعة التي انتزعتها من عرش الملوك لتتوجها على عرش قلبي ونسيت الدنيا لأجلها ونسيت صنوبرات أبي.. آه أبي..

ها هي كلزمن تنصب فوق جثتي وهو مشهد تشلي راتج.

الضحى يتوالى لها: «مسكون». ماتت شاباً! وهو يحرف أبي لحفوزت الخمسين منذ خمسين سنة مثلاً...
..

دنيا من الفردة في حديقة الحيوانات ولكن بسيارات ولباب وقصائد وقصص وروايات وباحات وحقائق كثيرة وإعلانات نيون وسوبرماركت وعامق

ويترك وظائفه وحروب والتفريونات وآباء بينهم من ثم بعد حياة .

أه أي . . كم كان جيلًا وشاعراً . عدنا معاً من الحقل ، وأقسمت له أن أعود من الاضطراب ثراءً ، وأعمر له قصراً ونسبه وكانت كل من ترفض ترفض وفقدت رشدي .

يتقنون جشي . يقول للحقق : إلى المشرحة . أحب أن أرى تشرمي ، ولكم يتقنون جشي خطاً إلى مستشفى المجانين . المحقق . كل ما يفعلونه خطاً ووحدي الصبح .

يذهب المزعون . كل من في السود جميلة . كم كان منظرها قبل حضورهم مسلماً وهي تضع ما تحتاج والأرملة وتهد أن يكون لامرئاً ، تضع خط الكحل ثم تمسح بلعنها بطرف أصبعها ثم المسح الزبد من اليدوة ياطن كلها ثم الحرب لينة تنقل منها عرقه سوداء شقافة (أعني حاتل) ويندو وكأنها وبخنتها تريدنا حسناً فتبسم في المرأة ولا ترائي وألقاً قريباً إلى تقوم بزيارة طبقات الأسمر حل شفيتها . ترخي الدانتيل حل وجهها كلها أضافت طبخة «بودرة» كما في «بروقة» لسريحة مهمة . والأنا ها هي تحلق القبة كمن يرمي بفنّاع لحنه أغمدة . يلقى معها ناجي بعد انتظار ناعذ بحجة الزكام وانسحابها إلى البيت كأيمة صديقة وفيه لا يمكن للشك أن يرادها في صديقتها .

أرى حل كانت كل من تعرف سر علاقتي بناعذ؟ لو كانت تعرف لانتبهت الفرصة ولطردها . الأرملة تصير ملكة بعد وفاة زوجها ، تطرد عشيقاته الباكيات حتى التواني أحبهن أكثر منها .

لعلها لا تعرف أن ناعذ واحدة من عشيقاتي لكنها لعنوس بوجوده الأضريوت .

ها أنا أحوال إيجاد المبررات لجائتها لي مع ناجي كي لا أخرج دائريء للشبهة! كأنني ما زالت بشرياً وكذاها ولم أقول إلى شبح أصيل حقيقي .

يدو أن الشقاء من الكافي صعب حتى حينما لنحول إلى أشباح . ويظل الأثم يطاردنا في الدعايز .

أركض في الدعايز شبحاً زليفاً مذهوراً لطرده أشباح بشرية حية . أه .

لا مفر. ولكن حالي كشبح الغنبل عما كنت سأكون عليه لو عرفت حياً ما هم عليه من كذاب.

أعرب. الحول حشرة من نور مظلم أعيم طويلاً في غيوبة اللامكان واللامان.

حان الآن موعد جلسة فتح وصفي وإن تقوتي. ها هي زوجتي - أمني أرمني - في أيس زينة تستعد للتعاب لثرت ثروتي.

رائحة الخطر تقوح منها. لم أكن أعرف أن للأشباح حاسة شم. كنت أظنهم فقط يرتدون اللامات البيض ويندرون في المصور.

كارمن لا تدري. ناجي لا يدري. ناعدا لا تدري. ما أسمعني بطناعهم. لا يعرفون أن أحدا منهم لن يرثي وإن يتفجع البقود منه. لقد كنت أكثر الجميع عبثاً ومكراً وهذا عهد الأشباح.

قبل أن تغادر كارمن البيت يحضر وفد من الوجهاء بلباب الحداد. يفاخروا وليس المجموعة ويقول كلاماً كثيراً وشعراً وثلاً تأليفاً مفاد أن لا تنقطع عطفا المرحوم (أي أنا) عنهم.

حسناً. كنت أمول واحدة من تلك المجموعات والحيرة التي يعرف الرب وحده ماذا تفعل ومن تقدم ولك أين تلعب أموالها - بالإسالة إلى جهنم الجاهلة - كارمن تؤكد لهم بكل «أصالة» التزامها بـ «تراثي» والشيك سيصل في الوقت المحدد ويحتجون احتلالها وأريجيتها و«استه لوفرة التي زينت وجهها بمكياجها وتنتهي الجلسة بصورة للتجربة.

تركب كارمن «الكاديلاك» في الطريق إلى النادي يرافقها ناجي وتواعد. أتحرق شوقاً لشاعبتها حين تصل إلى مكتبه ويقرأ الرصية عليها وعلى صديقتي الأسرة الشابين الوفيين اللذين يرتبطان معها في التراء والغراء والسهرة والأهم في الشيكات.

ها هي تهبط من السيارة ولا تحس الأرض يقدّمها وهي تشي مثل نصف طائرة كان المرح أيضاً يحوّل الأحياء إلى ألياح تعوم في فضاءها الخاصة.

تجلس عذابة بـ «وزير القيمة» ناجي و«وزيرة المصرة» ناعدا.

يقراً للملحمي الوصية ويغمر القهول الجميع بن فهم الملحمي لأن فرصة إدارة أملاكه لن تتاح له بعد اليوم ولا فرصة مغالبة أوطان والناطقة باسمي وموزعة ثرواتي على من تشاء ويعرف كيف يشكر.

إنها حاجة غير معدومة للجميع فقد تبرعت بأملاكه وحرمتها - وحرمتهم معها - من التراث.

في البداية لكاد كارمن لا تصلّق. ألفقز في القضاء فرحاً واعتزق السفك والجدران حين تفتح فيها الجليل بدعشة، ثم يغمس عليها.

يغمس على ناعده أيضاً، أما نابي فتصطب عضلاته كلها ويهيكته بالضمور، لأن دجاجة الفسة لا تبيض شعباً كما توهم بل آفات وأفات نشوة كيشة الفقيرات لا أكثر.

يا لي من شيخ سعيد. نعم. لقد كنت مبتوراً بعض الشيء حين أوصيت بشوقي كلها للأشياء العجزة لتحسين أحوال الشيوخ كي يصير لهم إلى جانب السرير طاولة صغيرة (كومودية) يضعون عليها صور الملحمي الحقيقي مثل وعمل ماضي بقية شعب الأشباح.

لنا زعيم وجهية لحرير الأشباح وقد كُرمّت أموالي لأجل ذلك.. وليس كالعجائز من حليف للأشباح فهم على العنة ريثا يتم انضباطهم إليها، ولم حق اعتبار الصور التي تمثلهم لوضعها إلى جانبهم قرب السرير، ولم حق الاحتضار وهم يملكون أحياء لا يسمعون، وتنفوح رائحة الصنوبر وزهر شجر الليمون والريح والخبز والبارود وأحباب يفاخرون الروايات المحكية عنهم ويتصلون من بعض الحكايا الزائفة التي رويت لمصلحة الأحياء..

أجل! بعد قراءة الوصية، انغمس عليهم جميعاً تقريباً، وكان ذلك جيداً جيداً.. بل إن أنشأنا عصابة الظلال غابرتهم لحظة الإغناء وكانت ثرائي وتحاورني ولكن كانت أنشأنا مغمس عليها ولا بد من الانتظار قليلاً ريثا تؤكد ذاتها الشعبية بمرورها.. أنه كم أنا سعيد لهذا المشهد اللطيف حيث الذين عرفتهم، يفتنون على الحالة بين وهم الحياة والشحبة.

أرى جلاتين يفتنون من شباب يضاء. رجل وامرأة. إني شيخ وليس

بوسمها أن يرباني، ولكن... .

الرجل يقول للمرأة: هذا يومك الأول كعمرة ولا بد من تعريتك بالرفى... فهل لميت؟

- لا. من هذا المسكين المتطوي على نفسه كشح؟

- هذا بالضيظ ما يمكن ثوبه عنه... أحسنت الوصف. إذا كان الرفى السابق يقطن نفسه جمال عبد الناصر والأعصر اسحق رابين لهذا يقطن نفسه شيحا؟

- غريب... .

- لا غريب في مستشفيات المجانين... نحن الغريه، إذ لديهم عواهم ومنطقهم الخاص... ورووسهم الحسية كالقلاع.

- شح من يقطن نفسه؟

- شح نفسه!.. إنه مقرب جمع ثروة وعاء إلى لبنان وجنّ.

- لماذا؟

- هذا سؤال لا يطرح في حال الجنون. ما قد يسبب جنون رجل ما، قد يمر به الآخر لاهمالياً. نعرفون أن الروح دعائيز مقلدة ومحاولة التفرز من تافهة الأسرار خطيرة قد تؤدي بالفرد إلى الضلّة الأخرى المجهولة... .

- حسناً ولكن ما سبب جنونه في غتنا؟

- لا أحد يدري بالضبط لماذا... حاولت جمع بعض المعلومات عنه لغرابية حالته... قيل لي إنه فوجيء ليلة وصوله من الإغتراب، بعد طول غياب حاملاً ثروة طائلة، بأنهم أودعوا والده في مأوى المجرة وكان والده المسكين يحضر في سرير حفير، بين عشرات المجرة الآخرين في القاعة للزدحة بهم ويمكثونهم. ولم يتعرف عليه والده قبل موته... كان المسكين يموت ولعله عرف ابنه وعجز عن التعبير عن مشاعره... أو لعله أراد معالته... من يدري؟

موت الموالد نصف المختل الذي تجاهله وهو يحضر - أو لم يعرفه - زاوله وخلق لها يبدو حالة رهبة من الإحساس بالظن والندم.

- وكيف وصل إلى هنا؟

- نقله صاحبه إلى ذات يوم. كان يشكو من أوجاع رهيبة منتقلة في جسده لا يمر طيباً جسدياً لها، إلى جانب انيار وحزن ملهوم في حالته. عاجله بالعمل في الزراعة مع رفاكه، وبالعقائير، والرسم وكتابة الشعر إذ قيل لي إنه بدأ حياته شاعراً.

للهذه المرحضة: كل عربي يتوهم نفسه شاعراً. هذه حالة عامة وليست واقعاً على المجانين.. ما من عربي إلا وبدأ حياته شاعراً فمناطلاً فواقعياً أو مجنوناً!

يضحك الطبيب ويقول: كنت أحاول أن أنقل إلى تليها روحه عبر حرفه. كتب قصيدة مؤلة جداً أسمها «أنا شيخ».

- وملا بعد ذلك؟

- صار ملتصقاً بأنه شيخ، كما المريض الجالس إلى جانبته يتوهم نفسه «فخر الدين المني»! - ويعد ذلك؟

- ناه عني في تلك الدعايز، وانتقل إلى الضفة الأخرى ولم تنفع معه أنواع العلاج من صفحات كهربائية وقوية كهيمابوية.. أعلن أنه يعاني من عقدة العظيمة والشعور بالذنب في أن، الله يرى أن العالم غدر به، ويشعر بالتقصير تجاه والده ويمزق ثلابة لعل الندامة.. إنه الآن من رعايا الضفة الأخرى ولم يعد يوسعي أن أسمعه صوتي أو أسمع صوته فهو يظن نفسه شيئاً ولا يقول شيئاً ولا يتكلم غلوطاً ويتوهم أن أحداً لا يراه.

- ممكن. ليس سهلاً أن تعود بثروة لتدلل والدك فتجده يحضر ولا يعرفك ليودعك على الأقل أو يفر لك.

- يقال أيضاً إنه أحب في الغربية والقصة عربية الأصل خرافية الجبال ماهرة الإقناع قيل إنها تدعى كازمن وخاتته بعدما أنهت حتى كتابة الرسائل لوالده.. كانوا يظهرون الإحسان بالذنب.. ولكن من يدري.. القبط يداني جداً أمام أسرار دعايز الروح وساحاتها المشرقة للرياح الغامضة، فهذا رجل

وليس «كوميونتر» .

إنها بتأمران عليّ ولا يعرفان أنني شبح وأني أسعها وأرحها.

أه كم أنا سعيد لأنني شبح ويوصي أن أتحدث على كل شيء دون أن يراي أحد . . حتى الجلائان اللذان يدعيان أنها الطيب والمرعبة الجديدة.

الإعداد يتكرون في ثياب مختلفة أهمها رداء الطيب وزيّ المرعبة .

أما العلوة السابقة التي تكوت زيّ المرعبة القديمة فقد قتلها شبحي .
سحبها تحت فصوص الصنوبر في الحاصلة وظنوا أن صاعقة ضربت الشجرة حين
خادوت سيارتها وسقط الغصن فوق رأسها وقتلها.

البشر الأحماء لا يفهمون شيئاً . لا يعرفون أن الأشباح مذكورة أكثر منهم
لكنها لا تموت ولها ضراوتها الخاصة، وتتنزّل الإنظام .

. . ها هو أي يتخفلي حل الضفة الأخرى ثما يفعل كل يوم . إنه يعرفني
وهو سعيد بمومي . سألتني به ونتابع زراعة الشجر الصنوبر والأرز في الحديقة
إكراماً لولادة الأشباح وما أكلها . لقد زرعت شجرة الصية لم تولد بعد وعلقت لها
ملصقات في شوارع القلب أملين أن تولد شعباً مرة واحدة ولا تتلوث
ببشرتها.

ما زال الجلائان في ثيابها الأبيض والقران ويحومان في الكائن . سأنتظرهما في
الحديقة ذات حاصفة وأساعدهما حل الولادة كشبحين يرتين مثل بعدما أسحق
وأسيها الحيينين بفصوص شجرة وأريجهما من سعيها الخامس وأقدم غصنة لها .
السلام عليكم . . أنا حشرة ضوئية قلبية إلى الجانب الظلم للظلم . فمن
ينبغي؟ كنت في السرير معها . أنتظيها قارباً إلى جزر القنشة والقلة والنسيان
حين دخل زوجها . في البداية لم أصلح عيني فلبس يتي مقفل ولم أسمع صوت
تحطيمه فكيف دخل؟

شاهد ما نحن عليه ولم يقل شيئاً لكنه صار يتقدم نحونا وهو يشفق متشجياً
بصوت حائل كمن يحضر وقد أسك رأسه بيده كأن عتقه لم يند يقرى على
حله .

لاحتلت أنه لا يسك يسكن أو يسكن وشعرت بشيء من الزلزال لأنه
غير مسلح . قلل وتقدم نحونا بقامته الفارعة الضخمة . يدها امتدتا إلى عيني
وهو ما زال يشهد كمن يظهر إلى ذروة النشوة وهو يتلفظ

١٩٩٤/٩/٢

- بذلت کتابخانه حله التخصصي داخل ركني منذ عام ١٩٩٨.
- باشرت تنظيمها على الورق يوم ١٤/٨/١٩٩٨.
- قيد كتابتها كمسودة أولي يوم ٩/٩/١٩٩٨.
- قميزتها ظهر يوم ١٣/١٠/١٩٩٨.

المحتوى

٥	أهداء
٧	قطع رأس القطط
٢٥	التصالح المعدني
٤١	المؤامرة على بديع
٥٩	سجّل : أنا لست عربية
٨٣	زقزقات الاحتضار
١٠٣	جنية البجع
١٣٣	ثلاثون عاماً من التحل
١٥٣	الجلادب الآخر من الباب
١٧٣	بيضة مكتوفة الفراء
١٩٩	قلعة الدماغ المعلقة



قصص وروايات

عينك قذري (تصوير) - (الطبعة المائتة)

لا بحر في بيروت (تصوير) - (الطبعة التاسعة)

ليل الغرباء (تصوير) - (الطبعة الثامنة)

رحيل المراقاة القديمة (تصوير) - (الطبعة السابعة)

بيروت ٧٥ (رواية) - (الطبعة السادسة)

كوابيس بيروت (رواية) - (الطبعة السابعة)

ليلة المليار (رواية) - (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة التاسعة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الثالثة)

الاعماق المحتلة (الطبعة الثانية)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)



الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (تصغير) - (الطبعة السادسة)

الجسد حقيقية سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينفض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع. غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثانية)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)

